المماليك الشراكسة

المماليك الشراكسة

تأليف

شفيق توفيق إسماعيل

المماليك الشراكسة

تأليف: شفيق توفيق إسماعيل

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

قال تعالى

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾

آل عمران آية ٢٦



الإهداء

إلى أبناء قومي...

المقدمة

لقد كتب العديد عن عصر المماليك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل أنصفوا بذلك؟ ما هي مصادر ذلك التاريخ؟ فأغلب الكتاب المنصفين لذلك العصر قالوا بأنه عصر رقي وتقدم[١]، وخاصة ما يتعلق بالعلوم أو على الأقل ما يتعلق بالتاريخ وبالأخص سجل الحروب والشخصيات.

بالإضافة إلى العلوم الدينية وما يتعلق بها وفروعها بشكل منفصل وباقي العلوم التي كانت تشغل اهتماماتهم، وكان هناك العديد من المدارس الدينية والدنيوية مع تأمين ملحقاتها ومستلزماتها لطلاب العلم، ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟.

كان عصر الانحطاط عندما احتل العثمانيون بلاد الشام ومصر، ونذكر حينما خرج السلطان سليم الأول العثماني من مصر سحب كامل خيراتها وعلمائها وكتبها (المخطوطات)، وأجبر الصناع المهرة بالذهاب إلى عاصمة دولته، وتلا ذلك جعل لغة الدولة الرسمية اللغة التركية، ونعت نفسه بأنه خليفة المسلمين بإجبار الخليفة العباسي التنازل له، وأعلن بأنه حامي المسلمين[٢]، ونقل عاصمة الحكم من القاهرة إلى الأستانة[٣]،والجدير بالذكر أن العثمانيين أصل بيتهم من التركمان النزالة الرحالة[٤].

جعل اللغة التركية رسمية بالدولة قد أثر على اللغة العربية وآدابها، وحدث بعض التزوير المقصود غالباً بنقل المعلومات السابقة والمكتوبة بالعربية إلى اللغة التركية سواء في نقل الأخبار والحوادث والشخصيات لفترة، وأثر ذلك على الحقيقة العلمية والمستقبل. وكما قيل (من استطاع أن يشوه التاريخ واستطاع أن يصادر المستقبل)[٥].

---

[١] - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص ٧.

[٢] - مصر والشراكسة ص١٤١ ومن الموجز في تاريخ سورية ج٢ ص٦٥.

[٣] - الوطن في أدب الشراكسة ص١٥ والوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص١٧.

[٤] - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص ٢٠١.

[٥] - فلسطين والقرشاي من بداية الكتاب.

بعد إخراج العثمانيين من البلاد العربية يبدأ بالتدوين من جديد وبدأت الثقافة العربية نشطة، وبدأت كتابة التاريخ من جديد، ولكن استمر التركيز على الشخصيات ونتاجهم كما أعيد كتابة بعض المخطوطات القديمة مع بعض التعليقات والتنقيح عليها، وبدأت الكتابات الجديدة عن التاريخ مع ما حدث له من تشويه نتيجة السيطرة العثمانية على البلاد العربية أربعة قرون تلتها بعض الدول الأوربية على البلاد العربية (وهكذا صار التاريخ تاريخ الرسل والملوك وحتى يومنا هذا يدرس الناس التاريخ، حتى في الجامعات وفق الحقب الملكية، وليس حسب القضايا والأطوار الاقتصادية والاجتماعية والحضارية)[1] ، وبقيت دراسة التاريخ مرتكزة على (الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال)[2].

تأليف كتاب تاريخي ليس بالأمر السهل، فلا بد من التساؤل حين قراءة أي كتاب: هل الكاتب منصف في كتابه أم لا؟ وهذا المنصف ما هي ميزاته.؟ هل كتابته كانت بدافع تأريخ الحقيقة ونشرها أم بدافع محبة أو كره لشخص ما، أو لزمن محدد أو لعمل أو أثر تاريخي وإلى آخره من الأمور. ثم لابد من التساؤل عن مصادر هذا الكاتب وخاصة عند الحديث عن عصر المماليك الذي أنقذ الخلافة الإسلامية، وأحيا الأدب العربي والتراث العربي بعد تدميره مع سقوط بغداد، كما أوقف المماليك جحافل المغول والتتار والصليبيين.

كتب في زمن المماليك الكثير، ولكن بعد سقوط دولتهم أين بقيت تلك المخطوطات والكتابات. لقد بقيت ما سلم منها في بعض المكتبات العربية مثل دمشق ومصر وأخذ الكثير إلى الآستانة مع عودة السلطان سليم وما بعده، كما استولى عليها بعض الأجانب. ونجد ما كتب عن ذلك العصر في بعض المكتبات في أوروبا وروسيا وأمريكا، كما تم إعادة نسخ وكتابات عنها بطبعات جديدة بما يوافق هوى أولئك القوم.

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٣.

[2] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٨٥.

يلجأ أغلب كتاب التاريخ إلى النقل أو الاقتباس مما كتب في تلك الكتب ومن مصادر غير عربية وخاصة من قبل المهتمين بذلك العصر وعلى مبدأ كلهم أجانب، وقد أوقعتهم هذه في تناقضات عن ذلك العصر. وتجد في الكتاب الواحد مع المؤلف نفسه تناقضات وصفية للموضوع ذاته. وقد تكون نيتهم سليمة، ولكن كما قال الإمام الكوثري:(وقع بعض الكتاب وأهل العلم في أغلاط تاريخية وبسبب قلة اهتمامهم بالتاريخ، وإهمال علمه وعلم الرجال والأعلام وتقصيها وهو العلم الذي لا يستغنى عنه في ساحات العلوم البشرية)[١].

سؤال آخر يطرح نفسه طالما أن كتب التاريخ مشكوك فيها، لماذا لا ندعها ونترك الماضي؟ لكن هذه المقولة غير جائزة. كما قال الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف (من وجه إلى ماضيه بندقية، ستوجه إلى مستقبله سبطانة مدفع)[٢]. كما يُقال التاريخ يعيد نفسه ويقول الدكتور عبد اللطيف البغدادي:(ينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم)[٣].ويجب على المهتم أن لا يقرأ كتاباً واحداً فقط ويعتقد بذلك وصوله للحقيقة، بل لابد من قراءة أكثر من كتاب ومن مصادر مختلفة عربية وأجنبية لتكوين فكرة صائبة وصحيحة. وفي كتابي المتواضع هذا عدت إلى العديد من المصادر المكتوبة باللغة العربية وهي متوفرة في المكتبات في الأسواق أو موجودة في المكتبات العامة في سورية مثل مكتبة الأسد ومكتبة الجامعة والمكتبة الظاهرية وغيرها. ومصادري وأغلبها الكتاب عرب في بلاد الشام ومصر، ومن كتب مترجمة عن أجانب انكليز وفرنسيين وأتراك وروس ومن بعض الكتاب الشراكسة في موطنهم وفي البلدان العربية المنتشرين فيها.

---

١ - مقالات الكوثري ص٦٠٣ ـ ٦٠٤.

٢ - فلسطين والقرشاي من بداية الكتاب.

٣ - كنوز الأجداد ص٣٢٩.

قبل البدء في الكتابة عن عصر المماليك والذي ثبت الخلافة الإسلامية وأصبحت عاصمتها القاهرة في مصر وحكامها والسلاطين بعد أن نقلت من بغداد. والجدير بالذكر أن مقر الخلافة كان في دمشق زمن الأمويين، وقبلها المدينة المنورة زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

آخر خلفاء العباسيين في بغداد المستعصم بالله ٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ.ومع احترام المسلمين كافة للخليفة والتابعية الإسمية لبغداد إلا أنه في الحقيقة كان يشارك حكم العباسيين آخرون، ففي فارس كان يحكمها السلجوقيون وفي خوارزم الخوارزمية وفي أصبهان الإسماعيلية وفي أرمينيا إرم السلاجقة، وفي الموصل الأتابكية وفي مصر والشام الأيوبيون الأكراد[١].

سقطت الخلافة العباسية في بغداد على يد هولاكو وبالتآمر من قبل الوزير ابن العلقمي وتقدم الخليفة مع أولاده الثلاثة وكبار الدولة مستسلمين لهولاكو في يوم الأحد ١٠ شباط ١٢٥٨م، وبعدها خربت بغداد وبشكل لا يوصف وقدر القتلى بمليونين. وفي يوم الأربعاء الموافق ٢٠ شباط ١٢٥٨م قتل هولاكو آخر خليفة عباسي في بغداد مع ابنه الأكبر، وأمر بتعقب أفراد الأسرة الحاكمة. أما ابن الخليفة الأصغر فقد أبقته زوجة هولاكو، ثم أرسل إلى سمرقند وتزوج بمنغولية وعاشت بنت الخليفة العباسي أسيرة في سمرقند حتى ماتت[٢].

لابد في هذه المقدمة من ذكر شروط الحكم في الإسلام لمعرفة مدى صحة حكم السلاطين والذين سموا بسلاطين الإسلام.

أهم الشروط التي يجب توفرها في الحاكم سواء سمي بالرئيس أو الملك أو السلطان أو الأمير أو اسم آخر لابد أن يكون مسلماً لم يتلبس بأي كفر صريح، ومن الشروط لصحة الحكم لابد من البيعة ـ انتخاب أو استفتاء ـ من قبل أهل الحل والعقد سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة وأن يقترحه الخليفة مثلاً أو يعهد إليه من قبل الحاكم السابق، وأن يعلم الشعب والأمة وأهل الحل والربط بذلك، كما لا

[١] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٨.

[٢] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٩.

يجوز الاستيلاء على الحكم بالقوة أو الثورة ـ وذلك جائز إذا كان الحاكم السابق قد مات أو عزل بسبب شرعي صحيح أو يكون الحاكم السابق هو الآخر هو استولى على الحكم بالقوة والمغالبة. وكذلك لا يجب القبول بالحاكم الجديد المستولي على الحكم إذا كان الأول حكم بموجب بيعة أو عهد إليه وهو موجود. كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): (إذا بويع الخليفتان فاقتلوا الآخر منهما)[1].

إذا تمعنا في هذه الشروط ومدى صحة حكم السلاطين نجد أنهم كانوا مسلمين بل كانوا يجاهرون بالإسلام والدفاع عنه ونشر تعاليمه وإقامة الشعائر الدينية ويقومون بالعبادات ويحضرون للصلاة ويحجون بيت الله الحرام بالإضافة إلى دفع الزكاة والصدقات، وهذه الأمور من أركان الإسلام، أما البيعة من الخليفة فمعروف أن استلام حكم السلاطين كان قبيل استيلاء هولاكو على بغداد الذي قضى على خليفة المسلمين.بل الذي حدث أن أحيا السلاطين الحكم الإسلامي والخلافة العباسية وذلك بعد ثبوت نسبة أحد أبناء العباسيين وهو أبو القاسم أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي، وبعد تدقيق صحة النسب وحسب آراء العلماء والفقهاء والقضاة تم تنصيبه خليفة للمسلمين واعترف به السلطان الظاهر بيبرس[2]، وكذلك الخليفة العباسي في مصر قد اعترف بالسلطان نائباً عنه وتمت البيعة للسلطان، ثم تتالى الخلفاء في البيعة للسلاطين، ولم يحدث في عهد السلاطين أن أصبح سلطانان حاكمين في وقت واحد مع امتلاك البلاد الواسعة التي تسلطنوا عليها.

آمل أن أوفق في هذا الكتاب لشرح بعض الملابسات وتبيان أوجه الحقيقة ومدى صحة ما قيل عن السلاطين. والله الموفق.

---

[1] - الجهاد في الإسلام ص١٤٨.

[2] - من الموجز في تاريخ سورية ج٢ ص٦٥.والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٠٩ ومدن الشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٩٣.

تعاريف

اعتبر الكاتب طه حسين عصر المماليك عصر تقدم ورقي حيث يقول:(ما يقال إنه كان عصراً مظلماً ...هذا هو السخف بعينه، فهو من أزهى العصور الإسلامية وبالنسبة للقاهرة والبلاد العربية، ويمكن أن يقال عن عصر المماليك بأنه عصر دوائر المعارف وهذا يكفيه)[1]. وقبل أن نخوض بالكتابة عن ذلك العصر لابد من ذكر بعض التعاريف لمسميات كانت متداولة في ذلك العصر وما قبله وبعده، وقد تجد كلمات كثيرة تطلق لمسمى واحد يمكن اعتبارها مترادفات، وقد رأيت لابد قبل كل شيء من ذكر بعض التعاريف وتوضيح معانيها لأنها ستتردد بكثرة في هذا الكتاب.

١ ـ العبد:

جاء في مختار الصحاح: العبد: ضد الحر، وجمعه عبيد. وقرأ بعضهم (عبد الطاغوت)[2] أي خدم الطاغوت. وأصل العبودية الخضوع والذل ـ والتعبيد: التذليل ويقال معبد. والتعبيد أيضاً: الاستعباد وهو اتخاذ الشخص عبداً. قال تعالى: (**فادخلي في عبادي**)[3] أي في حزبي[4] .

عبدتُ اللّه أعبده: هي الانقياد والخضوع وأعبدت زيداً فلاناً ملكته إياه ليكون عبداً. وعبده بالتشغيل: اتخذه عبداً وهو بين العبودية والعبدية[5].

عَبَدَه: خدمه وخضع له. وهو ملك هو وآباؤه من قبل، وعبَّده ذللّه، وجعله أو اتخذه عبداً. وأعبده الغلام: ملكه إياه واتخذه عبداً. عامله كعبد له، والعبد

---

[1] - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص٥ والوطن في أدب الشراكسة ص٤٨ ومصر والشراكسة ص١ ـ ٢.

[2] - قرآن كريم سورة المائدة آية ٦٠.

[3] - قرآن كريم سورة الفجر آية ٢٩.

[4] - مختار الصحاح ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

[5] - المصباح المنير ص١٥٧ ـ ١٤٨.

الإنسان حراً أو رقيقاً. والمملوك جمع عبيد. وعباد. وعبد قن: من كان خالص العبودية، أو أبواه عبد وأمة[1].

تجد معانيَ كثيرة لكلمة العبد في القرآن الكريم منها العبودية لله رب العالمين للمخلوقات وللإنسان بشكل خاص وحتى للأنبياء فهم جميعاً عبيد لله.**(ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب)**[2]. وقد تذكر كلمة العبد لمن يعبد غير الله من مخلوقاته (وحدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين)[3].لكن نحن في كتابنا هذا نقصد بكلمة العبد ما كان معروفاً قديماً يباع ويشترى، وبهذا المعنى نجد في القرآن الكريم ثلاث آيات فقط وهي:حول القصاص قوله تعالى:**(العبد بالعبد والأنثى بالأنثى)**[4] وفي الزواج **(وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم)**[5].وكمثال قال تعالى:**(ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء)**[6].

تجد في السنة الشريفة أحاديث كثيرة، لكن لن أذكر سوى قوله صلى الله عليه وسلم: (للعبد المملوك الصالح أجران)[7].

توجد أحكام للعبد في الشريعة الإسلامية مثل: (لا تصرف الزكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبي). وكذلك لا يدفع السيد زكاته على مكاتب نفسه لأنه عبد له، وتجد فئة من العبيد يقال لهم المكاتبون، ومن أحكام المكاتب مثلاً: يدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن رفع إلى المكاتب حاز[8].

---

[1] - منجد الطلاب ص٤٥٧.
[2] - قرآن كريم سورة ص آية ٣٠.
[3] - قرآن كريم سورة النمل آية ٤٣.
[4] - قرآن كريم سورة البقرة آية ١٧٨.
[5] - قرآن كريم سورة النور آية ٣٢.
[6] - قرآن كريم سورة النحل آية ٧٥.
[7] - رياض الصالحين ص٤٠٥.
[8] - إحياء علوم الدين ج١ ص٢٦١ ـ ٢٦٢.

يستنتج أن أصل الكلمة والأصح بها أن العبد من ملك هو وآباؤه من قبل فالعبد القن هو من كان أبوه وأمه من العبيد ، وكانت العرب تعتبر الشخص عبداً ، إذا كانت الأم من العبيد مثل عنترة بن شداد إذ كان أبوه وقومه يعتبرونه عبداً ، ورفض السماح له أن يتزوج بنت عمه التي أمها حرة ، ومع أنه كان حامي القبيلة.

٢ ـ الرقيق:

الرق بالكسر: من الملك والعبودية ، والرق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق. والرقيق ضد الغليظ والثخين، وترقيق الكلام: تحسينه. واسترق الشيء: ضد الغليظ. والرقيق: المملوك. وترقرق الشيء: تلألأ ولمع[١].

رق الشيء من باب ضرب خلاف غليظ فهو رقيق. والرق بالكسر العبودية. ويطلق الرقيق على الذكر والأنثى وجمعه أرقاء، وقد يطلق على الجميع أيضاً ، فيقال عبد رقيق، وليس في الرقيق صدقة ، أي في عبيد الخدمة[٢]. ورق العبد: صار أو بقي رقيقاً[٣].

الرقيق ضد الغليظ. رق الشيء ، يرق وأرقه غيره، ورققه ترقيقاً ، وترقيق الكلام تحسينه ، وترق له رق قلبه وفي الحديث:(هاتوا صدقة الرقة) أي الفضة والدراهم المضروبة منها. وأصل اللفظة الورق[٤].

تجد كلمة رقبة يقصد تحريرها في القرآن الكريم كعقوبة على عمل خطأ وقع فيه المؤمن مثل قوله تعالى:(**ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة**)[٥].وتجد نفس المعنى في سورة المائدة آية ٨٩ المجادلة آية ٣ والبلد آية ١٣و أما كلمة الرقاب فاستعملت لمن يدفع لهم أموال الصدقة في سورة البقرة آية١٧٧ وفي التوبة آية ٦٠ فقط.

---

١ - مختار الصحاح ص ٢٥٣.
٢ - المصباح المنير ص ٩٠.
٣ - منجد الطلاب ص٢٥٦.
٤ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج١ ص٢٧٤.
٥ - قرآن كريم سورة النساء آية ٩٢.

توجد أيضاً أحاديث عن الرقاب نذكر منها ما رواه أبو ذر رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (قلت أي الرقاب أفضل؟ قال:أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً)[1].

يمكن الاستنتاج أن كلمة الرقيق هي أخف وطأة وألطف من كلمة العبد وربما استعملت أكثر بعد الإسلام.

٣ ـ الأمة:

الأمة ضد الحرة والجمع إماء[2].

الأمة أربع لغات: أم بضم الهمزة وكسرها، وأمة وأمهة فالأمهات لغتان ليست إحداهما أصلاً للأخرى ولا حاجة إلى دعوى حذف ولا زيادة، وأم الكتاب اللوح المحفوظ، ويطلق على الفاتحة أم القرآن، والأمة أتباع النبي، والجميع أمم مثل غرفة وغرف، وتطلق الأمة على عالم دهره المفرد بعلمه. والأمي في كلام العرب الذي لا يحسن الكتابة فقيل نسبة إلى الأم لأن الكتابة مكتسبة فهو على ما ولدته أمه منها الجهل بالكتابة، وقيل نسبة إلى أمة العرب لأنه كان أكثرهم أميين[3].

الأمة: الخادمة المملوكة جمعها إماء وأموات وآم، وبالنسبة إليها أموي وتصغيرها أمية[4].لا يوجد في القرآن الكريم كلمة الأمة بمعنى موضوع بحث هذا الكتاب ولكن في السنة الشريفة توجد أحاديث منها حديث قيام الساعة (القيامة) وآياتها :أن تلد الأمة[5] ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان[6]) وفي التشريع الإسلامي وأحكامه تتساوى الحرة مع الأمة في عقوبة الزنا

---

[1] - رياض الصالحين ص٤٠٤.

[2] - مختار الصحاح ص ٣٧.

[3] - المصباح المنير ص ٩.

[4] - منجد الطلاب ص١٣ ـ ١٤.

[5] - معنى (تلد الأمة ربتها) أي سيد ا، ومعناه أن تكثر السراي حتى تلد الأمة السرية بنتاً لسيدها، وبنت السيد في معنى السيد.

[6] - رياض الصالحين ص٤٧.

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها الحد، ولا يشرب عليها) وجاء في حاشية الكتاب الأمة: الرقيقة[1].

قال شمس الدين من الشيعة الإمامية في مؤتمر الرباط عن الإسلام وتنظيم الأسرة عام١٩٧١م هل يحق للزوج فقط أن يمنع حمل زوجته:(إن الولد حق للوالدين وحق للأمة...) أي تتساوى الحرة والأمة بهذا الحق[2].

يتضح مما سبق أن الأمة تطلق على الأنثى فقط وتقابل كلمة العبد.

٤ ـ سراري:

قال الأخفش: هي مشتقة من السرور لأنه يسر بها، ويقال (تسرر) جارية وتسرى أيضاً. والسرور ضد الحزن واستسر القمر خفي ليلة. والسرار فربما يكون ليلة وربما كان ليلتين. وسره طعنه في سرته. وأسر الشيء كتمه وأعلنه.وأسر إليه حديثاً أي أفضى إليه به. وتساروا: تناجوا[3].

سريت الليل، وسريت به سرياً، والاسم السراية إذا قطعته بالسير، ويقال سريت يزيد وأسريت به، ويقال سرينا سرية من الليل والجمع السرى. وقال أبو زيد ويكون السري أول الليل وأوسطه وآخره وسرى الجرح إلى النفس معناه دام حتى الموت. والسرية قطعة من الجيش فعلية بمعنى فاعلة لأنها تسري في خفية والجمع سرايا وسريات، والسري الجدول وهو النهر الصغير والسري الرئيس والجمع سراة وسري المال خياره[4].

السراة: الظهر وارتفاع النهار، وسروات القوم: سادتهم. والسري صاحب المروءة في الشرف، أو السخاء في مروءة[5].

لا توجد في القرآن بمعنى السري موضوع البحث.

---

[1] - رياض الصالحين ص١١٢.

[2] - تنظيم الأسرة في التراث الإسلامي ص٢٣١.

[3] - مختار الصحاح ص ٢٩٥.

[4] - المصباح المنير ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

[5] - منجد الطلاب ص٣١٥ ـ ٣١٦.

يلاحظ مما ذكر سابقاً أن السرية تقابل الأمة ولكن السرية ألطف مثل كلمة الرقيق ألطف من العبد.

يذكر في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بإحدى عشرة امرأة وتجد أيضاً (وأما سرايه فقيل إنهن أربع، وهن مارية[1] القبطية أم إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام، وهي التي أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية، وريحانة[2]. القرظية، وواحدة وهبتها له زينب بنت جحش والرابعة أصابها في بعض السبي[3].

٥ ـ وليدة:

الوليدة:الصبية والأمة، والجمع الولائد[4]. والوليد: المولود. الصبي. العبد، والجمع ولدة وولدان. مفرده وليدة، جمعه ولائد. أم الوليد: كنية الدجاجة، ويقال: فعل ذلك في وليدته: أي الحالة التي كان فيها وليداً[5].

لا توجد كلمة وليدة في القرآن بالمعنى المقصود بالكتاب.

جاء عن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أنها اعتقدت وليدة.. وذكر في الشرح الوليدة: الأمة[6].

يتضح أن الوليدة هي الأمة الصغيرة الصبية.

٦ ـ ما ملكت أيمانكم:

ملكه، يملكه بالكسر. وملك المرأة تزوجها، والإملاك التزويج، وتملكه ملكه قهراً[7]. ملكه بفتحتين هو عبد مملكة بفتح اللام وضمها :إذا سبى وملك

---

[1] - ماتت سنة ١٦هـ أيام عمر رضي الله عنه.

[2] - ماتت في حياته سنة ١٠ هـ.

[3] - لباب الخيار في سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ص١١٤.

[4] - مختار الصحاح ص ٧٣٥ ـ المصباح المنير ص ٢٥٧.

[5] - منجد الطلاب ص ٩٤٠.

[6] - رياض الصالحين ص١٣٧.

[7] - مختار الصحاح ص ٦٣٣.

دون أبويه. وملكت امرأة تزوجتها ، فيقال ملكته امرأة وأملكته امرأة وعليه قوله عليه السلام ملكتها بما معك من القرآن أي زوجتكها[1].

ملكه الشيء: جعل ملكاً له، ملك القوم فلاناً عليهم: صيروه ملكاً. وملك الدابة: قوامها وهاديها ، الواحد ملاك. والملاك: اصطلاح الحكومات، ويقولون أدخل فلان في ملاك الجيش، أو في الملاك الحكومي، أي سجل بين أصحاب المناصب الرسميين[2].

تجد في القرآن عبارة:**(ما ملكت أيمانهم)** كزوجة مثل قوله تعالى:**(فإن خفتهم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم)**[3]. وتجد هذه العبارة بنفس المعنى في سورة النساء الآية٢٤وآية٢٥، وفي سورة المؤمنون آية٦ ، وفي سورة النور آية ٣١ وآية ٣٣، وفي سورة الأحزاب آية ٥٠ وآية ٥٢و وفي سورة المعارج آية ٣٠.

توجد عبارة **(ما ملكت أيمانكم)** بشكل عام للذكر والأنثى وبمعنى المملوك كقوله تعالى:**(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم)**[4]، وبنفس المعنى تجد في سورة النمل آية ٧١، وسورة النور آية ٥٨، وسورة الروم آية ٢٨.

نرى إذا جاز لنا تصنيف ما سبق من التعاريف أن عبارة (ما ملكت أيمانكم) هي بدرجة أقرب إلى الملك سواء كانت زوجة فهي أقرب لصاحبها وعبارة ألطف من العبد أو الأمة أو السرية أو الوليدة وكذلك بشكل عام عبارة (ما ملكت أيمانكم) ألطف من كلمة العبد والرقيق.

---

[1] - المصباح المنير ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

[2] - منجد الطلاب ص ٧٤٧.

[3] - قرآن كريم سورة النساء آية ٧.

[4] - قرآن كريم سورة النساء آية ٣٦.

٧ ـ غلام:

معروف، وجمعه غلمة وغلمان. ويقال بين الغلومة والغلومية والأنثى غلامة[١].

الغلام: الابن الصغير، يطلق الغلام على الرجل مجازاً باسم ما كان عليه. وجاء في الشعر غلامة بالهاء للجارية، وقال الأزهري سمعت العرب تقول للمولود حين يولد ذكراً غلام، وسمعتهم يقولون للكهل غلام[٢].

الغلام: العبد والأجير، جمع غلمان. الغلامة أنثى الغلام، الأمة[٣].

تجد في القرآن الكريم كلمة غلام بمعنى الابن لأبوين حرين مثل قوله تعالى: **(يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا)**[٤]. وبهذا المعنى جاء في آل عمران الآية ٤٠، وفي سورة الحجر آية ٥٣، وفي سورة الكهف آية ٨٠، وفي سورة مريم آية ٨ والآية ٢٥، وفي سورة الصافات آية ١٠١، وفي الذاريات آية ٢٨. وجاء في القرآن كلمة غلاماً بنفس المعنى السابق في سورة الكهف آية ٧٤، وفي مريم آية ١٩، وجاءت كلمة غلامين بنفس المعنى السابق أيضاً في سورة الكهف آية ٨٢.

كلمة غلام بقصد العبد فوجدت مرة واحدة فقط عن يوسف عليه السلام، عندما ألقى في بئر قال تعالى:**(فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه يا بشرى هذا غلام)**[٥]، وجاءت بالجمع غلمان مرة واحدة كخدم الجنة قال تعالى:**(ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون)**[٦].

---

[١] - مختار الصحاح ص ٤٨٠.

[٢] - المصباح المنير ص ١٧٢.

[٣] - منجد الطلاب ص ٥٢٥.

[٤] - قرآن كريم سورة مريم آية ٧.

[٥] - قرآن كريم سورة يوسف آية ١٦.

[٦] - قرآن كريم سورة الطور آية ٢٤.

جاء في الحديث الشريف عن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذر رضي الله عنه، وعليه حلة[1]، وعلى غلامه مثلها، فسألته عن ذلك، فذكر أنه ساب رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بأمه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنك امرؤ فيك جاهلية[2] هم إخوانكم وأخوالكم[3]، وجعلكم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم) متفق عليه[4].

يتضح أن كلمة غلام كانت للتحبب وغالباً لصغار السن وكخدم للبيوت.

٨ ـ المملوك:

المملوك:هو العبد، وتملكه:ملكه قهراً، ملكه بفتح اللام أوضحها هو الذي ملك ولم يملك أبواه، وهو ضد القن فإنه الذي ملك هو وأبواه. وقيل القن المشترى. وحسن الملكة، أي حسن الصنيع إلى مماليكه، وفي الحديث (لا يدخل الجنة سيء الملكة)[5].

شيء مملوك هو ملكه بالكسر، وله عليه ملكة بفتحتين وهو عبده، ملكة بفتح اللام وضمها إذا سبي وملك دون أبويه، وملك على الناس أمرهم إذا تولى السلطنة. وملكت امرأة تزوجتها.الملاك بكسر الميم اسم بمعنى الإملاك، والملاك بفتح الميم اسم من ملكته بالتشديد وملكته بالأمر، فملكه من باب ضرب، وملكناه علينا بالتشديد أيضاً، فتملك. وملاك الأمر بالكسر قوامه والقلب ملاك الجسد[6].

ملك الشيء احتواه قادراً على التصرف والإستبداد به، وملك القوم استولى عليهم، ملك على فلان أمره، استولى عليه، وملك نفسه قدر على حبسها والمملوك

---

[1] - الحلة (بضم الحاء وتشديد اللام) ثوب مركب من ظهارة وبطانة من جنس واحد.

[2] - (إنك امرؤ فيك جاهلية) أي خلق من أخلاق الجاهلية، وهي ما قبل الإسلام.

[3] - الخول (بفتح الخاء والواو) الخدم والحشم.

[4] - رياض الصالحين ص٤٠٢.

[5] - مختار الصحاح ص ٦٣٣.

[6] - المصباح المنير ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

العبد جمعها مماليك[1]. وقيل (المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي ملك، ويقال عبد مملكة بفتح اللام وضمها إذا سبي وملك دون أبويه ويبدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم، حيث وردت عبارات (ملكت أيمانكم) (ولا ملكت إيمانهم) و(ملكت يمينك) أكثر من مرة[2].

وقيل (مملوك، في أصلها اللغوي، مستخرجة من فعل ملك، لتعني الرقيق الذي يشترى بقصد تربيته، والاستعانة به كجند وحكام، على عكس لفظة العبد ومفرد عبد، ومؤنثها جارية، التي استعملت في العصر الإسلامي الأول، وذلك لأن الإسلام بميوله الإنسانية كان يرفع من شأن الرقيق، إن لفظة العبيد تعني العبودية، والعبد يولد من الرقيق، بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويباع، كما أن العبد قد يعني إنساناً أسود، بينما المملوك كان غالباً أبيض)[3].

جاء في القرآن بتمليك بلقيس الملكة بلقيس لكافة أفراد رعيتها مثل قوله تعالى:(**إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء**)[4]. وجاء في القرآن مرة بمثل المعنى المقصود من الكتاب (**ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء**)[5].

تجد في السيرة أن بعض الصحابة رضي الله عنهم تمنوا أن يكونوا عبيداً ومماليك لما لهم من أجر فقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(للعبد المملوك الصالح أجران) والذي نفس أبي هريرة بيده لو لا الجهاد في سبيل الله، والحج، وبَّر أمي، لأحببت أن أموت وأنا مملوك) متفق عليه[6].

إذاً نستنتج أن المملوك هو من ملك ولم يملك أبواه وتأتي بمعنى السبي وهو الأسير وسب الرجل أبعده وغربه.

---

[1] - منجد الطلاب ص ٧٤٦ ـ ٧٤٧.

[2] - العصر المملوكي في مصر والشام ص٧.

[3] - طومان باي ص١٢.

[4] - قرآن كريم سورة النمل آية ٢٣.

[5] - قرآن كريم سورة النحل آية ٧٥.

[6] - رياض الصالحين ص٤٠٥.

نكتفي بهذه التعاريف عن غيرها فنجد المقصود بالعبد من كان أباً عن جد يستعبد ويشترى، وينسب بالعبد إذا كانت أمه من العبيد ولو كان أبوه حراً مثل عنترة بن شداد ، وتقابل الكلمة للأنثى بالأمة ، أما باقي تعاريف الكلمات المذكورة فكلها متشابه وتكاد تكون مترادفة لكلمة المملوك والذي هو ملك وليس أصله من العبيد فقد يكون أسر أو خطف أو ملك قهراً ثم تغرب فبيع. أي لم يكن أصله أي أبوه وأمه قد استرقا وملكا سابقاً.

أنواع العبيد

عرفت طبقة العبيد قديماً، إلا أن تنوع الطبقة وكيفية تشكلها وظهورها تستوجب تصنيفها ودراستها بوضوح:

١ ـ العبد أصالة:

في التعريف السابق للعبد قلنا بأن اصطلاح العبد يطلق على من كان أبواه عبدين، أي أصله عبد، ولكن متى ظهرت هذه الفئة وانتشرت؟.

قيل إن نوحاً عليه السلام حينما أمره ربه بركوب السفينة وحمل زوج من كل نوع من الحيوانات، كان معه أربعون شخصاً بما فيهم هو وأولاده الثلاثة وزوجاتهم، وبعد استقرار السفينة توفي الجميع عدا نوح عليه السلام وأولاده وزوجاتهم. إلا أن نوحاً غضب على ابنه حام لعدم تغطية عورة أبيه حينما انكشفت وهو نائم فدعا بأن يكون ابنه أسود وأن يكون هو وذريته عبيداً لأخويه يافث وسام، وحينما وزع عليهم الأرض كانت حصة حام إفريقية[١]، وقيل السبب إصابة حام امرأته في السفينة فدعا عليه نوح عليه السلام[٢].

هذه الرواية ترد في قصص الأنبياء وفي كتب عديدة فإذا صحت فهذا يعني أن طبقة العبيد أصالة كانت موجودة منذ زمن نوح عليه السلام وبعد الطوفان، وربما هذا ما دفع الغرب وأقصد الأوربيين والأمريكيين خاصة حينما بحثوا عن أناس ليستعبدوهم وضعوا نصب أعينهم إفريقية السوداء، فكان الاستعباد معروفاً ومنتشراً فيهم.

٢ ـ الأسر:

بعد كل معركة بين أي طرفين يقع أسرى، وفي حال انسحاب أو خسران أحد الطرفين للمعركة يتملك الطرف المنتصر أسرى من جنود الجيش الخاسر وهؤلاء

---

[١] - قصص الأنبياء ص١٠٥ ـ ١٠٦.

[٢] - قصص الأنبياء ص٩٤ وسفر التكوين ٩:٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ومروج الذهب ومعادن الجوهر ج١ من ص٤٤ ـ ٤٥.

يسمون الأسرى مهما كانت صفتهم، وكان مصيرهم إحدى ثلاث: إما أن يمن عليهم الطرف المنتصر بإطلاق سراحهم، وقد يكون لها أسباب مثل الاتفاق بين الطرفين المتحاربين، أو تنازل الخاسر عن أمر ما أو ما شاء ذلك، أو يكون الفداء مثلما حدث لمن أسر بيد المسلمين في معركة بدر، ويكون ذلك بأن يفادي الأسير نفسه بدفع المال، أو يدفع عنه آخر سواء أهل الأسير أو الجماعة أو الدولة التي حارب لأجلها، وإذا لم يتم إطلاق سراح الأسرى بالشكلين السابقين كان مصيرهم الاستعباد بأن يوزعوا على الجنود أو القادة وهؤلاء ربما يبيعونهم لآخرين. ففي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نجد أنه بعث جماعة من الرجال وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، وفي مكان بين عسقلان ومكة، فأحاط بهم القوم فقالوا: (انزلوا، فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً) ونزل إليهم ثلاثة، منهم خبيب فربطوه مع زيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر فابتاع[1] بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن مناف خبيباً[2].

لكن هل يحق للمسلم أسر مسلم آخر لسبب ما؟.

حينما كانت ملطية بيد الأرمن كان بها جماعة من المسلمين، ومع الزمن تزاوجوا فيما بينهم حتى تزوجت المسلمات بالنصارى، وكان الجيش الإسلامي زمن السلطان ناصر الدين قلاوون يقاتل الروم، ويمرون قرب ملطية ولا يتقاتلون معهم. ولكن في إحدى المرات اعتدى هؤلاء الملطيون على بعض جماعة من جيش السلطان المسلم وقتلوا جماعة من المسلمين، وأسروا آخرين فما كان من السلطان قلاوون إلا أن جهز جيشاً وفتح ملطية بالقوة واسترق من فيها سواء كانوا نصارى أو مسلمين وتعاملوا وتزوجوا مع الأرمن إلا أن وقع الإنكار التام لأسر المسلمين. فأمر السلطان المسترقين من المسلمين ذكوراً وإناثاً)[3].

[1] - فابتاع: أي اشترى.
[2] - رياض الصالحين ص٤٤٢ ـ ٤٤٣ ـ ٤٤٤.
[3] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص٧٩ ـ ٨٠.

نجد قديماً أن (كتب بختنصر إلى ملك مصر: إن عبيداً لي هربوا مني إليك، فسرحهم إليّ، وإلا غزوتك وأوطأت بلادك الخيل. فكتب إليه ملك مصر: ما هم بعبيدك، ولكنهم الأحرار أبناء الأحرار، فغزاه بختنصر فقتله، وسبى أهل مصر، ثم سار في أرض المغرب، حتى بلغ تلك الناحية، ثم انطلق يسبي كثير من أهل فلسطين والأردن، فيهم دانيال وغيره من الأنبياء)[1].

يتضح أن الأسير المستعبد كان بالأمس حراً، بل ربما كان قائداً وكان يوجد احتمال أن يكون الذي أسره اليوم واستعبده هو المنتصر فيسترقه هو. وموضوع الأسر كان معروفاً ولا يستنكره أحد منذ القدم.

٣ ـ بيع الأحرار:

المقصود من بيع الأحرار أن الشخص المستعبد كان حراً لم يمسه الرق أبداً ولا تنازل عن حريته بنفسه مثلاً ولم يقع بالأسر وإنما كل ما في الأمر أنه خطف من مكان ما، وخاصة إذا كان عابر سبيل فبيع بيع العبد. وكان هذا الأمر يحدث كثيراً والإسلام حرم ذلك فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تعالى ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه، ولم يعطه أجره) رواه البخاري[2].

نذكر جميعاً قصة يوسف الصديق كيف ألقي في الجب، وكيف أخرج من البئر، وكيف أن إخوته باعوه للسيارة وهم يقولون للمدلي استوثقوا منه لا يأبق. وكان ثمنه بخساً دراهم معدودة وقيل بعشرين درهماً. ووقف يوسف يقول: من يبتاعني ويبشر، فاشتراه ملك مصر، وهو ابن سبع عشرة سنة يومئذ[3].

نذكر معركة الخندق، ونعلم أن الصحابي سليمان الفارسي أنقذ المدينة المنورة باقتراحه عمل خندق حولها. وسليمان هذا كان ذا مكانة في أهله وقومه ترك الدنيا

---

[1] - قصص الأنبياء ص٤٠٤.

[2] - رياض الصالحين ص٤٧١.

[3] - قصص الأنبياء ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

ومتاعها وسأل عن أعلم الناس فالتجأ إلى راهب، وبعد وفاة ذلك الراهب انتقل إلى آخر، وأخيراً قيل له إن نبي هذا العصر سيظهر في المدينة فالتجأ إليه وفي الطريق قبض عليه وبيع كبيع العبيد، ذلك الصحابي الجليل الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم:(سلمان منا أهل البيت).

تجد من بيع كذلك قطز. فقد جاء في رسالة هولاكو إلى السلطان قطز بعد احتلال دمشق ويستعد للاتجاه تجاه مصر (يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بأنعامه)[1].

بعد أن آلت السلطة للسلطان بيبرس وحده وجد رسالة من والد قطز الأمير ممدود إلى قطز يتضح بأن قطز استشار أباه بتغيير اسمه إلى اسمه الحقيقي وجاء في رسالة أبيه (وليس العبرة بالأسماء، لكن الخلال والأعمال. والله يعلم أنك محمود ابن ممدود ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأن التي تحت عصمتك هي ابنة خالك جلال الدين، فحسبك هذا من ربك)[2].

كان بيع الأحرار وارداً. ولكن حين البيع طبعاً لا يقال: إن هذا الرجل حر، قد يقول البائع أنه أسره أو اشتراه من آخر وقد يتغير الاسم واللقب وقد ذكر أن (أول منشأ المماليك كان في القرن الثالث عشر أي حين مجيء الفاتح جنكيز خان إلى روسيا الذي أرعب الناس وصاروا يفرون من روسيا إلى هنغاريا والقرم، وعند ذلك صار بعض التجار يأخذون الفارين غصباً، ويبيعونهم إلى الخارج كمماليك)[3].

٤ ـ بيع الشخص نفسه:

أقصد بذلك أن يضع الشخص نفسه كعبد للعمل بأمر شخص ما وبملء إرادته بحيث يعمل بما يطلب منه ويكون كامل الإنتاج للآمر.ولا يستغربن أحد ذلك فهذا الأمر عرف قديماً.

---

[1] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٤٥٣ وولاة دمشق في عهد المماليك ص٥٢.

[2] - واإسلاماه ص٢١٨ والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص ٨٥.

[3] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ص٥٧.

وإذا عدنا إلى قصة يوسف بعد أن أصبح وزيراً وأقام العدل ونهض باقتصاد مصر، كانت سبع سنين خيرة تلتها سبع عجاف وبدون طعام فكان القحط فجاء الناس أفواجاً إلى يوسف يريدون الطعام وبدأ بيعهم إلى أن نفذت الدراهم والدنانير وتبعها الحلي والجواهر فالدواب والأراضي والعقارات حتى أصبح الرجل يبيع نفسه فاسترقهم جميعاً ثم عرض الأمر على الملك فخيره بالأمر بأن الرأي رأيه فأعتقهم يوسف ورد أموالهم[1].

في حديث طويل أيضاً رواه أبو أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن طلب رجل مسكين من الخضر[2] وسأله بوجه الله فأجابه الخضر (آمنت بالله ما عندي شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبيعني) وتم البيع بمبلغ أربعمائة درهم ولكن المشتري لم يستعمل الخضر إشفاقاً لكبر سنه وضعفه، ولكن الخضر طالب أن يعمل فكلفه المشتري بنقل الحجارة للبناء وسافر، وبعد عودته وجد البناء تم فاستغرب وطلب المشتري مستفسراً كيف تم ذلك، وأن يخبره بوجه الله، فأجاب الخضر:(سألتني بوجه الله ووجه الله أوقعني في العبودية) وشرح له أمره فخيره المشتري أن يحكم في أهله وماله وبما شاء أو يخلي سبيله فاختار الأخرى[3].

تجد عند اليهود كيف للرجل بيع ابنته إيفاء لدين (جزء ٢١:٧) ولا ينطبق عليها قرار التحرر من العبودية بعد مضي سبع سنوات، كما هي الحال بالنسبة للرجل (خ٢١:٧ ـ ١١)[4].

جاء في معجم البلدان عن بلد (تركستان: هو اسم جامع لجميع الترك...ومنهم من يبيع ذكور ولده وإناثهم بما ينفقونه)[5].

تذكر الأخبار في محرم سنة ثماني عشرة وسبعمائة للهجرة أن وصلت بلاد الجزيرة وبلاد المشرق وسنجار والموصل وماردين وغيرها من النواحي قلة الأمطار

---

[1] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج١ ص٣٦٠ ومن الموجز في تاريخ سورية ج١ ص٦٠.
[2] - قيل اسمه يليا -وقيل أحمد- من ملكان وكنيته أبو العباس وهو من نسل نوح، وقيل هو حي بشربه ماء الحياة.
[3] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج١ ص٦٠٢ ـ ٦٠٤.
[4] - حوادث في قضايا المرآة والتراث والحرية ص٤٩.
[5] - كتاب معجم البلدان ا لمد الثاني ص٣٧٨ ـ ٣٧٩.

والأقوات وغلاء الأسعار وزوال النعم، وأكلوا كل ما وجدوه من الجمادات والحيوانات والميتات، (وباعوا حتى أولادهم فبيع الولد بخمسين درهماً وأقل من ذلك، حتى أن كثيراً كانوا لا يشترون من أولاد المسلمين، وكانت المرأة تصرح بأنها نصرانية ليشترى منها ولدها لتنتفع بثمنه، ويحصل له من يطعمه فيعيش وتأمن عليه من الهلاك)[1]. وقد يريد الأب أن يبيع ابنه لثمنه الغالي أو يبيع الأب ابنه لأنه سيؤخذ إلى مصر[2].

كان متعارفاً قديماً أيضاً حينما يكثر دين الشخص ويصبح غير قادر على الدفع أن يتفق مع صاحب الدين أن يعمل لديه إلى الأبد حتى الممات وبما يأمر الدائن وذلك مقابل تأمين الأكل والملبس والسكن مع إسقاط حق الدين أيضاً.

ربما يتعجب البعض من هذا القول، ولكن تجد في أحاديث كبار السن وأثناء روايتهم لحادثة ما، أو ذكر قصة وقعت بأن فلاناً كان مديناً لفلان فزوجه بنته، وكان مهرها مقابل الدين على أبيها، أليس هذا من بيع الشخص نفسه، إذ كيف يكون مهراً، والمهر عادة يتفق عليه حين عقد القران بينما المهر المزعوم هو مقابل دين قديم على والد العروس مثلاً. ثم أليس المهر من حق العروس وليس من حق أبيها وأهلها.

٥ ـ الاستعباد لمدة:

قيل إن إسحق أمر ابنه يعقوب أن ينكح امرأة من بنات خاله لبان بن ناهر، فذهب لهناك خاطباً فقيل له: هل من مال أزوجك عليه؟ فقال يعقوب: لا، إلا أني أخدمك أجيراً حتى تستوفي صداق ابنتك، قال فإن صداقها أن تخدمني سبع حجج وتم ذلك[3].

[1] - البداية والنهاية ص٨٧.

[2] - المماليك ص٤٩.

[3] - قصص الأنبياء ص٢٠٩ ـ ٢١١.

تذكر قصة موسى عليه السلام حينما خرج من مصر إلى أرض مدين وكيف خدم الشيخ صاحب الغنم ثماني سنوات نظير أن يزوجه إحدى ابنتيه[1].

ذكرت هاتين القصتين وربما أحدهم يقول: إن ذلك ليس إلا استئجاراً ولا يدخل في نطاق العبودية ولكنها ذكرتني بشخص قيل إنه دخل رحبة ميكانيك وهو حدث لم يبلغ سن الثامنة عشر ولم يكن يعرف الميكانيك، لكن كان العقد ينص على أن يعلموه صنعة الميكانيك على أن يمارسها بعد تعلمه بأجر حدد بحيث يستوفي ثمن تعليمه. وإلى عهد ليس ببعيد كان القطاع الخاص يستقطب الصغار مجاناً مقابل استغلال جهدهم بتكليفهم بأعمال مختلفة بحجة أنهم يعلمونهم الصنعة سواء الميكانيك للشباب أو الخياطة للفتيات مثلاً. حتى على نطاق التعليم سابقاً بالكتاب كانت لخدمة من قبل المتعلم إذا لم يدفع الرسم المقرر للمعلم، كما تجد بعض المعاهد والجامعات التي تكلف كثيراً حتى يتخرج الطالب منها، قد يتقاضى مبلغاً كمصروف خلال دراسته يكلف بأن يخدم الدولة ثلاثة أضعاف المدة الدراسية، أو حتى إلى مدة غير محددة، ولفت انتباهي أحد الأشخاص المدنيين أنه أعطي شهادة تقدير كبطل إنتاج، وذكر فيه أن فلاناً من ملاك كذا.

أعود وأقول إن هذا اتفاق تعلم مقابل خدمة للمعلم سواء الأشخاص أو القطاع العام مثلاً، لكن أذكر أيضاً وقبل مدة ليست بطويلة أنه في إحدى الدول التي يذهب إليها الناس للعمل كان ملزماً للعمل بأمر من أمن له الفيزا كما يقال وفي حال تركه العمل كان يعلن عنه من قبل الوكيل الذي أمن الفيزا له بقوله: (من وجد عبدنا فلان) وحالياً استبدلت العبارة لبشاعتها إلى عبارة (من شاهد عاملنا فلان).

أعود وأقول بأن ذلك يمكن تبريره أيضاً في (الاستعباد) ولكن ماذا يقال عن شراء الرياضيين الدارج حالياً. فقد ذكر في جريدة ما يلي: (حقق بريان روبسون كابتين منتخب انكلترا السابق ومدرب فريق ميدلسيره الحالي صفقة ناجحة وخطوة كبيرة لدعم فريقه، عبر شراء نجم منتخب البرازيل جوفينو واعتبر البعض

[1] - اليهود في القرآن ص١٩٤ ـ ١٩٦.

المبلغ الذي دفعه النادي المتواضع وقدره ٥،٧ مليون دولار ضرباً من الجنون مقابل لاعب شاب عمره ٢٣ عاماً).

(هذا العقد يؤكد طموح بريان روبسون لجعل فريقه واحداً من فرق المقدمة من الدوري الإنكليزي، وكان قد دعم فريقه بلاعب صاعد آخر اسمه بامبي من فريق توتنهام مقابل ٨ ملايين دولار).

(ورغم صغر سن جوفينو لكنه اختير أفضل لاعب في البرازيل لهذا العام وحاولت عدة أندية أوروبية شراءه منها الأرسنال الإنكليزي وأنترميلانو الإيطالي وبورتو البرتغالي)[1].

يذكرني هذا بعصر المماليك موضوع هذا الكتاب. ألا ترى في ذلك الزمن عصر الحروب والانتصارات بأن من نعتوا بالمماليك المشترات مثل هؤلاء اللاعبين؟ أولئك لساحة الوغى وهنا في الملعب الأخضر؟ فهل يا ترى سيذكر بعد سنوات أن اللاعبين البارعين ذوي الأقدام الذهبية استعبدوا أو استرقوا؟.

٦ ـ الاستعباد قانوناً:

عندما ولد يوسف عليه السلام دفع به أبوه يعقوب إلى أخته عمة يوسف تحضنه، وكانت أكبر أولاد إسحاق، وصارت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، ووقعت نفس يعقوب على ابنه يوسف فأتى أخته وقال: يا أخية سلمي إلي يوسف، قالت: فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه. فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه؟ ثم قالت:لقد فقدت منطقة إسحاق، فانظروا من أخذها ومن أصابها. فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لي لَسَلَم (بالفتح) أصنع فيه ما شئت. وأتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها أنت وذاك، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت. قال: فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه **(إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)**[2].

---

[1] - جريدة الموقف الرياضي العدد ١٥٤٧ تاريخ ١٩٦٥/١١/٢٥ ص٧.

[2] - قصص الأنبياء ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.

تكرر الأمر مع يوسف عليه السلام حينما خبأ صواع الملك مع أمتعة أخيه بنيامين وسأل يوسف إخوته وهم لا يعرفونه عن جزاء من سرق فقالوا: جزاؤه في حكمنا بأن يسلم لفعله ذلك إلى من سرقه حتى يسترقه كما قال تعالى: (**كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك**) ويعني حكم ملك مصر وقضاته لأنه لم يكن في حكم مصر وقضاته أن يسترق السارق بما سرق، ولكن يوسف أخذ بكيد الله له حتى أسلمه ودون اعتراض إخوته لأن من شريعتهم[1].

نجد في التاريخ وقبل إلغاء الرق دولياً حيث أنه في حال عدم تمكن الشخص من دفع ديونه لكثرتها وتخطى سن الشباب أن يتفق المدين مع الدائن بأن يبقى المدين في خدمة الدائن حتى الممات مقابل دينه ويكلف بما شاء من أعمال على أن يقدم الدائن المأكل والمشرب والملبس والمنام.

تجد نوعاً آخر من العبودية المبطنة وهو لا يدخل في الاستعباد حيث كان الشخص يلجأ إلى أمير ما يعمل عنده في الزراعة مثلاً طيلة الحياة مقابل أن يؤمن له الأمير متطلبات المعيشة إضافة إلى تأمين حياته. وعند العرب أيضاً كان يلجأ فقير أو مستبعد من قومه وموطنه إلى ديار أمير آخر ويعمل عنده مقابل حمايته، وغالباً ما كان المستجير هذا ينادي الأمير بكلمة عمي، ويكون قريباً منه وفي خدمته كتقديم القهوة للضيوف مثلاً.

[1] - قصص الأنبياء ص٢٤٧ ـ ٢٤٨ واليهود في القرآن ص١٦٦ ـ ١٦٩.

العبودية عند بعض الشعوب

ا ـ قديماً:

قيل إن أول ما عرف الاستعباد هو في عهد إدريس عليه السلام الذي نزل عليه نقلاً عن أهل التوراة ـ ثلاثون صحيفة وكان قد مضى من عمر آدم ستمائة واثنتان وعشرين سنة، وكان إدريس ٠أول من خط بعد آدم وجاهد في سبيل الله، وقطع الثياب وخاطها، وأول من سبي من ولد قابيل، فاسترق منهم)[1].

قيل بعد الطوفان (إن نوحاً دعا لسام بأن يكون الأنبياء والرسل من ولده، ويكون ليافث بأن يكون الملوك من ولده، وبدأ بالدعاء ليافث وقدمه في ذلك على سام، ودعا على حام بأن يتغير لونه، ويكون ولده عبيداً لولد سام ويافث)[2].

ذكر ابن إسحاق كيف أتى أصحاب النجوم نمرود فقالوا له: نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك، فبدأ نمرود بسجن الحبلى من النساء حتى تلد فيقتل الذكور (إلا ما كان من أم إبراهيم امرأة آذر فإنه لم يعلم بحبلها، وذلك أنها كانت جارية[3] ـ حدثه فيما يذكر ـ لم يعرف الحبل بطنها... فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها)[4].

نذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع فرعون مصر وكيف قال عندما سأله فرعون عن زوجته سارة فقال: إنها أخته، وانتهى الأمر بأن فرعون تركها وردها إلى

---

[1] - قصص الأنبياء ص٧٨.

[2] - قصص الأنبياء ص١٠٦.

[3] - جاء في المصباح المنير ص٣٨، قيل للأمة جارية على التشبيه لجريها مستسخرة في أشغال مواليها، والأصـل في الشابة لخفتها ثم توسعوا حتى سموا كل أمة جارية، وإن كانت عجوزاً لا تقدر على السعي تسمية بما كانت عليـه، والجميع الجواري، انظر منجد الطلاب ص٨١.

[4] - قصص الأنبياء ص١٣٥.

إبـراهيم ووهـب لهـا هـاجر، وهـي جاريـة قبطيـة، ثـم وهبتهـا سـارة لإبـراهيم فولـدت إسماعيل عليه السلام[1].

تمـر الأيـام ويصـبح محمـد صـلى الله عليـه وسـلم صـهراً لأهـل مصـر مـن ماريـة القبطية التي أهديت له من المقوقس صاحب الإسكندرية.

٢ ـ أوروبا:

نظـام الطبقـات عـرف في أوروبا وهـو يختلـف عـن نظـام العبيـد، فحـين قيـام الثـورة الفرنسية عهد الملكة أنطوانيت لم يذكـر شيء عـن طبقـة العبيـد، بـل كانـت هنـاك طبقة الشعب المالكين فهم كانوا أحراراً لكن فقراء معدومين تقريباً يقومون بكل أنواع الأعمال وكان لكل منهم سـكن خـاص بـه مـع أسـرته، وكـانوا مسـتغلين مـن قبـل الملـوك والأمـراء والنـبلاء. وفيمـا بعـد احتاجـت أوروبـا لليـد العاملـة بعـد نهضـتها الصناعية فأصبحت تجلب السـود مـن إفريقيـة للعمـل كعبيـد يشـترونهم ممـن يجلبهم سـواء كـانوا عبيـداً أم لا. ومجـرد وصـولهم إلى أوروبـا وبلـونهم الأسـود كـان كافيـاً لاعتبارهم عبيداً في خدمة البيض.

انتقلت فئة العبيد من أوروبا إلى أمريكـا الـتي بـدأت تجلـب السـود مـن إفريقيـة، وكانوا لا يساوونهم في كل شيء.

أول مـا يخطـر علـى البـال عنـد ذكـر أوروبـا الشـرقية هـي روسـيا الـتي (كانـت متخمـة وبدائيـة في البدايـة فقـد أغـدقت عليهـا الـدول الأوروبيـة (وخاصـة فرنسـا) الأموال، وأمدتها بالعلماء والأساتذة والمعلمين لتعليم اللغة الفرنسية والموسيقى والعلوم الطبيعيـة كـالكيميـاء والفيزيـاء سـواء مـن فرنسـا أو ألمانيـا حتـى بـدأت طبقـة معينـة تظهـر، وتمتـد في المـدن الروسـية، وكـان الأقنـان يشـكلون مـع ذلـك ٨٠٪ مـن السكان، وكانوا في حالة يرثى لها من البؤس والفقر بسبب الاستغلال)[2].

ولكثرة نسبة الروس الأقنان جاء في كلمات شاعر جوال قوله:

---

[1] - قصص الأنبياء ص١٤٤ ـ ١٤٦ ومروج الذهب ومعادن الجوهر ج١ ص٤٩ وكتاب معجم البلـدان ا لمـد الأول ص٣٣٩.

[2] - نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال ص١٤ ـ ١٥.

أشعاري تمجد سلطانا

الشيخ منصور، بطل الإيمان منذورة لبأسه

همام في الوغى، لا غبار على سيره وسيرته

لقد آمنت به أديغة وداغستان وشروان

يحكي، قد استعرت في القلوب نيران

عن المآسي والأهوال، ويحمى حمانا

مسيرته سلسلة هائلة من الانتصارات

ويروى، بعبوره، ساحة الإيمان المقدسة

بالدم لكل موسكو في رقيق[1].

٣ ـ آسيا:

عندما بدأت جيوش المسلمين في فتوحاتها لآسيا بعد بلاد الشام لم يأت ذكر في الأماكن التي سيطر عليها المسلمون في ذلك الوقت وجود عبيد فيها.

وكان الأمر كما هي القاعدة في الفتوحات الإسلامية يخير القوم بين الإسلام أو الجزية أو القتال وكنظام كان سائداً في البلاد العربية قبل الإسلام حيث يسبى ويستعبد من يخسر في المعركة.

استمر الأمر بعد الإسلام مع حثه بالطبع إعتاق الرقاب والعبيد، ونجد في بعض الكتابات عن الفتوحات الإسلامية بعد رفض الطرف الآخر الدخول للإسلام أو دفع الجزية كانت الحرب فيسبى الناس وتأخذ أموالهم، مما يؤكد أن تلك الشعوب والأقوام لم تكن تعرف حينها طبقة العبيد على الأقل، كما جاء في (ذكر مصالحة جند سابور: ثم سار بعض المسلمين عن السوس فنزل بجند سابور وزر بن عبد الله محاصرهم فأقاموا عليها يقاتلونهم فرمى إلى من بها من عسكر المسلمين بالأمان فلم يفاجأ المسلمون إلا وقد فتحت أبوابها وأخرجوا أسواقهم فسألهم المسلمون فقالوا: رميتم لنا بالأمان فقبلناه وأقررنا الجزية. فقال المسلمون ما فعلنا. وسأل المسلمون بعضهم من فعل ذلك، فإذا هو يدعى مكثفاً كان أصله منها فعل هذا.

[1] - دروب الهجرة ص٣٢.

فقالوا: هو عبد. فقال أهلها: لا نعرف العبد من الحر، وقد قبلنا الجزية وما بدلنا فإن شئتم فاغدوا. فكتبوا إلى عمر فأجاز أمانهم فأمنوهم وانصرفوا عنهم)[١] ، وهذا يدل على ما ذكرته.

انتشر الإسلام وساد حتى جاءت جحافل المغول والتتار، وقد تحدثت بعض الكتب عن أمور السبي وبعض أشخاصها، مثل سبي بنت آخر خلفاء العباسيين في بغداد المعتصم بالله، أو سبي فئة ما فنجدها من أصحاب بعض الصنائع المهمة بالنسبة لهم، ممايدل أن موضوع العبودية وبيع الأشخاص كعبيد غير دارج والمعروف أن المغول كانوا يقتلون كل إنسان من أعدائهم حتى الصبية ويتفاخرون في قطع الرؤوس وجعلها كالتلال، ويهدمون كل بناء، ويحرقون كل شيء حتى الأشجار وبعد أخذهم الأموال المنقولة فقط.

بما أننا نتكلم عن عصر السلاطين أود ذكر ما جاء في جواب السلطان الملك المنصور قلاوون للسلطان المغولي في رسالة جوابية: قنغرطاي ـ كونغوراداي ـ بالروم، وهي بلاد في أيديكم وخراجها يجبى إليكم، وقد سفك فيها وقتل وسبي وهتك وباع الأحرار وأبى إلا التمادي على الإضرار والإصرار[٢].

٤ ـ بلاد العرب:

كانت العرب تعرف العبيد بمعناه القديم الشراء والبيع كالسلعة، وأعني بأنه كان هناك عبيد يشترون ويباعون ويعتقون، كان منهم من أحفاد إسماعيل عليه السلام. فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لئن أقعد أصلي مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة[٣] حتى تطلع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربعة[٤] ، من ولد إسماعيل، ولئن أقعد مع قوم

[١] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية الجزء ١ ص١٣٧.

[٢] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٣٧٨.

[٣] - الزمن من الفجر وفسر الغدوة ما بين الغداة إلى طلوع الفجر.

[٤] - في نسخة رقية أي ينال ثواباً.

يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحب إلى من أن أعتق أربعة) رواه أبو داود[1].

يتضح من هذا الحديث أن القيام بذكر الله أفضل من عتق العبيد ، فالعبودية كانت سائدة ودارجة عندهم كنظام وبشكل طبيعي وفي بداية الإسلام كان لابد من الإيمان أولاً فلهذا كان الحث والتركيز على ذكر الله وخاصة بعد صلاة الفجر فالنهوض لصلاة الفجر بالجامع والبقاء فيه ذاكراً الله حتى طلوع النهار يدل على الإيمان.

بعد أن ترسخ الإيمان بوشر الجهاد والقتال في سبيل الله فكان الحض على قتال الكفار من أولى المهمات فاعتبر الجهاد أفضل من عتق العبد. فقد جاء في حديث رواه أنس ابن مالك أيضاً قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رمى رمية في سبيل الله قصر أو بلغ كان له مثل أربعة أناس من بني إسماعيل أعتقهم)[2].

بعد الجهاد جاء الحث على عتق الرقاب مثوبة أو كفارة كما في حالة القتل الغير متعمد ، وكفارة اليمين، وما إلى ذلك. ونذكر أن بلال الحبشي رضي الله عنه مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عبداً يعذب وبعد إسلامه رفض أن يلفظ الكفر ثم اشتري وأعتق، ومما ذكر يبدو أن نظام العبودية كان موجوداً متعارفاً عليه عند العرب ونقلوه إلى مختلف البلدان التي فتحوها.

[1] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج١ ص٢٩٥.

[2] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج١ ص٢٨١.

نظام الطبقات

١ ـ الطبقات بشكل عام:

خلق الله آدم عليه السلام ومنه حواء ورزقا بنين وبنات وزوجهم لبعض، ولكن رأى قابيل أنه هو الأحق ولم يرضَ بما قسمه ربه، وحسد أخاه هابيل فقال لأقتلنك، لأن الله تقبل قربانك ورد قرباني، وتريد أن تنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميمة، فيتحدث الناس بأنك خير مني، ويفخر ولدك على ولدي[١].

ظهرت الطبقات بعد إدريس عليه السلام ونقلاً عن علماء الفرس، قيل أن جم بن بونجهان ملك خمسين سنة للأقاليم السبعة كلها وسخر له الإنس والجن ووضع على رأسه التاج وصنف (الناس أربع طبقات: طبقة مقاتلة، وطبقة فقهاء، وطبقة كتاباً وصناعاً وحراثين، واتخذ طبقة منهم خدماً، وأمر كل طبقة من تلك الطبقات بلزوم العمل الذي ألزمهم إياه)[٢].

نعرف أن العرب زمن الجاهلية كانوا قبائل وعشائر ولكل منها أمير أو شيخ له أتباعه ثم من يقومون بالخدمة، وكانوا يملكون العبيد. وقبل وصول الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة كانت يثرب تنوي أن تعلن عن ملك لها. وحال دون ذلك وصول الرسول الأمين وتعليمات القرآن الكريم الذي يدعو إلى مساواة الناس والتفضيل يكون بالتقوى فقط.

ظهرت الطبقات ولم تلغ بتاتاً حيث تجد في العهد الذي كتبه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى والي مصر الأشتر النخعي أكد وجود طبقات متمايزة. كما جاء في نهج البلاغة، (واعلم أن الرعية لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى لبعضها عن بعض، فمنها: جنود الله. ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها: قضاة العدل ومنها: أعمال الإنصاف والرفق. ومنها: أهل الجزية والخراج، ومنها أهل الذمة ومسلمة الناس ومنها التجار، وأهل الصناعات ومنها:

---

[١] - تفسير البشائر وتنوير البصائر ج١ ص٣٩٧ ـ ٣٩٨.

[٢] - قصص الأنبياء ص٨ و ٨٢.

الطبقة السفلى، ومن ذوي الحاجة المسكينة، فالجنود حصون الرعية، وسبل الأمن.. ثم لا قوة للجنود إلا من يخرج الله لهم من الخراج.. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب.. ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات)[1].

استمر حال الطبقات حتى عصر السلاطين موضوع بحث هذا الكتاب، فقد جاء عنهم (طبقات منها الفلاحون والعمال والتجار والصناع والموظفون، ثم طبقة الأغنياء والوجهاء، ثم طبقة المماليك وكان لهم النفوذ والهيمنة على مصائر البلاد)[2]

عرف نظام الطبقات عند الأوروبيين أيضاً، فكان منهم الملوك والأمراء والنبلاء وعامة الشعب فلاحين وصناع، والجدير بالذكر أن هذه الطبقات مع اختلاف التسميات هي تقريباً نفس ما جاء في قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه فعند الأوروبيين الملوك والأمراء كانوا الحكام، والنبلاء مثل المحافظين لكل ولاية نبيل. أما طبقة عامة الشعب فهم الزراع والصناع أما المختص للدفاع فهم الأمراء والنبلاء فقط فعامة الشعب لا تقاتل بل تعمل وتنتج فقط ومن يدافع عنهم وعن الوطن هم الأمراء والنبلاء والفرسان حتى الملوك كانت تخوض المعارك بل تقودها بنفسها.

٢ ـ طبقات الشراكسة:

لابد من البداية من ذكر نظام الطبقات عند الشراكسة في بلادهم القفقاس، وسيتضح السبب فيما بعد عند دراسة سلاطين مصر والشام حيث تجد أن أغلبهم من الشراكسة كما سيتم ذكر سبب قدومهم في حينه.

قبل ذكر تفاصيل نظام الطبقات لدى الشراكسة لابد من بيان أن نظام الطبقات لم يكن لدى كل قبائل الشراكسة بل أن ذلك النظام انتقل إليهم من الآخرين، وأقصد الروس الذين وصلهم من أوروبا.

كانت دولة الروس عبارة عن ما عرف بإمارة موسكو، بعد أن استقر وضعها بدأت رغبتها في التوسع والوصول إلى المياه الدافئة، وكانت بلاد الشراكسة سداً

[1] - مجلة العربي العدد ٣٦٧ حزيران ١٩٨٩ ص٢٥ ـ ٢٦.
[2] - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص١٩.

منيعاً أمامهم لمدة طويلة، وكان لابد من التقرب إليهم لخرق هذا الجدار، فتقربوا للقبرطاي الذين يسكنون في الوسط بين بحري قزوين والأسود ليكون لهم منفذ من الشمال إلى الجنوب أي إلى جورجيا وأرمينيا.

بعد ذلك عرف القبرطاي نظام الطبقات، وكذلك البجدوغ وهم من شراكسة الغرب ـ لاتصالهم الحدودي، كما عرف آخرون أيضاً نظام الطبقات، لكن كان يختلف عن نظام القبرطاي.

قبل سرد نظام الطبقات لدى الشراكسة لابد من توضيح مصطلح (بشي ـ بشيتل ـ بشيل) والذي قصد به وترجم بمعنى عبد خطأ، فقد ترجمه بعض الروس وغيرهم من الأجانب والرحالة والمسافرين، كما ادعى لابينسكي ١٩٦٣ بأن الشركس أخذوه في الأصل عن التتار[١].

المعنى الحقيقي لكلمة (بشيتل) هي (رجل الأمير) أي تابعه، وليس رقيقاً، كما فهم الناس إذ لم يتواجد عبيد عند الشراكسة في تاريخهم، وقد أسيء فهمه بعيداً عن الحقيقة[٢].

يوجد فرق بين العبد وغيره، فالعبد مستملك لا يقدر أن يملك بل كل ما يملكه ـ إن وجد ـ فهو لسيده، ولا تجوز دفع الزكاة للعبد كما ذكرنا سابقاً، وكذلك العبد لا يقاتل بإرادته هو، بينما طبقة (بشيتل) كانوا يحملون السلاح ويشكلون جزءاً من القوات المحاربة[٣]، كما يتملكون ملكية خاصة بهم فيتملكون المواشي مثلاً، ولهم حق مقاضاة سيدهم وجعله يمتثل أمام القاضي، والعلاقة القائمة كانت بأن على (البشيتل) أن يقدم أعطيات معينة إلى النبيل، أو العمل عنده مقابل حمايته والدفاع عنه ويتحمل كافة النفقات[٤]. هذا كان عند القبرطاي ـ أما فئة الأتباع المذكورة لدى القبائل الشركسية الأخرى (في كثير من الأحيان أفضل من شروط

[١] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص٦٦.
[٢] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج١ ص٥٧.
[٣] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص٦٦.
[٤] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص٦٦ ـ ٦٧.

وحياة الأحرار، وبالنسبة للعادات المتبعة في الولادة والزواج والدفن وغيرها من أمور الحياة اليومية السارية بين الأتباع فقد كانت نفس عادات الأمراء)[1].

إذا سردنا نظام الطبقات عند الشراكسة بالتفصيل فنجدها كما ذكرها دولبيز دومونتارو خمس طبقات هي الأمراء ـ النبلاء ـ الأحرار ـ الخدم ـ الأتباع[2].

لا توجد فئة للعبيد كما ترى، بينما الكاتبة أي ساندرث قسمت الشركس إلى خمس فئات أيضاً هي الأمراء ـ النبلاء ـ الأحرار ـ العبيد ـ التابعين ـ والأتباع[3]، ويتضح أن كلمة العبيد أدخلت بالتقسيم بشكل غير صحصح، إذ كيف تكون فئة العبيد، إذا كانت موجودة أصلاً في مرتبة أعلى من الأتباع، نفس الأمر يقال لتقسيم جاباني عن المجتمع الشركسي الذي قسمه إلى أربع فئات هي[4]: الأحرار (البشي) ـ النبلاء (ورق) ـ الفلاحون الأحرار (تليقوتل) ـ العبيد (بشيتل) ومعهم أيضاً الخدم (ونه أوت)[5]. وكما ذكرنا كلمة العبد غير صحيحة وهي تعني رجل الأمير.

إذا اعتبرنا وفرضنا كما جاء في التقسيم أن كلمة (بشيتل) أي (رجل الأمير) أفضل من (ونه أوت) وتعني (الخدم ـ أشخاص الحوش ـ الذين ينتظرون أمام الباب) وباعتبار أن (ونه أوت) الخدم ليسوا عبيداً وهم أدنى درجة من (بشيتل) رجل الأمير فيعني أن كليهما ليسا من طبقة العبيد كما جاء في بعض التراجم.

إذاً كانت طبقات الشراكسة هي أمير القوم رئيسهم ثم النبلاء ويقسمون فئتين درجة أولى وثانية. ثم فيما بعد جعل الأمير جان خواتوقه باسلان من القبرطاي فئة النبلاء هذه خمسة درجات والطبقة الثالثة هي الجمهور وقسمها أيضاً الأمير جان إلى أربع فئات، والطبقة الرابعة منها هي رجال الأمير.

---

[1] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٦٧.

[2] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٣.

[3] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٥.

[4] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٥.

[5] - مصر والشراكسة ص١٤.

ومن الواضح أن هذه الفئات وضعت لأسباب مختلفة وتعدل الظروف أو الأهواء ولمجرد التميز أو كمناصب خاصة لطبقة النبلاء فتعطى أسماء الفئات حسب ما يقدمه النبلاء من بطولات وشجاعة.

يتضح ما أعنيه إذا عدنا لتقسيم الأمير جان خواتوقه باسلان الذي قسم النبلاء إلى خمس درجات وهي (تلاقوه تلش) وتكتب (لقوه لاش) وتعني الشهير المعروف، وتأتي بمعنى الحائز على أصناف الشهامة والشجاعة، ثم درجة (يظنوغوه) وتكتب (ديظنوقه - دبجونوقه) وتعني ابن الفضة، وتطلق على أولاد الأمراء من الطبقة الثانية (انتبه إلى كلمة أولاد الأمراء فهم نبلاء فلا يكون الأمير بالوراثة والنسب)، ثم درجة (قودز) وتكتب (كوه دزس) وتطلق على أعيان النبلاء الأجانب الذين تشركسوا واستوطنوا مع الشراكسة، وتعني الكلمة ركاب العربات، فكأن الشراكسة لا يعترفون لهؤلاء الدخلاء بالفروسية. ثم درجة (بشيش ورق - ورق صاوه له غوسه) وتكتب (ورق شاوه تلي غوسه) ومعناها الرفيق الأصيل الشجاع المرافق للنبلاء.

أما فئة الشعب فيقسمها الأمير جان إلى أربع درجات هي: (بشي قان)، وتكتب (بشي كاو) وتعني رجل الأمير أو تابع الأمير ثم درجة (أوك تلاقوه) وقد تكتب (أوجو - لاكوصاو) تعني فتيان القبيلة.ثم درجة (الخوقول) وقد تكتب من قبل البعض، (فقول) تعني جمهور الشعب (ونه أوت) وتعني كما ذكرنا سابقاً خدم البيت. والجدير أن هذا النظام طبق لأول مرة لدى القبرطاي[1].

لوعدنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا في رواية الآستيين نقلاً عن الجورجيين (الكرج - المنغوليين) بأن الشراكسة فئة واحدة ولهم أمير مميز، وهكذا كانوا حتى وصول القبرطاي من القرم[2]. والجدير بالذكر أن الجورجيين جيران للشراكسة من الجنوب.

---

[1] - تاريخ القوقاز ص١٧٥ ـ ١٧٧ وموجز تاريخ الجركس ص١١٨ والوطن في أدب الشراكسة ص٩٥ ـ ٦٢ وعشائر الشام ج١ ـ٢ ص٦.

[2] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج١ ص١٠.

بعد الاتصال بين الشركس والروس ظهرت عدوى الطبقات، ثم حاولوا تطبيق النظام الإقطاعي على المجتمع الشركسي بجعله فئتين فئة الأمراء ومعهم النبلاء والفئة الأخرى الفلاحون التي تغيرت اللفظة إليها بدل كلمة الشعب والتي تضم لدى الإقطاعيين الأحرار وأتباع الأمراء[١]، مع العلم أن النظام الإقطاعي لم يمارس لدى الشراكسة بالشكل المعروف كنظام ظهر سابقاً.

يؤكد شورا بيكمورزين بوغموت هذا التقسيم إلى نبلاء وفلاحين ويقسم النبلاء إلى خمسة أقسام والفلاحين إلى تابعي الأمير والفلاحين العاملون ورجال الحوش والخدم[٢].

إذا فصلنا أكثر بين القبائل التي تعرف بالشركس بشكل عام[٣]، نجد أن الشيشان لم يكن لهم إقطاعيات ولا عبيد، وكلهم كانوا متساوين وديمقراطيين[٤].

تجد الأبخاز تُبعوا مع الجورجيين للإمبراطورية البيزنطية خلال حكم جوستنيان، وفرض النظام الإقطاعي بطبقاته المصطنعة المختلفة عليهم، فكان لدى الأبخاز الطبقات التالية: أمير أبخازيا ـ الأمراء والتابعون ـ النبلاء ـ طبقة بين النبلاء والفلاحين كالفرسان ـ وفلاحون أحرار ـ فلاحون تابعون ـ العبيد ـ مع التأكيد أن لكل شخص ذكر أو أنثى حق حمل السلاح واستخدامه. وكان حمل السلاح أمراً يميز الحر من العبد أي من يحمل السلاح لا يصبح عبداً.

النظام الإقطاعي في أبخازيا كان هشاً ضعيفاً وأغلب الفلاحين والأمراء كانت بينهم رابطة قربى بالإضافة إلى المساواة بالسلوك، والعادات والتقاليد والامتيازات والقضاء، فيمكن لأي فلاح مقاضاة الأمير[٥].

---

[١] - إبادة الشراكسة ص١٠.

[٢] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٤.

[٣] - عشائر الشام ج١ ـ ٢ ص٦٨٥.

[٤] - عبر دروب الجبال ص١٤٤.

[٥] - الأبخاز الشراكسة أزل وأبد ص٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٨.

لم أعتمد على المصادر الشركسية فقط لتوضيح الطبقات الشركسية بل على مصادر روسية وأوروبية وغيرها حيث تجد اختلافاً كبيراً في كتاباتهم حول الطبقة الدنيا، وللمطالع لها يتضح بأنها لم تكن طبقة عبيد مطلقاً. فمثلاً يقول ن.ج، دانيليفتسكي عام١٨٤٧ أي خلال الحرب بين قياصرة الروس والشراكسة والتي استمرت أكثر من مائة عام (وقبل إلغاء الرق وطبقة العبيد في روسيا الذي تم عام ١٨٦١م) فيقسم القبرطاي إلى خمس فئات كما يلي: (الأمراء - أصحاب السلطة الروحية - النبلاء - الفلاحون - غير الأحرار الأسرى)[١].

يجب أن نذكر أيضاً بأن الأبزاخ الشراكسة لم يكن عندهم طبقات مثل القبرطاي ولم تكن الإمارة بالوراثة، وكان أتباع الأمير المنتخب أو المعين متساوين مع أي شخص أو سيد آخر فيما يتعلق بالعمل، وكانت لهم الممتلكات الخاصة والمنقولة ولهم سكن خاص، يمكنهم إصلاح الأراضي واستغلالها[٢]، وبشكل عام عند شراكسة الغرب - أي الساكنون في بلادهم من جهة الغرب - كانت الأمور فيها تتم ديمقراطياً (كما يحدث لوليه عن مناطق الناتخواج والشابسوغ والأبزاخ بأنها أقاليم ديمقراطية بسبب الانتخابات للحكام وعدم وجود أمراء وحتى في ظل الأمراء في بقية المناطق أو القبائل - القبرطاي - البجدوغ...الخ، فقد كان تمثيل الشعب موجوداً من قبل المندوبين في المؤتمرات الشعبية الكبيرة، التي تحسم المشاكل الكبيرة، أو في القضاء في الشؤون اليومية فكانت هناك مجالس قضاء، وكان الحكم يصدر من قبل مجموعة قضاة منتخبين)[٣].

حول البجدوغ نذكر الحرب المشهورة المسماة حرب بزيقوه والتي كانت عبارة عن ثورة الشعب ضد الأمراء[٤]، ومما يجدر ذكره أن قبيلة البجدوغ قتلت أمراءها بعد رفضهم النصيحة، وبعد تكرار الدعوة إليهم بأن يكون الحكم فيما بينهم

---

[١] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٤.

[٢] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٦٨.

[٣] - نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال ص٧٣ ومجلة الشرق الأوسط العدد ٥٨٦٣ تاريخ ١٩٤٩/٢/١٧.

[٤] - حرب بزيقوه ج١ وج٢.

حكم الأخوة والعدالة والشرعية فلم يخضعوا فتم قتل أمرائهم في قرية تونجة قاي عام ١٢٧٥هـ[١].

تجد هناك ألقاباً تطلق، لكن هذه الألقاب المأخوذة أو المعطاة لأفراد معينين في فترة ما قد تستمر، ولكن ذلك لا يعني كونها ناتجة عن نظام الطبقات دوماً فبعض الشراكسة مثل قبائل البسلني والجمكوري والبجدوغ والأباظة لهم اهتمامات بالألقاب ويحافظون عليها ويحترمونها بينما تجد قبائل شركسية أخرى مثل الأبزاخ والشابسوغ والناتخواج والوبيخ قد انتهوا منها نهائياً بعد النهضة القومية التي حصلت في بلادهم، ولم يكتفوا بهذا القدر بل أخرجوا الأمراء وأتباعهم[٢].

تجد أن الطبقات لدى الشراكسة والتي على الأغلب استعيرت أو فرضت من الآخرين عليهم ولا يعني أن يكون الأمير أو النبيل ذا سلطة بلا منازع أو ملكاً مطلقاً فكما ذكرنا كان للإنسان العادي حتى الأتباع لهم حق محاكمة الأمير وهذا من ضمن عاداتهم وصفاتهم على مرور الزمن. حتى في زمن السلاطين في بلاد مصر والشام مثل السلطان الشركسي الأشرف قايتباي والذي حكم أكثر من تسع وعشرين سنة كما يذكر في التاريخ، وكان له سلطة واسعة ومع ذلك لا يتقيد بتقاليد الملوك، وعيب عليه مرة كيف ينزل إلى الأمير يشبك وهو تابع له وتحت سلطته في الوطاق[٣] مرتين، بخلاف عادة الملوك وقواعدهم القديمة[٤]، حتى بعد أن هجر أغلب الشراكسة عن بلادهم وشتتوا في أنحاء المعمورة حيث تجدهم حالياً متواجدين في أكثر من خمسين دولة في العالم مع ذلك تجدهم في البلاد التي هجروا إليها محافظين على عاداتهم وتقاليدهم فقد قيل عنهم (إن هذه الشعوب تعتبر أفرادها جميعاً متساوين في القيمة الاجتماعية (مجتمع الطبقة الواحدة) بغض النظر عن المعايير المادية أو الوظيفية أو الوراثية، مما هو متعارف عليه في المجتمعات اليوم. وقد بقي الشراكسة على عاداتهم حتى في المهجر، كما عاشت قبائلهم بدون

---

[١] - ميزوا باشا وصفي كتاب وثائقي ص١٥٧.

[٢] - تاريخ القوقاز ص١٧٨.

[٣] - الوطاق: الخيمة الكبيرة الخاصة بالسلاطين والأمراء.

[٤] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٥٢.

سلطات تنفيذية، وإنما يتقيدون بعاداتهم وتقاليدهم بدافع ذاتي ناجم عن شعورهم بالمسؤولية فطروا ما عليه ويشعر به كل فرد منهم، هم لذلك لا يأتمرون إلا بالمجالس[1]، خاصة مجالس كبار السن الذي يمثل في نظرهم السلطة الوحيدة التي يعتبرون قراراتها واجبة التنفيذ ولا يتأخر أحد بتنفيذها تلقائياً وقد قادت الحرب الروسية الشركسية مجالس من هذا النوع)[2].

خلاصة القول إن عبارة (طبقات الشركس) تسمية غير دقيقة ولا صحيحة إن لم تكن هناك فروق كما ذكرنا بين جل الأشخاص، وكان يمكن الانتقال من طبقة إلى أخرى فمثلاً من طبقة الشعب إذ أبدع شخص في معركة قد ينتقل إلى فئة النبلاء مثلما كان يحدث في أوروبا فيعطى رتبة فارس عندهم. وعند الشركس كان يفرض على الأمراء ممارسة نشاطات محددة مثل القتال والفروسية وحماية الوطن والمواطن وكان أيضاً لا يسمح لهم بمزاولة نشاطات من عامة الشعب مثل الفلاحة[3]، أي توزيع نظام الطبقات عندهم ليست ميزة خاصة بالأفراد بل هي توزيع المهام والعمل أي توزيع الأعمال على الشعب.

٣ ـ دفاع الشراكسة:

نجد في سرد تاريخي مختصر للأقوام التي هاجمت القفقاس في القرن الرابع قبل الميلاد الغوت الذين هاجموا بلاد القفقاس وحاربوا الأنت وهم قدماء الشراكسة، ولكن أشد الهجمات كانت من خان الأوار المغولية (بابان ـ باقان) عام ٥٦٠ ق.م، وقام بتخريب البلاد بسبب عدم تمكنه من غريمه وأميرهم (لاورتياس) فلجأ إلى القسوة والعنف وتدمير البلاد بوحشيه.

بعد سيطرة الأحرار على الروس تقدموا إلى منطقة القبرطاي وطلب باقان من الأمير الشركسي لاوريستان بالاستسلام لكن الأمير رد عليه بالتهديد والاحتقار.

---

[1] - محاضرة بعنوان العرف والأساطير الشركسية للمؤلف ألقيت في ١٩٩٩/٥/٢٠ ومن هذه ا الس ا لس الشعبي ومجالس الحرب ومجالس الأمهات.

[2] - الشركس في فجر التاريخ ص٩٢ ـ ٩٣.

[3] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٥٤ ـ ٥٥.

ومما جاء في رده: سنحاربكم ونقاومكم حتى لا يبقى من الشراكسة شخص واحد وبيده سيف، كما أرسل الأمير إلى بنالقوه الشركسي أمير منطقة (أنان ـ وطه مز ـ تسه مز) وللأسف قبل وصوله كان الأوار هاجموا لاوريستان الذي قتل في المعركة وتابع الأحرار مسيرهم والتقوا بالأمير بنالقوه في بادئ الأمر وانتصر الأوار، ولكن الأمير بنالقوه لَم شمل جيشه مع القوات التي كانت مع لاوريستان وقاموا بهجوم معاكس انتصروا فيها على الأوار الذين انسحبوا مغلوبين إلى الشمال وتخلصت بلاد الشراكسة من ويلاتهم وهمجيتهم.

بعد ذلك جاء (الوراق) وهم من الفايكنغ ومن الفرع الشرقي لشعب النورمان وهي قبيلة غازية شمالية جاءت من بلاد الاسكندينافية بقيادة زعيمهم (رويك) وهؤلاء الوراق غزوا روسيا ثم اتجهوا جنوباً، وكانوا جبابرة قيل إن البطل الشركسي سوسروقه الأسطوري حاربهم، وبعد فترة غزو الوراق ظهرت طبقة النبلاء وسميت مع الزمن باسم (وراق) واستمرت هذه الفئة الحاكمة من منتصف القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر حتى جاء جنكيز خان إلى روسيا واحتلها وقلب الأوضاع رأساً على عقب[1].

جاء غزو تيمورلنك عام ١٣٨٨م، وهو عام شؤم للجورجيين (الكرج) حيث غزاهم، كما حارب الخان (توقتاس) عظيم جيش القبيلة الذهبية، وفي غياب قائدها عنهم احتل بلادهم في شمال قزوين ودخل عاصمتهم بلدة ساراي على مصب نهر الفولغا، ثم اتجه إلى بلاد كرجستان عن طريق مضيق داريال[2].

وفي العهد القريب كانت الحروب الروسية القيصرية ضد الشراكسة، والتي دامت أكثر من مائة عام، لقد جند الروس كافة إمكاناتهم للقضاء على الشركس بالحرق والتدمير والتهجير وارتكاب أبشع الجرائم ومما يذكره مؤرخوهم قبل غيرهم عن تلك الحروب والتي كانت حرب بقاء بالنسبة للشركس ـ فكان الأولاد وأمهاتهم يهاجمون الجنود الروس بأنفسهم مع الرجال عند نشوب

[1] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج١ ص٤١ ـ ٥٣ ـ ٥٦ وموسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.
[2] - الشيشان حرب إبادة وجريمة عصر ص٢٠ ـ ٢٢.

المعارك من أجل شرف الوطن وفي حال احتدام المعارك وعند رجحان كفة الأعداء كانت بعض النساء تقتل أبناءها كي لا يقعوا في يد الأعداء ثم تقاومن حتى الاستشهاد وبعض الرجال كانوا يقتلون نساءهم كي لا يقعن في يد الأعداء وقد تلجأ إحداهن إلى قذف نفسها في هوة أو واد سحيق أو في تيارات الأنهار الجبلية المتدفقة الحارقة[1] خشية الأسر.

كانت الحرب قاسية جداً على الناس وعلى الحيوانات التي كانت تنهب وتقتل، أما الأشجار والمزروعات فكانت تحرق والبيوت تدمر وتمحى عن سطح الأرض. وتجد في كل المصادر بأن الشركس دافعوا عن الوطن والشرف وكان مبدؤهم النصر أو الاستشهاد فكان المحاربون لا يستسلمون إذا غلبوا ويفضلون الموت على الوقوع في الأسر[2].

نعود إلى موضوع الكتاب ألا وهو عصر السلاطين الذين أغلبهم من أحفاد أولئك الناس، لذلك تجد هدفهم القضاء على الأعداء وهم لا يستسلمون، بينما تجد السكان الأصليين تراخوا عن ذلك الموضوع لانشغالهم بزراعتهم وصناعتهم وتجارتهم، في حين أن هؤلاء الوافدين المتشربين للإسلام أصبحوا فئة محاربة منفصلة عن بقية المجتمع نتيجة العمل العسكري الذي اختصوا به من جهة كونهم مختلفين عنهم أساساً في نواحي كثيرة مثل العادات واللغة والأعراف والتمييز وإيمانهم العميق بقضيتهم، وفي حالة السلم، أو في حال إعفاء أحدهم من مهنته العسكرية كان من السهل ملاحظة المكانة المرموقة له في المجتمع بمجال العلم والثقافة[3].

[1] - نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال ص٤٣ ـ ٣٤٧ ـ ٣٤٩ الشيشان حرب إبادة وجريمة عصر ص٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٦ ودروب الهجرة ص٧٦ والشركس في فجر التاريخ ص١٢ واحتلال الروس للقفقاس ص١٦٢.

[2] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج١ ص٥٦ وشامل في القفقاس وفي روسية ص١٦.

[3] - مدن الشام في العسر المملوكي ص١٧٦ ـ ١٧٧.

٤ ـ اللاجئون لبلاد الشركس:

في الحروب التي خاضها الشراكسة مع أعدائهم لم يذكر بأنهم أسرو أو استرقوا أحداً، والذين بقوا من الأعداء في بلادهم أو الفارين من أمكنة أخرى أو الوافدين إليهم وسنسميهم جميعاً اللاجئون إلى بلاد الشراكسة.

إذا رجعنا إلى الوراء نلاحظ أن الأقوام التي جاءت إلى قفقاسيا كالمصريين والسوريين وغيرهم قديماً اختفت جنسياتهم واندمجوا بالأكثرية الشركسية وتلاشوا مع الزمن وتمثلوا في العناصر المحيطة بهم أي تشركسوا[١].

وتجد أيضاً أن المجريين جاءوا إلى بلاد القبرطاي الشركسية وكانوا أصدقاء متحابين وبعد انقراض مملكة الخور في القرن العاشر للميلاد لجأت عائلات خزرية إلى الشراكسة وعاشوا بينهم بسلام، وقدم اليونانيون للتجارة ونشر الدين المسيحي فعاشوا بسلام في بلاد الشركس.

وصل العرب مبشرين بالإسلام إلى تخوم البلاد الشركسية واندمجوا مع بعض القبائل وخاصة في داغستان.

بعد انكسار التتار آثر البعض العيش مع الشراكس حتى على نطاق خاناتهم الكبار واعتبرهم الشراكسة من النبلاء ولكنهم أبعدوهم عن الرئاسة والزعامة ومن الأمراء التتار الذين عاشوا بسلام في بلاد الشركس عائلة باخجري خان التي عاشت مع القبرطاي وعائلة سعادت كري خان وعاشت مع قبيلة الأبازه، وعائلة جوبان كري خان التي عاشت مع الحاتقواي.

كذلك باقي من التجأ إلى الشراكسة من الأتراك بعد فشل حربهم مع الروس في القرم وحتى كثير من الروس والأرمن والجورجيين أيضاً كانوا في بلاد الشركس يعيشون بسلام، ولم يستعبدهم الشراكسة مطلقاً[٢].

إذا عدنا إلى ذكر طبقات الشراكسة وطبقة (البشيتل) حين ذكرنا بأن قسماً منهم هم من أسرى الحروب وكما كتب بيل ١٩٤٠ عن أسرى الحرب بأن

---

[١] - تاريخ القوقاز ص١٤٨.

[٢] - تاريخ القوقاز ص١٤٩ ـ ١٧٥.

الشراكسة كانت معاملتهم جيدة، ومن فترة قريبة ذكرت الصحف عن معاملة الشيشان الحسنة مع أسراهم في حربهم الاستقلالية الأخيرة مع الروس.

لم تذكر الأدبيات ولا كتب التاريخ أن استعبد الشركس أي أسير حرب لديهم مما يؤكد عدم وجود عبيد عندهم أيضاً، فكانوا يتركونهم أو يتم الاحتفاظ بهم للتبادل مع أسراهم[١].

ليس الأمر هكذا بل حتى في حروب الشراكسة مع الروس القياصرة فقد كانوا يطلقون بعض العيارات النارية أولاً لتنبيههم قبل الهجوم عليهم[٢].

٥ ـ كلمات استعملت:

شاع استخدام بعض الكلمات والمصطلحات قبل وبعد وخلال عصر السلاطين وقد استعملت للتقرب والتحبب والإخلاص، وليس بالمعنى الحرفي والظاهر، أو ما يفهم منها اليوم. وسأذكر أمثلة من بعضها لتوضيح المقصود مع تفصيل أكثر للكلمة الأولى:

آ. المملوك:

المقصود من هذه الكلمة هي المجاملة، مثلما يقول الشخص لآخر هذه الأيام، سيدي، أستاذ، وما شابه ذلك لتوضيح ذلك لنعد إلى عهد صلاح الدين الأيوبي، وهذا قبل عصر السلاطين موضوع الكتاب، وبغض النظر عمن قال إن البطل الأيوبي كان من العبيد، كما (قال ابن القارس: كان شادي جد صلاح الدين ـ مملوك بهروز الخادم[٣]. نجد أن كلمة مملوك استعملت في رسالة كتبها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يهنئه بنصر حطين (كتب المملوك هذه الخدمة، والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها والدموع لم تمسح من خدودها)[٤]. وكذلك القاضي نفسه يهنئه بفتح حصن برزيه سنة ٥٨٣هـ (الحمد لله، وحاضرها الله أكبر.ما بقي

---

[١] - أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة ص ٦٨.

[٢] - والشركس في فجر التاريخ التاريخ ص٦٨.

[٣] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٣.

[٤] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص١٢٩.

المملوك يستبطئ خبر أنطاكية فقد ألقت الأرض أفلاذها..)[1]. وكذلك في رسالة ملك الأرمن كاغليوس إلى الأيوبي: (مما أطلع به علوم مولانا وملكنا السلطان الناصر...)[2]. وبالطبع لا يقصد صاحب قلعة الروم بأنه من مماليك صلاح الدين. ونجد في رسالة لأبي الهيجاء وهو تركي إلى صلاح الدين الكردي حول موضوع نصرة صلاح الدين ومنع الصليبين من أخذ القدس فيقول أبو الهيجاء: اجتمع عنده جماعة المماليك والأمراء[3]. ولا يقصد هنا عبيداً، وكيف يكون ذلك وهم يقرون خوض المعركة مع صلاح الدين أم لا. كما نجد صلاح الدين نفسه في رسالة إلى الخليفة يكتب (المملوك يخدم الحرم الشريف باحترامه، والفناء الكريم بإعظامه، والبساط المقبل بطول استلامه... كذلك المملوك أمسك حين كانت الأخبار بجانبه مشتبهة، والحقائق لديه غير متوجهة فإن طاغيّ الكفر القسطنطينية وصقلية كانا قد أوقدا للحرب ناراً)[4].

نجد أن صلاح الدين كتب للصالح إسماعيل بن نور الدين فقال: (أنا مملوك الصالح ما جئت إلا لأنصره وأخدمه)[5].

كانت كلمة المملوك تستعمل في المخاطبات للملوك والشخصيات الكبيرة في البلاد العربية ومع الملوك الأجانب فنجد فردريك الثاني يكتب للسلطان الكامل: (أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر. وقد علم البابا والملوك اهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خايباً انكسرت حرمتي بينهم، هذه القدس فهي أصل اعتقادهم وضجرهم. فإن شاء السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيادة فيكون منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر)[6].

---

[1] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص١٧٤.
[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص١٨٣.
[3] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٢٢٧.
[4] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص١٨٩.
[5] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٨.
[6] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٩٩.

نجد القاضي الكاتب محي الدين بن عبد الظاهر الذي عاصر السلطان الظاهر بيبرس يورد في كتابه عن سيرة الملك الظاهر ويكرر عبارة يقصد بها نفسه مثل (وكان المملوك الأصغر شاهداً سفراً وحضراً، ومعاينة لا خبراً)[1]. وهذا بالطبع دليل الاحترام والتقدير ودليل على تواضعه أمام ولي نعمته[2].

تجد بعد ذلك رسالة الأشرف خليل بن قلاوون إلى صاحب اليمن ليبشره بفتح طرابلس الشام ٦٨٨هـ (المملوك يجدد خدمته ويقتفي فيها أثر والده، ويجرى في تبليغها على أجمل عوائده)[3]. فالأشرف خليل لم يكن هو ولا أبوه السلطان تابعاً لصاحب اليمن بل كان الأخير يتودد للسلطان ويخاف منه، وإنما كانت المجاملات بين أصحاب السلطات. وتجد في الرسالة التي لم يبعثها السلطان بنفسه بل ابنه وضمنياً تعني الرسالة لصاحب اليمن بأن انتبه. انتصرنا على الصليبيين ولن تعجزنا أنت ولا غيرك.

بعد عصر السلاطين وقدوم العثمانيين وفي مرسوم للسلطان سليم لأهل دمشق: (فعلت عساكرنا المنصورة بهم، فربطوا الخيالة لهم الطرقات، لئلا ينهزم منهم أحد، وصاحت عليهم مماليكنا الإنكشارية والتفكجيه)[4]. ومعلوم أن الإنكشارية هو جيش صنعه العثمانيون بأخذ الأولاد من ذويهم وهم صغار وشكلوا منهم جيشاً لهم.فلا يعرفون إلا أن أبوهم السلطان وأمهم دولة العثمانيين، وهذه الفئة لا تنطبق على المماليك، ولكنها استعملت وكذلك نجد كتابة على مسجد سليمان باشا تنص (قد بنى وعمر الجناب العالي مملوك سلطان السلاطين سليمان خان من آل عثمان، أدام الله دولته إلى يوم الدين، وهو أمير المصريين سليمان باشا اللهم اجعله من الفائزين مسجداً لوجه الله المعين طلباً لمرضاة رب العالمين ليعبدوا فيه الله وكان تاريخه فاركعوا لله مع الراكعين)[5].

---

[1] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٣ ـ ٣٠ ـ ٤٦.

[2] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٠.

[3] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٣٠٢.

[4] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٩٢.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٦١.

ذكر سابقاً أن قيل أن شادي جد صلاح الدين من المماليك وكذلك السلاطين في الدولة التالية البحرية والبرجية ونجد من يقول أن العثمانيين من المماليك فقد ذكر: (ورثت دولة المماليك الثلاث وهي على التوالي: المماليك البحرية، والمماليك الجركسية، والمماليك العثمانية...حكم الديار المصرية والبلاد الشامية خمسة قرون)[1].

فيما بعد ذلك استمر استخدام الكلمة ذاتها، فقد جاء (الأمير الكبير محمد ابن أبي الذهب أحد أمراء مصر وولاتها الذين قاموا بدور خطير في سياستها فقد كان مملوكاً للأمير علي بك الكبير، ثم عينه خازنداراً له، ثم قلده الصنجقية، وألبسه الخلعة في حفلة أقيمت في القلعة، فسر بذلك محمد بك، وصار يوزع هبات ذهبية، وينشر الذهب على الفقراء فعرف بأبي الذهب، ثم عهد إليه في سنة ١١٨٥هـ ـ ١٧٧١م، بقيادة جيش كبير فتح سوريا باسم علي بك الكبير...)[2]، فكيف يكون مملوكاً عبداً وله هذا الذهب الذي يوزع على الأحرار. أما كان الأجدر له ـ اللهم إن صح القول بأنه عبد ـ أن يشتري نفسه ويعتقها؟ ومن كان يمتلكه؟ هل هو الأمير علي بك الكبير؟ وإذا كان صحيحاً فمحمد بك هو وكل ما يمتلكه لعلي بك، ألا ترى أن تلك الكلمات وما شابهها وضعت من قبل واضع جهلاً أو بقصد السوء والانتقاص من أهمية الانتصارات العظيمة التي حدثت في بلاد الشام ومصر من الأعداء والأجانب سواء التتار والأتراك والأوربيين.

أعود وأؤكد أن هذه الكلمة وما شابهها تعني الاحترام للمخاطب، ولم تكن مقصورة على طبقة الأمراء بل حتى السكان العاديين كانوا يستعملونه، فقد اشتهر أهل دمشق بلباقتهم في سلوكهم، سواء أكان ذلك فيما بينهم أم مع الغرباء، وقد تأثر كثيرون ممن أقاموا بينهم بما فيهم من اللطف والاهتمام بالآخرين، والانطباع الذي وضعه كل من ابن جبير وابن بطوطه ـ وهذا كان قد جاب في طول الأرض وعرضها وتنقل براً وبحراً ـ حري بأن ينقل. فقد قال ابن جبير: مخاطبة أصل هذه

---

[1] - صور ومظالم من عصر المماليك من المقدمة.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٧٥.

الجهـات قاطبـة بعضـهم لـبعض بالتمويـل والتسـويد، وبامتثـال الخدمـة، وتعظـيم الحضـرة، وإذا التقـى واحـد مـنهم آخـر مسـلماً يقـول: جـاء المملـوك أو الخـادم برسـم الخدمة، كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عتقـاء مغـرب، وصفة سلامهم إيماء للركـوع أو السجود، فترى الأعنـاق تتلاعـب بـين رفـع وخفـض، وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوي بينهم هوياً)[1].

ما هي حقيقـة المماليـك إذاً؟ (فالمماليـك لم يـتم شـراؤهم مـن قبـل الأشـخاص . إن صـحت كلمـة الشـراء علـيهم . بـل السـلاطين دفعـوا لاسـتقدامهم مـن بيـت مـال المسـلمين)[2]. لجعلـهم جنـوداً للـدفاع عـن بـلاد المسـلمين ومـا دفعـه بيـت المـال لا يعـني مطلقاً في الإسلام شراء عبيد أو أشخاص[3]، ولنـذكر مـا كتبـه الـدكتور شـوكت المفتي: (وهنا تعبير آخر يجب ذكره هو (المملوك) مع العلم أن المماليك لم يكونـوا في حـال مـن الأحـوال أرقـاء بـل كـانوا جنـوداً يخصـون الملـك أو الأمـير كحـرس خـاص، ويخـدمون مقابـل رواتـب وأجـور، ويسـتخدمون أيضـاً ليناهضـوا غيرهـم مـن الجنـود المحـاربين الأجانـب كـالفرس والـترك، والـدليل علـى ذلـك أنهـم حينمـا تهيـأت لهـم الفـرص، أصبـح المماليـك ملوكـاً واثبتـوا جدارتهم في الحريـة كمـا شـهد لهـم بـذلك التاريخ)[4].

تـذكر بعض الكتـب بـأن المماليـك هـم الجنـود الميليشـيا والـذين أصـبحوا طبقـة عسـكرية ثـم طبقـة حاكمـة[5]. ويـذكر في التـاريخ الانتصـارات الـتي حققوهـا ضـد الصـليبيين والمغـول ويـرى المرحـوم محمـد زاهـد بـن الحسـن الكـوثري وهـو عـالم ديـن إسلامي عاش آخر أيامه في مصر وله مؤلفات بالفارسية والتركية والعديد بالعربيـة، وأغلبها متعلقة بالدين قال: (إن أسير الحرب لا يدل على أنه غير أصيل، بل يدل على

---

[1] - دمشق في عصر المماليك ص١٣٦.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٥٤.

[3] - المماليك ص٨٢.

[4] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاز ج١ ص٥٧.

[5] - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى ـاية حكم إسماعيل ص٢٢ ـ ٢٣.

أنه وطني صحيح عانى كل شقاء في سبيل الدفاع عن بلاده، ويرى أن إطلاق المماليك إنما هي شتيمة لا تبيحها الشريعة الإسلامية ولا يستسيغها الخلق الكريم)[1].

ب. عبد:

استعملت بمعنى احترام للأعلى مرتبة، كما جاء في الرسالة الشفهية لقائد الجيش المغولي كيتويوقا لهولاكو بعد أن خسر المعركة - في عين جالوت - (مادامت نفسه الشريفة - أي هولاكو - آمنة وسالمة فإنها تكون عوضاً لكل مفقود، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير)[2].

ج. عتيق:

جاء في رسالة الأمير الإمبراطور فريدريك الثاني إلى الملك الكامل لما قدم إلى سورية عام ٦٢٦هـ من أجل بحث موضوع القدس: (إني عتيقك، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج وأنت كاتبتني بالمجيء...)[3]. فهل يعقل من أكبر ملوك الفرنج أن يعتبر نفسه عبداً مثلاً؟.

د. غلام:

جاء في رسالة جوابية من ملك الإنكليز إلى صلاح الدين: (إن قاعدة الفرنج إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار يتبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إلي وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي)[4]. ويتضح أن كلمة غلام التي جاءت في الرسالة لا تعني نهائياً بمعنى العبودية ولا تساوي كلمة عبد. ونجد أيضاً في رسالة

---

[1] - الوطن في أدب الشراكسة ص٣٢ ومصر والشراكسة ص٤٤ ـ ٤٨.

[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٣٥٨.

[3] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.

[4] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٥٣٥.

الإمبراطور فريدريك الثاني إلى الملك الكامل، ويكتب عن نائبه (إن هو إلا أقل غلماني فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له)[1].

هـ. أجلاب:

استعمل في عصر السلاطين وخاصة في القسم الثاني منها حسب تقسيم كتاب التاريخ وتحت اسم الدولة الجركسية أو البرجية كلمة جلب أو جلبان أو أجلاب عن أناس جاء بهم السلاطين[2]، لأغراض مختلفة، إلا أنهم أطلقوا هذه الكلمة على من أتى به لينضم إلى الجيش[3]، فجلب (إلى عرش السلطنة مقدمو الوحدات العسكرية المملوكية، الذين كانوا في ذلك الحين أصحاب النفوذ الحقيقيين،... فقد شنوا حرباً ضروساً ضد كل من المغول والإمارات الصليبية)[4].

الكلمة نفسها استعملت لمن جلب لأغراض غير حربية مثل جلب بعض العلماء ومن مناطق مختلفة ليزدادوا معرفة بالعلوم وخاصة الدينية فكتب الكوثري: (ها هو الظاهر برقوق، - وهو من السلاطين الشراكسة في مصر - يتفقه على الإمام أكمل الدين البابرتي، ويشارك المحدثين في رواية الصحيحين، ويجلب أمثال ابن أبي المجد من كبار المسندين من الأقطار النائية رغبة منه في إعلام سند المتعلمين بمصر بسماعهم الحديث من أصحاب الأسانيد العالية، ويفعل مثل ذلك المؤيد - وهو من سلاطين الشراكسة في مصر - حيث كان هو نفسه يروي الصحيح عن السراج البلقيني، بل ابن حجر سمع الحديث عن المؤيد هذا، وترجم له في عداد شيوخه في (المعجم المفهرس)، وقد جلب المؤيد إلى مصر العلامة شمس الدين الديري صاحب (المسائل الشريفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة). وكذلك ترى الظاهر جقمق - وهو من السلاطين الشراكسة في مصر - يسمع الصحيح من أبي الجزري، ويجلب كبار المسندين إلى مصر ليتلقى منهم المتعلمون بمصر ومروياتهم في السنة من

---

[1] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٢٤٨.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٣٤.

[3] - مصر والشراكسة ص٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٣٩.

الصحاح والمسانيد ، ويجعل القلعة المصرية مجمع هؤلاء العلماء وموضع تلقي المتعلمين لتلك الكتب من هؤلاء المسندين، تنويهاً بأمرهم وإعلاء لشأن العلم، وبهذه العناية من الملوك والأمراء كانت مصر دار حديث وفقه وأدب في القرون الثلاثة. السابع والثامن والتاسع)[١].

و. خاتمة وإيضاح:

جلب أو استخدام أناس من الشمال لم تكن بعملية بيع وشراء، فالذي يطلب قدومهم هو من نفس قوميته[٢]، والجدير بالذكر أن من يجلبهم ـ التجار ـ غالبيتهم من غير العرب أيضاً[٣]. ولم يكن ما سموا بالتجار يشترون أناساً مثلاً أو يخطفونهم[٤]، مما يؤكد قولنا ما رأيت الحكومات السلطانية (على تحذير الناس من انتقال مملوك عن طريق البيع إلى كاتب أو عامي ـ أي إلى أحد من غير المماليك ـ ومن كان عنده مملوك فليبعه، ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكاً فلا يلوم إلا نفسه)[٥].هذا علماً بأنه كان يتم استقبال القادمين بالترحاب مما يؤكد رفض كل ما قيل عن شرائهم فقد كتب أبو حامد المقدسي، في آخر كتاب دول الإسلام الشريفة (ومولانا السلطان لان يسمع بأن فلاناً وصل من جركس فيرسل إلى باب حلب لملاقاته بفرس بسرج ذهب وكينوش كاملية طرش، ويقف النائب في خدمته وكذا كل من مر عليه، بل ومن حين وصوله يعمل خاصكياً قبل أن يقلع قماش الأجلاب فما يرى نفسه إلا ملكاً لا مملوكاً)[٦] ، وإذا عدنا إلى المصادر التاريخية لذلك العصر نجد بأنه من كان يستقدم تلك الفئات كان يعين بلقب خواجة، والخواجة تعني الأستاذ في ذلك العصر، وكانوا يعتبرون أفراداً مهمين في الدولة،

---

[١] - مقالات الكوثري ص١٦٦.

[٢] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٢٧ ومصر والشراكسة ص٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٧.

[٣] - المماليك ص٧٦.

[٤] - صور ومظالم من عصر المماليك ص٧٨.

[٥] - مصر في عصر دولة لمماليك البحرية ص١٥٧ ومصر والشراكسة ص٤٠ ـ ٤٤.

[٦] - مصر والشراكسة ص٤٨.

ويشرف عليهم أميراً عاماً [١]، ويتم الأمر بموجب تفويض السلطان نفسه[٢]، ويعهد إليهم بالاتصالات الدبلوماسية مما يؤكد كذلك هو قدوم السلطان برقوق ـ طبعاً قبل أن يكون سلطاناً وكان وقتها أميراً ـ طلب قدوم أخيه وأولاده ووالده أنس (آنص)[٣]، علماً أن والده أنس مات بعد سنتين من وصوله وقد تجاوز الثمانين عاماً، وتم قدومه واستقباله باحتفال، وقبل برقوق يد والده ووضعها على رأسه[٤]، فلا يعقل أن تكون هناك معامل إنتاج للعبيد بل كان الغرض استقدام أناس ذوي كفاءة ومعرفة سابقة بهم. فكثيراً ما نجد الأسرى والجنود هم أقرباء، وكان المرء إذا ارتاح واستقر وضعه في مصر حينما يكون ذا مكانة كان يطلب من أقربائه القدوم للعيش الرغيد كما يقال، وكما فعل السلطان برقوق حيث استقدم أقرباء آخرين غير أخيه ووالده[٥]، وكذلك الأمر أيضاً مثل أمير الشام سيباي الذي له أعمال في الشام مثل قناة العوني جنوبي السويقة، وخان نقيب الأشراف في باب الجابية، وشرع في غرب الجابية بناء تربة له فيها، فتوفيت أمه فكانت أول من دفن فيها، مما يدل على أن استقدام الشراكسة إلى بلاد الشام ومصر لم يكن بيعاً بل باختيارهم إذ لو كان بيعاً كيف يأتي الآباء والأبناء وما شابه ذلك كما ذكرنا في موضع آخر[٦]، والجدير بالذكر (أن هذه الطائفة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل عدم اندماجها في الأهالي الوطنيين وابتعادها عن الاحتكاك معهم) وقد كانوا (يحرصون على التزاوج بينهم وبين أنفسهم) أي من جنسهم[٧].

---

[١] - نظم السلاطين المماليك في مصر ج١ ص١٥ ـ ١٦.

[٢] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٢٦.

[٣] - مصر في عصر دولة لمماليك الجركسية ص٨.

[٤] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١١ ص١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ٢٠٣ ـ ٢١٨.

[٥] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٣٠ ـ ـ ٣٧ و المماليـك ص٢٢٠ و النجـوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١١ ص١٨٢ ـ ٢٥٥.

[٦] - دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص٦٦.

[٧] - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى ابة حكم إسماعيل ص٢٣ ومصر والشراكسة ص٤١ ـ ٤٢.

وصلت في العشر الأخير من رمضان ٨٥٢هـ أخت السلطان جقمق قادمة من بلاد الشركس، والمذكورة تزوجت يوم الأربعاء الثامن من ربيع الآخر ٨٥٤هـ على الأمير تتم بن عبد الرزاق المؤيدي[١]، كما قدم يوم الأحد السابع والعشرين جمادي الآخرة ٨٥٣ هـ أخو السلطان جقمق من بلاد الشركس، وكان قدم قبل هذا التاريخ مرة سابقة في الدولة الأشرفية[٢]، وكذلك نجد أن السلطان قايتباي جلب قانصو الأول خال الناصر محمد بن قايتباي وكان لا يعرف إلا باللسان الشركسي[٣]، فيتضح لك أن قدوم أشخاص من بلاد الشركس كان لأغراض وحسب ما يقتضي الأمر وحسب ما يطلبه السلاطين الشراكسة أنفسهم، وليس بضاعة تعرض، وكانت هناك اتصالات بين السلاطين في مصر والشراكسة في بلادهم. وقد كان يكلف أشخاص كأدلاء للطريق ذوو مكانة بارزة، وليس تجاراً كما كتب بعض الكتاب عنهم فكلمة خواجة تعني في كثير من اللغات ومنها الشركسية الأستاذ ذو المعرفة بشيء ما.

استعملت كلمة استيراد أيضاً في بعض الكتابات. أما سبب استيرادهم إن صحت التسمية هو النظام الذي اتبعوه في ذلك العصر للحفاظ على عنصرهم. فقد (اعتمد على استيراد الرجال الجدد في كل جيل لأخذ المناصب الأعلى في الدولة ليحل محل العائلات المملوكة السابقة، والتي برغم أنها أعطيت موقعاً... وهناك سبب للاعتقاد أن المماليك كانوا مخفقين بيولوجياً في مصر وسورية، وأنهم أخفقوا في إنشاء أسر كبيرة، تستمر فترة طويلة)[٤]. ولهذا السبب استقدموا النساء أيضاً للزواج حيث الشراكسة لا يتزوجون غالباً إلا منهم، وتجد الخاصة لديهم من القديم إلى الوقت الحاضر في بلادهم القفقاس وفي بلاد المهجر المختلفة. ويذكر في الكتب العديد من النساء اللاتي قدمن لبلاد الشام ومصر، فتجد السلطان جقمق

---

[١] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١٨٢ ـ ٢٥٨.

[٢] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص٢١٣.

[٣] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٠.

[٤] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٨٦ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥ ـ ٢٠١ ـ ٢٨٥ ـ ٤٣٥ ـ ٤٣٦ بناء دولة مصر محمد علي ص٢٣٩.

الشركسي تزوج من بنت أمير بلاد الشركس كرتباي التي وصلت إلى مصر مع أبيها[1]، وقبل ذلك تزوج السلطان جقمق من خوند شقراء بنت السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق[2]. مع العلم أنهم لم يحاولوا الامتزاج بأهلها[3].ولكنهم شاركوا ليس بالدفاع عن مصر وبلاد الشام بل كانوا مشاركين مهمين في عملية بناء المجتمع[4]، ومهما قيل عنهم بأنهم هبطوا مختارين أو أسارى أو متخطفين)[5].

٦ ـ كلمات بغير معانيها:

إن اللسان العربي غني بكلماته، وقد يحدث أن يستعمل العرب كلمة معناها شيء ويقصد بها شيء آخر خلال استعمالها لدى الناس عبر العصور وفي كلامهم العادي واليومي، وقد يتكلم المرء بشيء ويعني شيئاً أخر غير ما هو وارد في المعاجم العربية، أو كلمة تطلق بمعنى حسن لإخفاء حقيقة أخرى.

لتوضيح ذلك نجد مثلاً كلمة صعلوك تعني الفقير الضعيف وجمعها صعاليك، وقولهم صعاليك العرب، كان يعني فقراءهم[6]، واستعملت لمن يقوم بعمل مشين غير رزين وقد كان يطرد من قبيلته، بينما حالياً تعني الكلمة لدى الناس الفهلوي والشاطر، وإذا قلت لآخر أنك صعلوك لا ينزعج حالياً بل قد يبتسم.

كلمة استعمار أصل الكلمة جيد، وحسن بمعنى السير للأعلى والبناء، والعمران، ولكن المعنى الحالي للكلمة هي الاحتلال بالقوة لأرض الآخرين واستنفاذ خيراتهم.

---

[1] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص٢٢٤ و مصر في عصر دولة لمماليـك البحريـة ص١٥٧ و دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص٩١.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص٢٦٠.

[3] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٨٨.

[4] - مصر والشراكسة ص١٣٨.

[5] - صور ومظالم من عصر المماليك ص٣ ـ ٤.

[6] - مختار الصحاح ص٣٦٣ ومنجد الطلاب ص٤٠٥.

استعملت قديماً كلمات مثل مفاز (بفتح الميم) أي برية طويلة قليلة الماء، ولكن في الحديث الطويل عن غزوة تبوك (واستقبل سفراً بعيداً مفازاً) سميت مفازاً تفاؤلاً، كما يسمى اللديغ سليماً[1].

كذلك كلمة الجزية التي كانت تفرض على أهل الكتاب في ديار الإسلام مقابل حمايتهم وعدم الاعتراض لهم، فهذه الكلمة قد يعتبرها الناس بمعنى المهانة مع أن الكلمة لا تدل بوزنها ولا أصل اشتقاقها على معنى من المعاني أو الاحتقار، ويذكر (أن نصارى بني تغلب قالوا لعمر نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم، ولكن خذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض، يعنون الصدقة (أي الزكاة) فقال لهم عمر: هذا فرض على المسلمين. قالوا: (فرد ما شئت لهذا الاسم لا باسم الجزية. ففعل.. وفي رواية: (ضاعف عليهم الصدقة، وقال: سموها ما شئتم)[2].

---

[1] - رياض الصالحين ص٢٨.

[2] - الجهاد في الإسلام ص١٣٤ ـ ١٣٦.

العرب والشراكسة

توسع القفقاسيون قديماً من أراضيهم إلى الأقطار الأخرى في هجرات قبل الميلاد، ففي بلاد الرافدين تجد السومريين وهم أجداد الشراكسة[١]. كما تجد من يقول بأن الحيثيين أصلهم شراكسة[٢]، وحتى الفراعنة يقال عنهم أنهم من الشراكسة[٣]، وهناك من أكد أن البعض منهم شراكسة مثل أخناتون[٤].

ليس عجباً ما ذكرناه، ففي الدراسات الحديثة في العالم تقسم العروق البشرية إلى ثلاث هي العرق الأبيض الذي سمي القوقازي ومنهم الشراكسة، ويعتبر الساميون العرب منهم أيضاً، والعرق الأصفر المغولي شرق آسيا، والعرق الأسود الزنجي في إفريقية[٥].

حدثت الفتوحات الإسلامية، وانتشر الإسلام في ربوع جنوب وشرق القفقاس خاصة.وإثر قدوم الإفرنج وحروبهم لبلاد الشام وهي ما تعرف بالحروب الصليبية، عاد بعض العرب وقادتهم أدراجهم لحماية بلاد الشام وبلادهم العربية وأتى معهم برجوعهم القواد والعساكر الإسلامية من البلاد التي نشر فيها الإسلام في شرق آسيا كالأذريين وفي الشمال وأقصد الشراكسة، ورد ذكر أمراء منهم حتى قبل عصر السلاطين وقبل حكمهم لبلاد الشام ومصر. وحتى بعد عصرهم قدم آخرون بعد حرب ضروس بينهم وبين قياصرة الروس وبتآمر بين الحكومات الروسية والعثمانية والإنكليزية تم تهجير أغلب الشراكسة قسراً عن أراضيهم وشتتوا في أكثر من خمسين دولة في العالم حالياً. وكان آخر الوافدين منهم إثر قضاء الشيوعيين على دولة شمال القفقاس بين بحري الأسود وقزوين والتي قسمت إلى تسع كيانات بمسميات مختلفة.

---

[١] - انظر كتاب الأصول الشركسية في اللغة السومرية وكتاب العلاقة بين اللغتين السومرية والشركسية.

[٢] - انظر كتاب تاريخ القوقاز.

[٣] - انظر كتاب الحلقة المفقودة.

[٤] - مجلة البروز العدد التاسع كانون الثاني شباط ١٩٩٨ ص١٤ ـ ١٥.

[٥] - مبادئ الجغرافية العامة والعالم ص٨٨ ـ ٨٩.

كتب العديد عن الشراكسة سواء أصابوا بما كتبوه أم لا ، ومنهم من سماهم ونعتهم بأسماء مختلفة فكان لابد من إيضاح بعض النقاط وبشكل مختصر للقارئ مع التركيز على عصر السلاطين.

١ ـ عدم التفريق بين الشركس والأتراك:

آ . بشكل عام:

إذا عدنا للدراسات التاريخية القديمة، وبالعودة إلى مورجان ونظريته التي تتلخص بأن سكان بين بحري قزوين والأسود ومن أول التاريخ المسيحي هم من العرق الأبيض وهم آريون وطورانيون وبنظريته تلك وللأسف جعل مورجان الشراكسة من الطورانيين الأصليين وعلى هذا الرأي جرى جميع مؤرخي الغرب وطبعاً لأسباب راقت لهم[١].

مع تقديم العلم والفنون ولتكوين البيانات وبشكل أصدق وأفضل ولمعرفة جنسيه الإنسان ومنبته فقد ركز العلماء البحث عن حجم الجمجمة وأبعاد طول الجسم وألوان العيون والشعور والجلود وغيرها. وبناء على القواعد العملية الأخيرة، قرر العلماء الذين فحصوا الشراكسة ودققوا في درس تكوينهم وخلقتهم أنهم من السلالة الآرية وليسوا من السلالة الطورانية[٢].

ب . عصر السلاطين:

تجد أغلب الكتاب خلال كتابتهم عن عصر السلاطين لم يميزوا بين الشركس وغيرهم، فمثلاً يكتب عن دولة المماليك البحرية بأن ملوكها بالأصل أتراك (وأول من نازع الأمويين منهم الملك وهو عز الدين أيبك عام ٦٤٨هـ، ثم استقرار الأمر لقطز كما أسلفنا، ومن ملوكها بيبرس... والناصر قلاوون وقد عني بنشر العلوم والمعارف وبناء المساجد والمباني الفخمة)[٣].

---

[١] - تاريخ القوقاز ص٦٨.

[٢] - تاريخ القوقاز ص٦٩.

[٣] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص١٨.

إن الأسماء المذكورة ليس منها من أصل عثماني ولا تركي فعز الدين هو تركماني وقطز خوارزمي، وبيبرس وقلاوون من الشراكسة، وقيل من القبجاق.

يكتب البعض (استعمل المؤرخون العرب في العصر المملوكي كلمة أتراك ويعنون بها المماليك، وكلمة الأروام بمعنى العثمانيين)[1]. وذلك يفسر اختلاف المماليك عن العثمانيين، ولكن العثمانيين ليسوا بروم بل هم جزء من الأتراك وهم من العرق الطوراني، بينما المماليك وخاصة أغلب السلاطين والأمراء فقد ثبت بأنهم من الشراكسة وإطلاق اسم الأتراك عليهم غير صحيح.

نجد أبو شامة والذي عاصر دخول السلطان قطز إلى دمشق بعد الانتصار في عين جالوت في عام ٦٥٨هـ يمدحه بقوله:

غلب التتار على البلاد فجاءهم   من مصر تركي يجود بنفسه

بالشام أهلكهم وبدر جنسهم   ولكل شيء آفة من جنسه[2]

فيعتبر التتار من الأتراك وكذلك قطز الذي هو خوارزمي.

يقول الدكتور السيد البار العريني: (إن لفظ الترك يشمل معاني كثيرة، فهو تسمية خاطئة لدولة المماليك الأولى في مصر، وهو اسم جنس المماليك الذين جاءوا من بلاد القبجاق فهم أصحاب السيادة في العصر المملوكي الأول)[3]. ويقول أيضاً (والجراكسة عنصر قوقازي الجنس، وهم قلة في الجيش المملوكي والشركس أو الشراكسة وفي القليل الجهاركس مع إنهم عنصر من الجنس التركي العام، فإن المصادر العربية تشير إلى أنهم أعداء الأتراك. أما موطنهم فهو المرتفعات الجنوبية من بلاد القبجاق بين البحر السود وبحر قزويين)[4]. نلاحظ قوله أن الشراكسة من العنصر القوقازي الجنس ويقول هم من الأتراك مع العلم أن الأتراك من الجنسية الطورانية.

---

[1] - تاريخ البصروي ص١٧٨.

[2] - تاريخ البصروي ص٦.

[3] - المماليك ص٥٩.

[4] - المماليك ص٦٣.

مثال آخر (وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه وكان خيار ملوك الترك بالنسبة إلى من جاء من السلاطين ولو لم يكن عنده بعض طمع لكان من أجل ملوك الشراكسة وكان من خيارهم)[١] ، وتجد الكاتب ونفس الكتاب ونفس الصفحة يقول مرة من الأتراك ومرة من الشراكسة ألا يدل ذلك على عدم التمييز بين الشراكسة والأتراك علماً أن لغة الشراكسة مختلفة عن التركية ـ كاختلاف اللغة الانكليزية عن الروسية ـ وكذلك جنسهم من أصل قوقازي أما الأتراك فمن أصل طوراني.

كاتب آخر يقول عن وصول أنس والد برقوق (وصل أنس بن عبد الله العثماني والد برقوق)[٢] ، وفي نفس الكتاب في صفحة أخرى يقول: (أنس بن عبد الله الجركسي والد برقوق كان كثير البر والشفقة لا يمر به مقيد إلا ويطلقه)[٣] ، ويذكر اسم أنس أيضاً في بعض الكتب وتجد في كلام برقوق وأصله في رسالة ثانية أرسلها إلى تيمورلنك يرفض فيها تسليم القان أحمد الذي التجأ إليه طالباً الأمان (ولو لم يكن في ذلك كيف يجوز في شرع المروءة والنخوة والوفاء أن نسلم ضيفنا ونزيلنا والمستجير بنا؟ خصوصاً جنسنا جركس جنس ملوك الإسلام السالفين وخدام الحرمين الشريفين الذين اتفق لهم مع التتار ما يشهد به التواريخ، ومن عادتنا وشأننا وطباع جنسنا أننا لا نسلم ضيفنا ولا نزيلنا ولا من استجار بنا أحداً ، وإن كنت لا تصدق ذلك فعندك من هم من جنسنا سلهم يعرفوك، فنحن لا يضام لنا نزيل، نقري الضيف ونعامله بالجميل، وهذه جبلتنا الغريزية وعادة أصلنا الأصيل، فإرسال القان أحمد إليك مستحيل)[٤].

---

١ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٠٩.

٢ - الدولة المملوكية والتاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٢٠ ـ ٢٨١ والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١١ ص١٨٢.

٣ - أنباء الغمر بأبناء العمر ص٢٤٩ ـ ٢٨٤.

٤ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٤٢٩.

ج . في العصر الحاضر:

نجد وكيل الحقوق وأستاذ الشريعة بجامعة القاهرة سابقاً الأستاذ الكبير الشيخ أحمد أبو زهرة يقول عن الإمام الكوثري المتوفي عام ١٣٧١هـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، بعد مديح للإمام: (فكان بعض القارئين ـ لسلامة المبنى ودقة المعنى ولإشراق الديباجة وجزالة الأسلوب ـ لا يجول بخاطره أن الكاتب تركي بل يعتقد بأنه عربي ولد عربياً وعاش عربياً، ولم تظله إلا بيئة عربية. ولكن لا عجب فإنه تركي في سلالته ونشأته في حياته الإنسانية في المدة التي عاشها في الآستانة، أما حياته فقد كانت عربية خالصة، فما كان يقرأ إلا عربياً...)[1].

يصف أستاذ الحقوق المذكور الكوثري في موضع آخر (ويظهر أن ذلك كان في دمه الذي في عروقه، فهو في الجهاد في الحق منذ نشأ، وإن في أسرته لتقوى وقوة نفس وصبر واحتمال للجهاد، إنه من أسرة كانت في القوقاز حيث المنعة والقوة وجمال الجسم والروح وسلامة الفكر وعمقه)[2].

كتب في البداية بأنه تركي ومرة ثانية بأنه من القوقاز وهي بلاد الشراكسة، وربما السبب كتابات الكوثري فقد كتب باللغة التركية قبل قدومه لمصر وللتوضيح كتب الكوثري كتاباً باللغة الفارسية بالإضافة إلى عدد من الكتب القيمة التي ألفها باللغة العربية فهو رحمه الله كان يعرف عدة لغات بالإضافة إلى لغته الشركسية. أما نسب الإمام المذكور كما ذكره بنفسه هو محمد بن أحمد أفندي[3] بن الحسن الحلمي هو ابن علي الرضا وهو المهجر من القفقاس ابن نجم الدين خضوع بن باي بن قنيت بن قانص المنحدر من أصل شركسي ومن فخذ يعرف جدهم باسم الكوثري[4].

---

[1] - مقالات الكوثري ص١٦.

[2] - مقالات الكوثري ص١٧.

[3] - أفندي كلمة تركية معناها السيد، وكانت تطلق على أفراد البيت المالك العثماني، وعلى كبار العلماء ولا تزال في مصر تستعمل كلمة (أفندم) ومعناها (سيدي) في مجال الأدب والتكريم.

[4] - مقالات الكوثري ص٢٨.

٢ ـ حب القوم:

يردد بعض الأفراد وحتى بعض الكتاب ينعتون بها غيرهم بصفات مثل الشعوبية وغيرها من الكلمات المرادفة لها.

أعجب كيف يصف الكتاب وهم في بلادهم بصفات لأناس يعيشون معهم، مع أن تلك الفئات والمجموعات لا يشكلون نسبة تذكر، مع العلم أن ما ينعتونهم به غير صحيح وأغلب الذين يعيشون في البلاد العربية ـ أقصد جاليات أصلها غير عربي ـ خاصة في سورية الديمقراطية الحرة متمسكون بجنسيته العربية ويتكلمون بلغتها متمسكين بوطنهم العربي، ويدفعون عنه واستشهد كثير منهم مع أبناء الضاد في خندق واحد، ولم يصدر عن أي منهم أية خيانة مهما كانت، ومخلصون في أعمالهم وينعمون بأمان ويقدمون الإنجازات فتجدهم ضباطاً ومدراء في دوائر الدولة وممثلين في مجلس الشعب.

لنتمعن في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أيها العرب، الرب واحد والأب واحد، و الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي)[١].

يجب التنبيه بأن الله خلق البشر وكل يحب نفسه أولاً ثم أهله، ثم قرابته ثم حمولته، ثم وطنه ويذكر قول برقوق عن أبناء قومه: (هم أولاد عمي وعشيرتي)[٢]. ويحكى أيضاً عن السلطان محمد بن قايتباي حين ذهابه إلى القناطر العشر للاحتفال بيوم من أيام فتحها فيرى من القلعة في موكب ضخم ومعه أولاد عمه وعدد كبير من الخواص[٣]. ويمكن وصف دولة السلاطين الثانية بأنها عصر الأقارب والأصهار[٤]، وهذا لا خلاف فيه بين البشر ولا مستنكره أحد ولا عصبية فيه، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يلام الرجل في حب قومه).

---

[١] - مجلة العربي الكويتية العدد ٣٦٧ حزيران ١٩٨٩ ص٥٥.

[٢] - قيام دولة المماليك الثانية ص١١١.

[٣] - الطرب في العصر المملوكي ص٢٠.

[٤] - المماليك ص٧١.

ظهر اصطلاح الشعوبية أواخر الخلافة العباسية ليستأثر البعض في الحصول على المناصب في الخلافة العباسية التي توسعت إلى حدود الصين حيث كان العرب المسلمون قلة بالنسبة لسكان المناطق، كما ذكرنا وهذا لا يطلقه البعض في القرن العشرين حيث صدرت القوانين والمراسيم ورسمت الحدود ووضعت معايير للجنسية وما شابه ذلك.

لتوضيح الفكرة التي أقصدها سأعود إلى الحديث الشريف والسبب هو ما للأحاديث من قدسية لدى المسلمين والعرب فلو قلت قال فلان فربما الكثيرون لن يعرفوه وما اعتقدوا بصحة ذلك القول فقد روى (عائذ بن عمرو: أن أبا سفيان أتى إلى سليمان[1] وصهيب[2] وبلال[3] في نفر فقالوا :ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم[4]، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم: فأجاره، فقال يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم؟ لئن أغضبتهم لقد أغضبت ربك[5]، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم[6]. قالوا: لا[7] يغفر الله لك)[8].

نجد النهي عن العصبية في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة) رواه البخاري[9].

---

١ - هو صحابي أصله من فارس ويعرف بسليمان الفارسي.
٢ - هو صحابي أصله من الروم ويعرف بصهيب الرومي.
٣ - هو صحابي أصله من الحبشة ويعرف ببلال الحبشي.
٤ - سماه أبو بكر سيداً، وأمر صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصالح هؤلاء السادة الثلاث لآن رضاهم من رضا الله مع العلم إن أبا سفيان حماه الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو رئيس قبيلة وصاحب كلمة وسلطان في قومه.
٥ - أي تعديت على أوليائه.
٦ - هل تكدرتم في دفاعي عن أبي سفيان.
٧ - أي ما أغضبتنا ثم دعوا له بالغفران.
٨ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج٤ ص١٤٣.
٩ - رياض الصالحين ص٢٤٢.

نعود إلى عصر السلاطين موضوع البحث فقد جاء: (لم تتم دراسة ثقافة بلاط المماليك حتى الآن، فلا نعرف إلا مقداراً ضئيلاً من التمارين والتدريبات العسكرية، ولكننا نعرف جيداً وبشكل كاف وجود نقص في إدراك التفاهم المتبادل بين الجماهير والغرباء الذين لم يستطيعوا تحقيق محبة أفضل بسبب احتكارهم للخدمة العسكرية، واعتماد بقية المجتمع عليهم، وفصلت ثغرة واسعة الحكام عن الرعية، التي لم تستطع الطموح للحصول إلى مناصب عسكرية، ومنزلة هامة في الدولة)[1].

هل السبب احتكار الخدمة العسكرية حقاً؟ لابد من التساؤل فابن خلدون يؤكد في إحدى الحروب أنه حينما فتح باب الجهاد لم يتقدم أي مصري وبعد ذلك أيضاً كيف كان الوضع؟ لنكتب عن زمن محمد علي الذي أبعد كل من بقي من ذرية السلاطين في الجيش، كما أبعد الأتراك، وكل عنصر غير عربي، وبنصيحة - الفرنسيين - طالما فكر محمد علي بالانفصال عن العثمانيين وإقامة دولة مستقلة في مصر - (فقد عمد إلى تجنيد أهل البلاد، حتى أصبح جيشه بأجمعه في الوقت الحاضر من أبناء العرب)[2].ومنح ميزات جيدة لمن يريد الدخول بالجيش، فلم يتقدم إلا أفراد، فما كان منه إلا إلزامهم للخدمة العسكرية وقيل السبب هو (تعلقهم بأرضهم وقراهم، ذلك التعلق القوي الذي يقارب العبادة، وقد دفعهم من ناحية إلى مقاومة التجنيد لأنه يباعد بينهم وبين أوطانهم)[3]. كانت الخدمة الإلزامية مربكة لمحمد على حيث أصبحت أفراد أسرة الجندي تلحق به أينما حل. ولعدم إقبال المصريين على التجنيد فما كان من محمد علي إلا الاعتماد على الأتراك، وباقي أولاد السلاطين الذين نجوا من مذبحة القلعة التي قتل فيها محمد علي الأبرياء

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٨٩.
[2] - بناء دولة مصر محمد علي ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.
[3] - بناء دولة مصر محمد علي ص٤٧٤.

والقادة العظام بخدعة، وكان السبب هو حبة للسيطرة وإبعاد أي منافس له، فأمر بتعليم القادة السابقين ولكن بقيادة الفرنسيين[1].

٣ ـ وجودهم قبل حكمهم:

لقد ذكرنا أن المسلمين تجاوزوا باب الأبواب، ودخل الداغستانيون وغيرهم من هؤلاء الذين يسمون في بلاد العرب الشراكسة، فوصل إليهم دعاة الإسلام، وكان لهم إدارة مميزة دامت عصرين من الزمن[2]. لكن من القرن العاشر بدأت الحملات الصليبية، وتعرضت لها بلاد الشام وأدت إلى انسحاب الجيش العربي من القفقاس وزوال الحكم العربي[3]، وقدم من تلك البلاد أناس للدفاع عن ربوع الإسلام.

قبل استلام الشراكسة كسلاطين في بلاد مصر والشام تجد ارتقاء بعض الشراكسة إلى مناصب رفيعة. وعلى سبيل المثال نذكر الأمير فخر الدين شركس الذي قال عنه خلكان وهو أبو المنصور جهاركس بن عبد الله الناصري الملقب فخر الدين حيث كان من كبار أمراء الدولة الصلاحية. وكان كريماً نبيل القدر عالي الهمة وقد عمل نائباً للعامل في بانياس وتبنين. وهو الذي بنى القيسارية الكبرى في القاهرة المنسوبة إليه، وبنى في أعلاها مسجداً معلقاً وربعاً، وصف بأن لا نظير لها في البلدان في حسنها وعظمتها وإحكام بنائها، وإليه ينسب قباب شركس بسفح جبل الصالحية بدمشق تجاه تربة خاتون ودفن بها حيث انتقل لرحمته تعالى في شهور عام ٦٠٨هـ، وترك ولداً صغيراً فأقره السلطان على ما كان يليه أبوه وجعل مديراً له الأمير صارم الدين قطلبا التنيسي[4].

---

[1] - بناء دولة مصر محمد علي ص١٨٣ تاريخ مصر من عهد المماليك إلى ابة حكم إسماعيل ص ٨٨ الـوطن في أدب الشراكسة ص١٥٦ ومصر والشراكسة ص٢٠٠.

[2] - مصر والشراكسة ص١٣ وعشائر الشام ج١ و٢ ص٦٨٣.

[3] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص٣٦٧.

[4] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٨٣ ـ ٨٤ والبداية والنهاية ج١٣ ص٦٣ ومصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٧٤.

يذكر أن الخليفة الفاطمي العزيز (استقدم جماعة من الأتراك والشراكسة الذين استطاعوا فيما بعد الاستيلاء على السلطة)[1].

٤ ـ رفض اعتبارهم عرباً:

آ. أقوال الشراكسة:

نجد في بعض المؤلفات العربية خصوصاً التي تحمل صفة تاريخية بعض الأقاويل عن كون الشراكسة وخاصة أمراؤهم وأشرافهم من سلالة العرب الساميين أبناء سام بن نوح عليه السلام، وأنهم من قبيلة قريش، ومنهم من يقول: إنهم من سلالة مصرية قديمة. فينسب البعض بان الأمير أينال الشركسي من سلالة مصرية كما سطره (القولخيد ـ الآز) وتجد من الشيشانيين من يقول أن جدهم الأكبر هو ناخوتسو زمن حدوث ذلك. وإذا عدنا إلى أغلب الباحثين الشراكسة فإنهم يعتبرون ذلك خطأ، ولم يثبت صدق تلك الادعاءات[2].

الجدير بالذكر أن الشراكسة لم يحاولوا الاختلاط مع غيرهم فيما يتعلق بالنسب حتى في عصر السلاطين، وكان أغلبهم يتزوجون من بني جنسهم[3]، وكمثال أسرده نجد عام ٩٢٠هـ ـ كلف السلطان الغوري المقرب إليه كثيراً أبو أنس العادلي وبرفقته حامية بالسفر إلى دمشق لخطبة ابنة نائب الشام سيباي إلى ابنه محمد الغوري، فعقد القران على شقراء بنة سيباي[4] وقبلها، تم زواج إبراهيم ولد السلطان المؤيد بنت السلطان الناصر فرج[5]. وكذلك تجد من قبل أن السلطان قلاوون طلب فتاة للزواج من بلاده القفقاس، كما عقد قران السلطان محمد بن قلاوون (على المرأة التي قدمت من بلاد القبجاق)[6]، وكذلك الناصر محمد نفسه زوج ابنته على الأمير قومصون الكبير الساق الناصري أحد كبار الأمراء في الدولة

---

[1] - الدولة المملوكية والتاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٧.

[2] - تاريخ القوقاز ص٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧٧ ـ ٢٤٥.

[3] - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى ابة حكم إسماعيل ص٢٣.

[4] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٦١.

[5] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٣١٩.

[6] - البداية والنهاية ج١٤ ص.

هو من بلاد القبجاق أي من جنسه[1]، كما تزوج السلطان الناصر ابنة أمير الشام وزوج ابنته لولد تنكز[2]. وكذلك تجد أن السلطان السعيد بن بيبرس تزوج غازية خاتون بنت الأمير سيف الدين قلاوون قبل أن يصبح سلطاناً[3].

وقد قيل (يعتبر القبردينيون ـ من الشراكسة ـ أنفسهم من سلالة العرب. وليس من المستبعد أن يكونوا من بقايا الجيوش التي سبق أن أرسلها الخلفاء إلى القوقاز، ويقول آخرون أن القبرطاي القبردينيين هم سلالة المماليك[4].

تجد على نطاق آخر لما بعد الممات في القاهرة مقبرة تسمى مقبرة المماليك تحوي مجموعة من القباب بميزات معمارية فريدة وفي المقبرة دفن الأمير أنس والد السلطان برقوق. وهذه المقبرة تضم رفاتهم في ذلك الوقت.

سبب ذكر المقبرة المذكورة هو حكاية محمد جلبي أحد المدافعين عن الداغستان الذي هجر من وطنه الداغستان ودارت الأيام به وذهب إلى والي مصر لمقابلة محمد علي ليتوسط له مع السلطان العثماني ليسمح له بالعودة إلى بلاده لكن الأخير اعتذر فكان خيبة أمل له، ولم يستطع العودة بعدها إلى دمشق حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في ربوع مصر، وكانت وصيته (أشعر أن يومي قد اقترب، ولن يكتب لي على ما أعتقد أن أدفن في تراب وطني داغستان فإذا مت هنا يا أصدقائي ادفنوني في تربة الجراكسة التي زرناها معاً لأكون على الأقل بين أبناء وطني وعشيرتي، ثم دفع لنا ما كان يحمل من مال وقال: أعتقد بأن هذا يكفي لتجهيزي إلى قبري)[5].

ب ـ أقوال الأجانب:

يقول كابروث بأنه سأل الشراكسة عن منشئهم فأجابه هيئتهم المختارة بأن أجدادهم من مدينة سينمر من قديم الزمان وهي موجودة في بلاد الشراكسة شمال

[1] - النظام النقدي المملوكي ص٧٢٩.
[2] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٥٧.
[3] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٧٠ ـ ٣١٧ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٢٦٩.
[4] - رحلات إلى الأقاليم الجنوبية الشركسية ص٢٠.
[5] - حكاية والدي ص١٤٥.

القفقاس ومنها خرجت قبائلهم ونشأت شعوبهم لكن مع ذلك يقول كابروث: (إن الإدعاء بأن أحد أمراء الكميركوي الذي اسمه من قبل (عرب خان) قد أتى من بلاد العرب أو مصر غير محتمل)[1].

يؤكد مورجان بوجود فكره بأن أصل الشراكسة من العرب. ويقول هيردوت أنه حينما رأى أناساً سود الوجود في القفقاس استغرب فعمد إلى البحث والتدقيق فتوصل إلى أن أصلهم من المصريين أتوا زمن الفرعون رمسيس الثاني. ولكن الجدير بالذكر أن زمن قدومهم المعتقد يعود إلى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد كما جاء عند مورجان بينما هيردوت كان في القرن الخامس قبل الميلاد فكيف يبني حكمه بأن الشراكسة من أصل مصري استناداً إلى تلك الفئة القليلة سود البشرة الباقية؟.

العالم بانتيوهوف وهو عالم بالأمم والشعوب التي سكنت جبال القفقاس وسهولها وآسيا الصغرى منذ آلاف السنين وعلماء آخرون يشتغلون في علم الأنثربيولوجيا وبعد البحث العميق توصلوا إلى نتائج تؤكد بأن الشراكسة من السلالة الهند أوروبية الكيمريين السومريين أحفاد عومر[2].

لابد من التنويه هنا بأن من نسب الشراكسة للعرب قال ذلك بدافع محبة الدين الإسلامي، لكن كما ذكرنا فبعض هذه المقولات أقدم من ظهور الإسلام وانتشاره.

ج. توجه نحو العرب:

عاش الشركس مع العرب في سلم وأمان ولا يكاد يفرق بينهم أحد منذ القديم وإلى الوقت الحاضر، وسأذكر ما كتب عن العلاقة بين العرب والشركس من الزمن الراهن ورجوعاً إلى الوراء.

[1] - أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس ج١ ص٣١.

[2] - تاريخ القوقاز ص٧٠ إلى ٧٢ ـ ٩١ مصر والشراكسة ص٦ ـ ٧.

حروب الاستقلال:

حينما قامت الثورة العرابية في مصر كان من قادتها الشركسيان محمود سامي البارودي الذي أصبح فيما بعد وزيراً للحربية، والفريق راشد حسني باشا.

نذكر في أواخر زمن احتلال العثمانيين للبلاد العربية كيف كانت الحركات الوطنية في أوجها، ولابد من ذكر عزيز بيك المصري الشركسي بطل برقة في نضاله عند احتلال الايطاليين لليبيا. هذا البطل مؤسس جمعية العهد العسكري، الجمعية القحطانية في الآستانة، وكان مطالباً باستقلال البلاد العربية عن العثمانيين ويذكر عنه أنه اعتذر عن قبول الرئاسة الفخرية لقيادة الثورة قبل عرضها على الرئيس محمد نجيب.

بعد ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ كان الكثير من الشراكسة في تنظيم الضباط الأحرار مثل وجيه أباظة وصلاح سالم وأخوه جمال، والأخيران كانا عنصرين ضمن تشكيل مجلس قيادة الثورة وكذلك محي الدين وخالد محي الدين، ولمع بعد الثورة فؤاد محي الدين زعيم حزب التجمع الوطني[1].

في الأردن لمع أمير اللواء ميرزا باشا وكان له دور وأثر بارزان إثر إعلان الثورة الكبرى حيث انضم إليها مع قوات الفرسان الشركس.

يذكر أن الأمير فيصل بن حسين دخل دمشق في ١٩١٨/١٠/٣، وبعد قرار المؤتمر السوري العام المنعقد في ١٩٢٠/٣/٢٨ باستقلال سورية، وكيف سار الفرنسيون نحو دمشق في ١٩٢٠/٧/٢٤ رافضين الرغبة بالاستقلال والحرية. ووقف البطل يوسف العظمة في ميسلون وقفة شرف حتى استشهد.

حين أصبح الملك فيصل ملكاً على أول حكومة سورية مستقلة وجه نداءه إلى العرب للدفاع عن كيانهم واستقلالهم، كان قبل معركة ميسلون، كما وجه رسائل ونداءات إلى القادة العسكريين البارزين والهيئات والقبائل والعشائر، وكان ضمنها رسالة تفصيلية حملها الشريف محمد على البدوي إلى ميرزا باشا طلب فيها

---

[1] - محاضرة تحت عنون الشراكسة في مصر منذ عهد محمد علي باشا١٩٩١م مجلة البروز العدد ١١ تشرين الثـاني شباط ١٩٩٩ ص١٧ ـ ١٨.

الإسراع في إعادة تشكيل قوة الفرسان الشركس التي كان يقودها فسارع المرحوم ميرزا باشا، وأعاد تشكيل القوة المذكورة واتجه نحو دمشق للاشتراك مع القوات العربية، لكن ورود برقية من القائد العام في سورية يوسف العظمة جاء فيها مناشدته بأن الوطن يدعو الجميع للذود عنه والطلب لتشكيل مجموعة من المقاتلين والتوجه بسرعة باتجاه القنيطرة[١].

في سورية يذكر الجميع كيف خاضت الفرقة الشركسية الحروب مع أبناء سورية ضد احتلال الصهاينة لفلسطين حين اندلعت الحرب في ١٥ أيار ١٩٤٨، وجاد الشركس بدمائهم فداء الوطن واستشهد العديد من أبناء الشركس في حرب فلسطين[٢]، وكذلك في حرب حزيران ١٩٦٧ وفي حرب تشرين التحريرية ١٩٧٣ فقد قاتل الشركس في البر والجو، واستشهد العديد منهم في الأمكنة التالية: الأغوار - باب الواد - بانياس - بستان الخوري - بئر العجم - تل أبي الريش - تل الدريجات - تل العزيزيات - تل النيرب - تل الودارة - جسر المخاضة - جبل الشيخ - حيفا - خسفين - خشنية - دمشق - سمخ - عدنانية - قطنا - قلقليا - القنيطرة - كعوش - لبنان - معضمية - منصورة - نابلس - نجمة الصبح[٣].

تهجير الشركس:

تم تهجير الشراكسة من وطنهم قفقاسيا في نهاية القرن الماضي إثر مؤامرة حيكت بالاتفاق بين قياصرة الروس والسلطان العثماني والإنكليز، كانت نتيجتها تشتيت الشراكسة في أماكن مختلفة ومتفرقة من العالم، حتى أن الأسرة الواحدة وزعت إلى أكثر من دولة. هؤلاء قسم منهم هجروا إلى البلاد العربية وخاصة إلى سورية الحبيبة وقالوا عنها هذه أرض مقدسة.

تشبه الشراكسة في البلاد العربية بالعرب وحالياً بالكاد تميز بينهم فلباسهم واحد وقد لبسوا الجلابية ووضعوا على رؤسهم الكوفية والعقال. وكما روى ابن

---

١ - ميرزا باشا وصفي كتاب وثائقي ص١١٨ ـ ١١٩ ـ ١٢١.

٢ - انظر كتاب السيف والتابوت.

٣ - دليل الأنساب الشركسية ص٥٠ إلى ٥٥ وأقوال أحد ا اهدين.

عمر رضي الله عنهما قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تشبه بقوم فهو منهم) وتكلموا باللغة العربية وأبدع البعض فيها حتى أصبح العديد منهم أعضاء في اتحاد الكتاب العرب. وبعد صدور قوانين الجنسية كانوا أوائل من تجنسوا بها، وأصبحوا في عداد العرب. وكما جاء في حديث ابن مسعود عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من كثر سواد قوم فهو منهم).

عاش الشركس جنباً إلى جنب مع السكان الأصليين بسلام ووئام وامتازوا بسرعة اندماجهم وعملوا بإخلاص مطلق وتفانٍ كبير في خدمة المصلحة الوطنية واشتهروا بإتقانهم العمل وشجاعتهم في القتال[1].

قدم الشركس إلى البلاد العربية ـ كما ذكرنا ـ بعد انتهاء الحرب القفقاسية الروسية القيصرية بالتحديد بعد عام ١٨٦٤م. وقدم إلى البلاد العربية بعد ذلك وافدون آخرون إثر قضاء الشيوعية على جمهورية شمال القفقاس وتطبيق النظام الشيوعي فيها بعد ثورة أكتوبر ـ تشرين الأول ـ ١٩١٧ ويذكر أيضاً لجوء آخرين إلى البلاد العربية لكن بعدد قليل إثر انتهاء الحرب الثانية حينما صدرت الأحكام العرفية زمن ستالين، وبدأ تشتيت العديد من أبناء القوميات غير الروسية فيها سواء من الشراكسة وغيرهم.

عصر السلاطين:

تألبت قوى أوروبا واتجهت إلى البلاد العربية وخاصة الساحل السوري ونشبت الحروب التي عرفت بالحروب الصليبية، فما كان من قواد المسلمين إلا الدفاع أمام حقهم، لقد قدم كثير من المسلمين غير العرب وكان بينهم شراكسة وأكراد وتركمان. وبعد أن سقطت الخلافة العباسية في بغداد أصبح سلاطين المماليك يحكمون بلاد الشام ومصر، وكان أغلب هؤلاء من الشراكسة سواء الدولة البحرية أو البرجية. فعاشوا مع العرب بسلام وحكموا بالعدل مع أنهم كانوا ينتمون إلى أقوام غير عربية، إلا أنهم بإقامتهم في أرض العروبة اعتبروا أنفسهم عرباً، بل حماة للعرب حتى كان من ألقاب سلاطينهم (سيد ملوك العرب)، وعدوا أنفسهم

[1] - الجولان أطماع العدو تاريخياً وبشرياً وجغرافياً واقتصادياً ص٩٦ ـ ٩٧.

مصريين، بل اكتسبوا من الروح المصرية لحياتهم الطوية على ضفاف النيل قبل وبعد قيام دولتهم، ... كانوا يتعلمون العربية ويتقنونها، حتى صار كبارهم وأمراؤهم، بل جمهرتهم يتكلمون العربية الفصحى ويتخاطبون بها. وكان السلطان الأشرف خليل يعقد المجالس الأدبية ومجالس الأدباء والشعراء، مع معرفته بصناعة الإنشاء، واشتهر كذلك السلطان جقمق بفصاحة اللسان بالعربية الفصحى البليغة، وكذلك جان بك (٨٦٨) هـ، وخايربك (٨٨٧) هـ، وحبيب العلاني الإينالي (٨٩٣) هـ، وكذلك السلطان قانصوه الغوري حيث كان يجيد العربية، إضافة إلى ست لغات أخرى وكان شديد الولع بعلومها وآدابها، وله فيها مشاركة كبيرة، كما كان يتذوق الشعر إلى ما شهر عنه من غرامه بقراءة السير والتواريخ وله مجالس عرفت باسمه عنوانها (مجالس الغوري) وهي مناظرات كانت تجري في مجلسه[1]، وكان الظاهر بيبرس مولعاً بالتاريخ[2]، وأهم ميزة تذكر عن ذلك العصر اعتمادهم على اللغة العربية لغة الدولة ومخاطبة الملوك والآخرين بالإضافة إلى الاعتناء بها و (كانت اللغة الرسمية في عهدهم...وكذلك دولتهم أرقى دولة في عصرها)[3].

قصة سرى كسا:

تجد في بعض الكتب بأن الشركس من الغساسنة[4]، فقد جاء (وكذلك يمر القارئ بمسائل ذات خطر في التاريخ والسياسة إذ ذاك كقول السلطان: الجركس من الغساسنة فهم عرب)[5]، ويذكر الكاتب أن ذلك ورد في كتاب (نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية لمؤلفه حسين بن محمود الحسيني.

سبب هذا المقولة ما قيل عن حكاية (سرى كسا) وخلاصة القول فيها أن أحد عظماء الشركس في زمن الفاروق رضي الله عنه أسلم وأثناء حجه ضرب مسلماً آخر

[1] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٦٩ ـ ٧٠ مصر والشام في عصر الأيـوبيين والمماليـك ص٢٩٣.

[2] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٩٣.

[3] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٧ طومان باي ص٤١.

[4] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٢٨ ـ ٢٩ مصر والشراكسة ص١٠٢.

[5] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص١٩٢ طومان باي ص٢٩.

فشكا الأخير ذلك لعمر فأمر بالقصاص، فطلب هذا العظيم التمهل للغد، وحينما رأى لابد من القصاص خرج ليلاً إلى بلاد الشام ثم إلى الشمال إلى بلاد القفقاس، وهذا الملك كان اسمه كسا ولأنه سرى ليلاً من مكة إلى الشمال فقيل في الصباح الثاني سرى كسا ومع الزمن سميت سركس أو الشراكسة.

الجدير بالذكر أن الشركسي غالباً ما يستعمل أسماء غير أسمائهم كألقاب، فمنهم من قال بأن كسا هو جبلة بن الايهم[1]، كما كتب في كتاب إيقاظ المؤرخين وهو ثلاثة أجزاء لمؤلفه المرحوم محمد علي بك بشحالوف.

يضاف أن جبلة من سلالة ماغان التي تنحدر من فرع آز التي تعتبر من أمراء الدرجة الأولى، ويطلق أحياناً ماغان كاس، وكاس كلمة انحرفت عن غسان[2].

قال آخرون أن المقصود بـ (كسا) ليس جبلة وإنما هو عكرمة بن ود العامري وهو الذي لم يقبل بحكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسرى ليلاً إلى الشمال[3]، ولكن أغلب الشراكسة ومفكريهم إن لم تقل جلهم لا يعتقدون بصحة مثل هذه التفاسير ويرون بأن ذلك ربما حدث زمن عصر المماليك لإظهار أن الشراكسة والعرب هم أمة واحدة لا تختلف أنسابها بوجه من الوجوه مع التأكد أن كتاب العرب يؤكدون هروب كسا دون ذكر تفصيل أو تدقيق بالأمر.

هناك من يرفض فكرة خروج قسم من العرب إلى بلاد الشركس زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويوضح أن خروج الشركس من العرب ـ إذا حدث ذلك ـ تم قبل البعثة، وقبل افتراق قبائل من العرب إلى أقطار الأرض، ويعتقد ذلك قبل ١٩٠٠ سنة[4]، كما يقول كاتب: (والأغرب من ذلك أن بعضاً من الأشخاص من عشيرة عنزة البدوية في سورية) كانوا يقولون للمهاجرين الشراكسة نحن وأنتم أقرباء

[1] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٢٧ ـ ٢٨ ـ ٤٨.

[2] - عاد وثمود ص١٠٣ إلى ١٠٥.

[3] - عاد وثمود ص١٠٦ موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص٤٩ فتوح الشام ج١ ص٦٤.

[4] - نور المقابس في تاريخ الجركس ص٧ ـ ١٠.

فنحن العنار ـ بشدة على النون ـ وأنتم المعاز ـ بشدة على العين ـ ولا أعلم من أين أتوا بهذه الفكرة)[1].

نسب الرسول(ص):

نعود أدراجنا إلى زمن أقدم، فهناك من يقول بأن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام أصلهم من الشركس فيعيدون نسب إبراهيم عليه السلام إلى سبعة جدود بأنهم من الشراكسة، ومما كتب عن ذلك (مكة التي كانت محتوية على مقام إبراهيم وكانت تحت سيطرة عشيرتي جرهم (دووز وروم) وإسماعيل (سميل) المنتمين إلى أشرف وأنبل قبيلة الأباظية الشركسية)[2].

استغربت الأمر فيما يتعلق بهذا الموضوع وخاصة بعد أن قرأت في كتاب آخر عن نسب السلطان الشركسي برقوق، وإليكم ما جاء جول نسبه، برقوق صاحب مصر أول ملوك الجراكسة بالديار المصرية ابن آنص الشركسي ابن تمر بغابن بليغا بن جها نكير بن رسم الكبير بن جها نشاه بن بيريداف بن يشبك بن أزبك بن إينال بن درويش بن ترخان بن قطلوق شاه ابن كسا بن عكرمة بن عمرو بن ود العامري ابن الحرث بن مزيد بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النظر بن كنانة بن خزيمة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان)[3]، كما يذكر أنه جاء السلطان برقوق من قبيلة كسا الجركسية[4].

استغربت الأمر أكثر وتذكرت بأنني شاهدت لوحة تحوي نسبب الأنبياء فعدت إليها وإلى نسب إسماعيل عليه السلام وإذ اللوحة مذكور فيها بأن محمد صلى الله عليه وسلم وإسماعيل عليه السلام من العرب المستعربة[5]، فقلت لابد من العودة إلى كتاب يحوي حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وسلم حول ذلك الموضوع، فوجدت

---

[1] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص٤٩.

[2] - عاد وثمود ص٥٦.

[3] - قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة ص٢٠ ـ ٢١.

[4] - قيام دولة المماليك الثانية ص٣٧ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٤٨ النجوم الزاهرة في ملـوك مصـر والقاهرة ج١١ ص١٨٣.

[5] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص١٦.

حديثاً طويلاً حول إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر، وكيف تركها إبراهيم عليه السلام عند البيت الحرام، وكيف ظهر نبع زمزم، وكيف (مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً. فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء...فنزلوا وأرسلوا على أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، حين شب فلما أدرك الحلم، زوجوه امرأة منهم...).

انظر إلى كلمة فتعلم العربية منهم، وقرأت في الحاشية حول ما ذكر عن جرهم (هو ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن راد فخشد بن سام بن نوح، وقال ابن إسحاق: (وكان جرهم وأخوه قطورا أول من تكلم العربية عند تبليل الألسن، كان رئيس جرهم مضاض بن عمرو قطوراً السميدع ويطلق على الجميع جرهم). وعدت أيضاً إلى ما جاء بالحاشية حول (وتعلم العربية منهم): وفيه إشعار بأن لسان أمه وأبيه لم يكن عربياً، وفيه تضعيف لقول من روى أنه أول من تكلم بالعربية، (إن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم، وأول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ثم إسماعيل)[1].

كون إسماعيل عليه السلام تعلم العربية فيما بعد أم لا. لا يعني أن يكون شركسياً، ولكن لفت انتباهي في تاريخ ابن كثير ثلاثة أمور:

جاء في تفسير ابن كثير في سورة الصافات: (فو الذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة حتى وحش يعني يبس)[2] ، وكذلك جاء في تاريخ ابن كثير (عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرها فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي. قال سفيان لم يزل

[1] - مختصر صحيح البخاري ص٤٨٣ ـ ٤٨٤ ـ ٤٨٦ ـ ٤٨٧.
[2] - تفسير القرآن العظيم ج٤ ص١٥.

قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا، وهكذا روي عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة، واسحق لا نعلم إن قدمها في حال صغره والله أعلم)[1].

صحيح أن الشراكسة من رموزهم وضع قرن في دورهم ويعلقونها في المضافات وغرف ضيوفهم وتجد منهم من يطلب ممن يزور القفقاس موطن الشراكسة أن يبتاع له قرناً ليحتفظ به في منزله.

لفت انتباهي في تاريخ ابن كثير (قوله وذلك أن رجلاً كان اسمه زردشت هو إبراهيم الزردشت أحد الأنبياء الذين ظهروا في وادي نهر الأرس بقفقازيا المشار إليهم في قوله تعالى: (وأصحاب الرس) فإن الرس تخفيف أرس...)[2].لاشك المقصود بقفقازيا هي القفقاس إذ لا يوجد في العالم مكان يشبه نفس التسمية لها. ولكن من هو إبراهيم أحد الأنبياء المقصود؟ هل ولد إسماعيل أم غيره؟ الله أعلم.

يذكر في بعض لوحات شجرة الأنبياء وشجرة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن نسب عدنان من الأديكه وربما هي محرفة مع الزمن عن الأديغة.

كلمة أديغي هي المقصود من هذه الفقرة فكلمة الشركس هي تسمية سماهم بها الآخرون. أما الشراكسة أنفسهم فيسمون أنفسهم باسم اديغي أو أديغة منذ القدم. وحينما يسأل شخص آخر يقول هل أنت أديغي؟ فيكون القصد بذلك هل أنت شركسي. فكلمة الأديغي هو الاسم القومي لهم.

هناك من يقول إن الشراكسة من سلالة العرب وأنهم من قبيلة قريش[3].

أعود وأقول حول نسب الشراكسة فيما إذا كانوا من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم فإني أتمنى أن يكون الشراكسة من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكني لا أعتقد ذلك، وإنما ما جاء في بعض الكتب للاطلاع، ليدقق من شاء في

---

[1] - البداية والنهاية ج١ ص١٥٩ تفسير القرآن العظيم ج٤ ص١٧.

[2] - البداية والنهاية ج٢ ص٤٤.

[3] - قفقاسيا ص٣٠.

الأمـر ولكـن يتضـح أن هنـاك محبـة مـن قبـل الشراكسـة للإسـلام وللعـرب فهـذا لا يمكـن أن ينكـره أحد.

جبل قاف:

عرفـت بـلاد القفقـاس قـديماً وسميـت بأسمـاء مختلفـة، وكـذلك جبـل القفقـاس حيـث يسـمى الشراكسـة أعلـى قممـه بجبـل الخـير طبعـاً بعـد ترجمـة الكلمـة إلى العربية وسماه بعض العرب وغيرهم بجبل قاف الذي أنبت الله تعالى منـه بـاقي الجبـال وجعلها أوتاداً لـلأرض كعروق الشجر[1].

كتـب أحـد المـؤرخين عـن جبـل قـاف (لقـد ذكـر القـرآن أسمـاء الـبلاد المقدسـة الخمسة وأولها وأفضلها بلاد القوقاز التي هي مهبط الأنبياء الأولين فقد قال عنهـا في الآية (**ق والقرآن المجيد**) وأردف بها اسم كتابه الكريم في معرض القسم (قـاف) في هذا القسم هي بلاد القوقاز باتفـاق أكثـر العلمـاء وأمـا البلـدان الأربعـة المقدسـة الـتي أقسـم بهـا تعـالى في القـرآن)[2] ، هـي: الشـام والقـدس والطـور ومكـة المكرمـة، ولا أعرف من هم العلماء الـذين اتفقـوا علـى أن (ق) تعـني جبـل قـاف ـ أي جبـل القفقـاس ـ ولم يذكـر الكاتب أسماء العلماء.

ذكـر عـن جبـل القفقـاس أنـه (هـو جبـل في بـلاد الجـركس بـين بحـر الخـزر (قزوين) والبحـر الأسـود[3]. وسمـي جبـل القفقـاس باسـم القـبج والقبجـق والقبجـاق[4]، وكلها لاسم واحـد ولكـن اختلفـت حسـب الكتـاب وحسـب نطـق الكلمـات وحسـب الترجمات.

لابـد مـن لفـت النظـر بـأن أمـاكن كـثيرة في بـلاد الشـركس بالقفقـاس سميـت بأسماء عربية وأذكر فقط منها في جمهورية قبردينا بلقار الشركسية (توجد منطقـة

1 - كتاب معم البلدان ا لمد الأول ص٢٢ وشمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص١٠.
2 - عاد وثمود ص٥٦.
3 - نور المقابس في تاريخ الجركس ص١٠.
4 - قفقاسيا ص٩.

اسمها الحسينية نسبة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب بالرغم من عدم وجود أي إنسان عربي فيها ولكن الحضارة العربية وصلتها لا القوات المسلحة)[1].

العرب البائدة:

إذا عدنا قهرياً أكثر فهناك من يقول بأن قوم عاد من الشراكسة، وأقاموا في بلاد القفقاس ثم انتقلوا إلى بلاد العرب. كما يذكر البعض بأن العمالقة هم من الشراكسة، ويذكر البعض بأن العرب البائدة يبلغ عدد قبائلها المشهورة تسعاً منها خمس هي: عاد وثمود وعمليق وعبيد (آبيد) وجرهم وبأنهم من الشراكسة الأقحاح[2].

إن الموضوع شائك، ولكن لكي لا أعود إلى موضوع أصل الشركس وعلاقتهم بالعرب سأذكر ما نقله كاتب غير عربي والكتاب طبع بالفرنسية وترجم إلى العربية مع التنبيه بأن الأبخاز هم فرع من الشراكسة. ويقول الكاتب (وهذه القرابة الأبخاز وسرماتية وميدية، يمكن أن تفسر لنا الأسطورة المذكورة أعلاه والتي تقول بأن الابخاز هم أحفاد شعب أبيض قديم يسكن الجزيرة العربية، وكان يدعى آباز أو أبازاع. وهناك في الجزيرة العربية وفي المنطقة التي يسميها العرب مادهيغ أو مادهيج أو مذحج كانت قبيلة تسمى أباسينوي وكانوا مجاورين للساباي (أي سبأ) وللحضرموت (الحضرميين) إن المقصود هنا دون شك هو شعب ميدي، وأن الأسطورة الأبخازية يمكن أن تكون مختلفة بذكرى عودة جزئية للأباسينوري إلى غرب القفقاس وإذ توغلت بعض القبائل الميدو - تراسية في سوريا وفلسطين والجزيرة العربية وحتى في إفريقيا الشمالية من الأزمنة القديمة أمر قد ثبت صحته الآن بأن الرجال ذوي القامة الطويلة، والشعر الأشقر والعيون الزرق، الذين نعرف أنهم كانوا يوجدون في تلك المناطق في العصور القديمة، وهم شهود على تلك الهجرات. ألم يكن معد يطلق على بعض القبائل العربية التي تنحدر بأصلها من شمال الجزيرة العربية

[1] - فلسطين والقرشاي ص٥.

[2] - عاد وثمود ص١٦ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ـ ١٠٩.

كما يقال؟ ألا تحدثنا الرواية نفسها عن الحروب المستمرة بين هؤلاء المعديين والقبائل اليمنية في العصر الجاهلي)[1].

في مكان آخر يكتب (يجب أن نضع الأسطورة الأبخازية بموازاة أسطورة أخرى كانت تربط النارتيين القفقاسيين بشعب يعود أصله هو أيضاً إلى الجزيرة العربية وإليكم ما يقوله المسعودي في ذلك: (بالقرب من سامساخايين تفليس وقصر الالان توجد مملكة السناريين حيث يلقب كل ملوكها باسم كوريسكوي مع أنهم كلهم أي الساساع والسنار مسيحيون ولكنهم يفتخرون بأنهم عرب من أحفاد نزار بن معد بن معز، عن طريق فخذ من فرع عقيل الذي استقر في هذه الأرجاء في زمن قديم، وهم الآن يمارسون سلطة كبيرة فيها. والذي يبدو أنه يؤكد هذا الزعم، هو أني قابلت في بلاد مأرب التابعة لليمن بعض المتحالفين من المذحجيين الذين يتشابهون بمقومات كيانهم مع إخوتهم في القفقاس في نقاط (عديدة) ويردد ذلك المؤلف العربي (أي المسعودي) بعد عدة صفحات ويقول: (إن السناريين يزعمون في روايات كثيرة مفصلة بأنهم قد انفصلوا في القديم عن العقيليين في مأرب)[2].

يقول المؤرخ شورانوغموقه وهو مؤرخ شركسي ولد عام ١٧٩٤م أنه ورد في التواريخ العربية أن رجلاً خرج من مدينة بابل وذهب إلى مصر ومنها انتقل إلى القفقاس واستوطن بلاد الشراكسة وتشركس، وصار منهم ومن أشرافهم ووصل إلى أعلى درجات النبل والإمارة ويعتبر أن الأمير ينال هو من القادمين من مصر وهو من أحفاد الحثيين الذين توطن نسلهم في مصر، حتى أصبح منهم أمراء حاكمين وعاد قسم منهم إلى بلاد القفقاس وحكم البعض أقساماً من بلاد الشركس بقفقاسيا[3].

[1] - أصل الشركس ص٩٢ ـ ٩٣.
[2] - أصل الشركس ص٩٣.
[3] - تاريخ القوقاز ص٨٧ ـ ١٧٨ قفقاسيا ص١١.

عصر السلاطين

ا ـ نبذة عن ولاة المسلمين:

آ . الخلفاء الراشدون:

بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه اجتمع الصحابة في سقيفة بني ساعدة، وبعض الأنصار وتشاوروا في أمر الخلافة، فقال بعضهم منا أمير ومنكم أمير، فقد أراد الأنصار أن يكون الخليفة منهم، ولكن حسم الأمر كله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومد يده يبايع أبا بكر الصديق رضي الله عنه[1]، والحجة التي قبلت لتقديم أبو بكر الصديق للخلافة بأن (الصلاة عماد الدين فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا[2].

قدم آخرون من الصحابة لخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عبد الله بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوة أنه رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم للآذان ولآن (الآذان مقدم على الإمامة حيث روى عن أبن عباس رضي الله عنه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علمني أو دلني على عمل يدخلني الجنة فقال كن مؤذناً، قال: لا استطيع، قال: كن إماماً قال: لا أستطيع، فقال: فقم بإزاء الإمام. رواه البخاري)[3].

رفض بالطبع بلال الحبشي، كيف بعد أن رفض أن يخلف الرسول الأنصار حيث قيل لهم: يجب أن يحكمهم قرشي، ورغم أن علي بن أبي طالب كرم الله وجه قرشي إلا أن الاختيار وقع على أبي بكر رضي الله عنه وتمت المبايعة الخاصة والعامة.

الخلفاء الراشدون على التوالي: أبو بكر الصديق وكانت مدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وتسعة أيام، وانتقل بعدها إلى جوار ربه فخلفه عمر بن الخطاب وحكم

---

[1] - فتوح الشام ص١٠٢ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٤٠.

[2] - إحياء علوم الدين ا لمد الأول ص٢٠٦.

[3] - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج١ ص١٧٤.

عشر سنوات وستة أشهر قتل بعدها من قبل فيروز ـ أبو لؤلؤة ـ غلام المغيرة بن شعبة، ثم استلم الخلافة عثمان بن عفان واستمر في الخلافة إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً. (ولما قتل أقام مطروحاً إلى الليل، فحمله رجل على باب ليدفنه، فتعرض له أناس ليمنعوه، فوجد قبراً لغيره فدفنه، صلى عليه جبير بن مطعم، وقتل وهو ابن ثمانيين سنة، ولما دفنوه غيروا قبره) ثم خلفه علي بن أبي طالب وبقي في الحكم أربع سنين وتسعة أشهر وقتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي ودفن ليلاً بالكوفة وغيب قبره، أما الحسن بن علي فخلع نفسه لمعاوية[1].

تجد أن الخلفاء الراشدين الأربعة ثلاثة منهم انتهوا قتلاً، أما أولهم فمات ميتة طبيعية رضي الله عنهم جميعاً فيكون المعدل الوسطي لفترة حكم الواحد منهم هو سبع سنين وأربعة أشهر.

ولاة مصر في عهد الخلفاء الراشدين بعد فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا خمسة وكلهم من العرب عزل ثلاثة منهم وقتل اثنان أحدهما قتل قبل استلامه الولاية بمصر فتكون مدة حكمهم منذ فتح مصر أربع سنين وخمسة أشهر وخمسة أيام فيكون الوسطي لكل والٍ سنتين وعشرة أشهر[2].

تجد لدى البعض قسوة فمثلاً آخر الولاة محمد بن أبي بكر الصديق قتله معاوية بن حديج، ودون الرد على عمر، وبعد أن قتله ألقاه في جيفة حمار ميت ثم أحرقه بالحمار، وقيل قطع رأسه، وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وهو أول رأس يطاف به[3].

ب ـ الخلفاء الأمويون:

نقل مركز الخلافة إلى دمشق كما أصبحت الخلافة وراثية ملكية. بلغ عدد ملوك بني أمية ١٤ رجلاً وبلغت أيام حكمهم بعد حذف أيام عبد الله بن الزبير ٨٣

---

[1] - الجوهر الثمين ج١ ص٣٣ ـ ٤٠ ـ ٥٢ ـ ٥٤ ـ ٥٦ ـ ٥٧ السيف المهند في سيرة الملك المؤيـد ص٤٣ إلى ٤٥.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١ ص٧٦ ـ ٧٩ ـ ٩٥ ـ ١٠٤ ـ ١٠٧.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١ ص١١٠.

سنة وأربعة أشهر ومجموعها ألف شهر كاملة فيكون متوسط حكم أحدهم حوالي خمس سنوات وثلاثة أشهر وأسبوع، وفاة عشرة منهم طبيعية وثلاثة منهم قتلاً وواحد خلع نفسه[1].

يذكر أن خلافة معاوية بن زيد بن معاوية دامت أربعين يوماً، وإبراهيم بن يزيد الناقص سبعين يوماً، وأخوه زيد بن الوليد خمسة أشهر وكانت مدة مروان بن الحكم تسعة أشهر وعشرة أيام[2].

أما ولاة مصر في خلافة الأمويين فبلغ عددهم ٢٢ والياً، اثنان منهم استلم الولاية مرتين، وواحد استلمها ثلاث مرات، أما عمرو بن العاص فكان والياً في عهد عمر بن الخطاب ثم عاد والياً في عهد معاوية بن أبي سفيان، وكل الولاة كانوا عرباً. واثنا عشر منهم عزل وواحد هرب وآخر استعفى وآخر خلع نفسه، باعتبار عمرو بن العاص ولي مصر للمرة الثانية عام ٣٨هـ، وآخر الولاة الأمويين بمصر هو عبد الله بن مروان بن موسى عام ١٣٠هـ، فيكون تقريباً وسطي حكم أحدهم حوالي ثلاث سنوات وشهر ويومين[3].

يذكر أنه بعد وفاة يزيد بن معاوية بأن الناس بايعت عبد الله بن الزبير في مكة وكان منهم أهل مصر، فبعث عبد الله بن الزبير والياً من قبله على مصر وهو عبد الرحمن بن جحدم سنة ٦٤هـ، حكم مدة تسعة أشهر فحاربه مروان بن الحكم ودخل الأخير مصر فعزل عبد الرحمن[4].

من أحداث هذا العصر وفي عام ٦١هـ خرج الحسين بن علي قاصداً الكوفة بعد أن بايعه الناس هناك (فتلقاه عسكر ابن زياد، فقتلوه بالطف (النجف) وقتلوا معه اثنين وسبعين رجلاً من أولاده وإخوته وبني عمه وأصحابه ومواليه، وسبوا حريمه، وبعث عبيد الله بن زياد السبي والحريم ورؤوس القتلى إلى عند يزيد بن معاوية،

---

[1] - الجوهر الثمين ج١ ص٧٣ إلى ١٠٩.

[2] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٣٢.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١ ص٧٥ إلى ٣١٦.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١ ص١٦٥.

وكان يزيد في دمشق، فردهم إلى المدينة وحمل رأس الحسين على رمح، وهو أول حمل في الإسلام.

(وفي أيامه خرج عبد الله بن الزبير بمكة، وفي سنة ثلاث وستين كانت وقعة الحرة، أخرج أهل المدينة واليهم عثمان ـ وهو ابن محمد بن أبي سفيان ـ فقتلوه، وأخرجوا جميع بني أمية فبعث يزيد الجنود مع مسلم بن عقبة المري، فقتل أكثر أهل المدينة من الصحابة جماعة... وأقاموا ينهبون المدينة ثلاثة أيام، وفيها سفك الدماء في حرم الله بمكة ورميت الكعبة بالنار في قتال ابن الزبير وفي سنة أربع وستين رميت الكعبة بالمنجنيق حتى انهدم جدارها، فبعد ذلك بأحد عشر يوماً مات يزيد)[1].

استلم الوليد بن عبد الملك عام ٨٦هـ، وهو الذي بنى جامع أمية في دمشق فكان نائب الوليد على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، ومما قيل عنه (أحصى من قتله الحجاج صبراً، سوى من قتله عساكره فكانوا مائة وعشرين ألفاً، ومات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون امرأة، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ولم يكن لسجنه سقف يسير الناس من الحر في الصيف أو المطر في الشتاء، وكان مرخماً بغير سقف، وله غير ذلك من أنواع العذاب)[2].

ج ـ الخلفاء العباسيون:

نقل مركز الخلافة إلى بغداد، وكان أول الخلفاء العباسيين عبد الله بن محمد السفاح الذي تولى الحكم يوم ١٤ ربيع الآخر ١٣٢هـ وآخرهم المستعصم بالله استسلم لهولاكو فقتله بعد أيام في محرم ـ وقيل في صفر ـ ٦٥٦هـ ـ شباط ١٢٥٨م[3]، وبلغ عدد الخلفاء العباسيين في بغداد تسعاً وثلاثين خليفة، فيكون متوسط حكم أحدهم تقريباً ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، مات منهم ١٨ ميتة ربه

---

[1] - الجوهر الثمين ج١ ص٧٨ ـ ٧٩.

[2] - الجوهر الثمين ج١ ص٨٨.

[3] - مصر في دولة المماليك البحرية ص١٧٩ والمماليك ص٢٥٤ ولاة دمشق في عصر المماليك ص٤٨ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص١٨٢.

وقتل منهم ستة، أحدهم أسر وقتل سراً، وخلع عن الخلافة خمسة، أحدهم خلع نفسه وهرب وواحد خلع نفسه واعتقل حتى مات وآخر خلع نفسه طائعاً، واثنان خلعا ثم قتلا، وقيل سمم خمسة من الخلفاء، وسملت أعين ثلاثة منهم، وكان أول خليفة سملت عيناه هو محمد القاهر، وواحد من الخلفاء حبس وآخر هرب خوفاً على نفسه تاركاً الخلافة[1].

أمور حدثت زمن الخلافة العباسية:

أنفق الخليفة علي المكتفي بالله في (حرب القرامطة الأموال العظيمة، حتى أبادهم وأستأصلهم، وكانوا عرباً خرجوا على الحجاج ونهبوهم وقتلوهم بمكة، ورموهم في بئر زمزم، اقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه إلى بلادهم[2].

في عام سبعة عشر وثلاثمائة للهجرة أقام الملعون أبو طاهر القرمطي في مكة إلى يوم التروية، فقتل الحجاج وهم محرمون حول البيت، وملأ بهم بئر زمزم، واقتلع الحجر الأسود وأخذه إلى هجر، ونهب البيت وأستاره وأبوابه، فيقال: إنه قتل بمكة قريباً من ثلاثين ألفاً، ولم يحج أحد في تلك السنة، ولا وقف بالجبل، ولم يبطل الحج في الإسلام غير تلك السنة)[3] ، وأعيد الحجر الأسود إلى مكانه أيام الخليفة الفضل المطيع لله في عام ٣٢٩هـ، وبعد أن بقي لدى القرامطة اثنين وعشرين عاماً)[4].

أسلم في عهد عبد الله القائم عام٤٣٥هـ ثلاثون ألفاً من الترك، وكان كبيرهم أرسلان اليساسيري فانتشر ذكره وعزم على نهب دار الخلافة فاستجار الخليفة بالسلطان طغرلبك بن ميكال بن سلجوق التركماني، فقدم للدفاع عن الخليفة وعند بغداد، فهرب أرسلان إلى الرحبة ومعه عدد كثير من الترك، فراسل صاحب مصر فأرسل الأخير له أموالاً لمقابلة الخليفة، فخرج السلطان طغرلبك لمواجهته، لكن خالف الطريق أرسلان وعاد إلى بغداد لمحاربة الخليفة، فاستجار الخليفة بالأمير العربي قريش بن بدران العقيلي، فأجاره لكن قريش كان مع أرسلان،

---

[1] - الجوهر الثمين ج١ ص١١٣ ـ ١٢٣ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠٠ العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٢.

[2] - الجوهر الثمين ج١ ص١٦٣ ـ ١٦٤.

[3] - الجوهر الثمين ج١ ص١٦٩.

[4] - الجوهر الثمين ج١ ص١٨٥.

فأخرج الخليفة من قصره إلى خيمة ونهب قصره ثم توجهوا بالخليفة حيث حبس هناك، وخطب للخلفاء العبيديين في بغداد تسعة أشهر مدة غيبة الخليفة عن بغداد وإلى أن عاد السلطان طغرلبك إلى بغداد وحررها، وأعاد الخلافة العباسية فيها وأرجع الخليفة إلى داره[1].

ولاة مصر في عصر الخلافة العباسية وإلى بداية الدولة الفاطمية في مصر بلغ ٨٣ والياً استلم أحد عشر منهم ولاية مصر مرتين وواحد استلمها ثلاث مرات وواحد استلم ولاية مصر أربع مرات. أما عن عنصر الولاة فمن العرب كان ٥٤ والياً والباقي أجانب منهم ١٣ تركياً و١١ من منطقة خراسان واثنان خزرجيان وواحد أرمني وآخر من سمرقند وآخر رومي. وكانت مدة الدعاء لبني العباس في مصر منذ ابتداء دولة بني العباس إلى أن قدم القائد جوهر المغربي وخطب باسم مولاه المعز معد العبيدي الفاطمي ٢٢٥ سنة)[2] ، فيكون وسطي حكم ولاة مصر المعينين من قبل الخلفاء العباسيين سنتين وثمانية أشهر ونصف تقريباً، مات بأجله ١٦ والياً وقتل منهم ستة، كما قتل منهم في الحرب اثنان، وطرد من الولاية ثلاثة، وهرب واحد وآخر استخلف غيره وترك الولاية، أما الباقون فكلهم عزلوا من الولاية.

د. الدولة الأيوبية:

كان صلاح الدين الأيوبي وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي من عام ٥٦٤هـ وفي نهاية ٥٦٧هـ خطب صلاح الدين جمعتين لبني العباس وأبطل اسم الفاطميين، مات بعدها العاضد، فتسلم صلاح الدين القصر بما فيه، واعتقل أقارب العاضد، ومنعوا من النساء لئلا يتناسلوا. وبعد أن مات نور الدين الشهيد بدمشق سار صلاح الدين إليها، وملك دمشق وبلاد الشام بعد أن سبق ملك مصر.

كان لصلاح الدين سبعة عشر ولداً ذكوراً وبنت واحدة، وعند موته قسم البلاد لأولاده وأعطى العزيز عثمان مصر[3].

---

[1] - الجوهر الثمين ج١ ص١٩٣ ـ ١٩٤.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١ ص٢٥.

[3] - الجوهر الثمين ج٢ ص١٣ ـ ١٦ ـ ـ ١٩.

كان الحكم عند الأيوبيين ملكياً والذي انتهى نهائياً بخلع الأشرف موسى وسجنه حتى مماته، ويكون وسطي حكم الفرد منهم تسع سنوات وعشرة أشهر وخمسة أيام تقريباً. خمسة من الملوك الأيوبيين توفوا وثلاثة خلعوا وواحد قتل[١].

أما عما قيل بأن الصالح أيوب أبعد الأكراد والعرب واستقدم عناصر من غيرهم، وأسكنهم في قلعة الروضة على نهر النيل، فكان السبب كما ذكره المقريزي حين مسك الصالح أيوب وسجن في الليلة التي زال عنه ملكه فيها، تفرق عنه الأكراد وغيرهم من العساكر حتى لم يثبت معه سوى مماليكه، رعى لهم ذلك فلما استولى على ملك مصر جلب العديد منهم، فصاروا بطانته المحيطين به[٢].

٢ ـ عهد السلاطين:

آ. جنسية السلاطين:

هناك من يقسم عصر السلاطين إلى دولتين سميت لدى البعض بالدولة البحرية[٣]، لكونهم سكنوا في قلعة الروضة، وتسمى قطعة الجزيرة[٤] على النيل[٥]، وهناك رأي آخر رأى فيه نوعاً من التجديد والرغبة في الخروج على المألوف. وقيل: إن التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يجلبون عن طريق البحر، ومن ثم سموا بالبحرية[٦]، والدولة الثانية البرجية أو الشركسية[٧].لكونهم سكنوا في قلعة الجبل ومنهم من قال اسم البرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلوا بها[٨]، ولكن

---

١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٣ ـ ٣٦٤ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٥٢ ـ ٦١ ـ ٧١.

٢ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٦٢.

٣ - السكة الإسلامية في مصر دولة المماليك الجركسية ص٤.

٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٣٢٠.

٥ - مصر في دولة المماليك البحرية ص١٤ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص١٦٧.

٦ - العصر المماليكي في مصر والشام ص١١.

٧ - السكة الإسلامية في مصر دولة المماليك الجركسية ص٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٣٣٠ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص١٦٧.

٨ - قيام دولة المماليك الثانية ص١٢ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٢٥٤ المماليك ص٧٥ مصر والشراكسة ص٣٥ ـ ٥٢.

الشيخ زاهد الكوثري يرى أن السلطان قلاوون سماهم بالبرجية باعتباره شركسي من قبيلة (برج) فنسبهم إليه[1] أما تسمية الدولة الأولى بالتركية والثانية بالشركسية ففيها مجانبة واضحة للحقيقة إذ توجد في الدولة الأولى شراكسة وغيرهم في الدولة الثانية شراكسة وغيرهم أيضاُ، وأوضح بأن الشركس تعني ويقصد بها سكان ما بين بحري قزوين والبحر الأسود في القفقاس الشمالي[2] وسلاطين الشراكسة على الأرجح وحسب استلامهم الحكم بعد حذف كلمة ملك أو سلطان هم:

١ ـ عصمة الدين شجرة الدر بنت عبد الله، أم خليل.

٢ ـ الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي والبندقداري الصالحي أبو الفتح.

٣ ـ السعيد ناصر الدين محمد ويسمى بركة خان أبو السعد بن الظاهر بيبرس.

٤ ـ العادل بدر الدين سلامش أبو الفتح بيبرس.

٥ ـ المنصور أبو المعالي سيف الدين قلاوون الصالحي النجمي الألفي، ويكتبها البعض قلاون وتكتب أيضاً قلاؤن[3].

٦ ـ الأشرف خليل بن قلاوون.

٧ ـ الناصر محمد أبو المعالي بن قلاوون.

٨ ـ المظفر ركن الدين بيبرس االجاشكيز أو الجاشنكيز المنصوري.

٩ ـ المنصور سيف الدين أبو بكر بن محمد بن الناصر محمد بن قلاوون.

١٠ ـ الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد.

١١ ـ الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد.

١٢ ـ الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد.

١٣ ـ الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد.

١٤ ـ المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد.

---

[1] - الوطن في أدب الشراكسة ص٣٥.

[2] - قفقاسيا ص٩.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٣٠٠.

١٥ ـ الناصر بدر الدين حسن بن الناصر محمد.

١٦ ـ الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد.

١٧ ـ المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي بن محمد قلاوون.

١٨ ـ الأشرف زين الدين شعبان أبو الجود بن حسين بن محمد قلاوون.

١٩ ـ المنصور علاء الدين أبو الفتح بن شعبان بن حسين بن محمد قلاوون.

٢٠ ـ الصالح زين الدين حاجي ويقال له أمير حاج أبو الجود بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون.

٢١ ـ الظاهر برقوق واسمه السابق الطنبغا ، فسماه أستاذه يلبغا الكبير برقوق أبو سعيد بن آنص اليلبغاوي الشركسي.

٢٢ ـ الناصر زين الدين فرج أبو السعادات بن برقوق بن آنص، وكان سماه أبوه بلغاق ثم سماه فرجاً.

٢٣ ـ المنصور عز الدين أبو العز بن برقوق بن آنص.

٢٤ ـ المؤيد سيف الدين شيخ المحمودي أبو النصر الظاهري الشركسي.

٢٥ ـ المظفر شهاب الدين أحمد أبو العز بن المؤيد شيخ.

٢٦ ـ الظاهر سيف الدين ططر أبو الفتح الظاهري الشركسي.

٢٧ ـ الصالح ناصر محمد أبو السعادات بن ططر.

٢٨ ـ الأشرف سيف الدين برسباي أبو النصر الدقماقي الظاهري الشركسي.

٢٩ ـ العزيز جمال الدين يوسف أبو المحاسن بن برسباي.

٣٠ ـ الظاهر سيف الدين جقمق أبو سعيد العلائي الظاهري الشركسي.

٣١ ـ المنصور فخر الدين عثمان أبو السعادات بن جقمق.

٣٢ ـ الأشرف سيف الدين بن إينال أبو العلائي الناصري الشركسي.

٣٣ ـ المؤيد شهاب الدين أحمد أبو الفتح بن إينال.

٣٤ ـ الظاهر سيف الدين بلباي أبو سعيد الإينالي المؤيد العلائي الشركسي.

٣٥ ـ الأشرف سيف الدين قايتباي أبو النصر المحمودي الظاهري الشركسي.

٣٦ ـ الناصر ناصر الدين محمد أبو السعادات بن محمد بن قايتباي..

٣٧ ـ الظاهر سيف الدين قانصوه أبو سعيد المحمودي الأشرفي القايتباي الشركسي

٣٨ ـ الأشرف سيف الدين جان بلاط وتكتب أيضاً جانبلاط أبو النصر الأشرفي الشركسي المعروف بالناظر.

٣٩ ـ العادل سيف الدين طومان باي أبو النصر الأشرفي الشركسي.

٤٠ ـ الأشرف سيف الدين قانصوه الغوري أبو النصر الأشرفي الشركسي المعروف بالغوري نسبة إلى طبقة الغور إحدى الطبقات التي كانت في مصر لتعني المؤدبين وقيل تعني الأمير المبارك.

٤١ ـ الأشرف طومان باي أخو الغوري.

أخر السلاطين كان طومان باي حيث قاتل العثمانيين في مصر مدة وقيل: (رأى طومان باي في نومه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا طومان أنت ضيفنا بعد ثلاثة أيام. فخلع آلة القتال وذهب إلى السلطان طائعاً مختاراً فشنقه[1]، وأبقاه في باب زويلة مشنوقاً ثلاثة أيام ثم دفن بمدفن الغوري المشهور، وبموت طومان باي انقضت دولة الجراكسة في مصر وعادت إلى نيابة كما كانت)[2].

نذكر من أحداث السلاطين المذكورين:

تمت الموافقة على أن تصبح شجرة الدر ملكة[3]، وهي أول ملكة في الإسلام وتم ذلك قبل ثماني سنوات من سقوط الخلافة العباسية في بغداد[4]، وذلك (لما يعلمون من أنها في زمن زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب هي التي تدير أمر المملكة وقضي حوائج الناس وتعلم على المناشير ـ أي المراسيم ـ والتواقيع[5]، وكان الملك الصالح يعتمد عليها في أموره وأعماله، كما ساست الناس على أحسن وجه

---

[1] - ولاة دمشق في عصر المماليك ص١١ من الموجز في تاريخ سورية ج٢ ص١٣٣.

[2] - فتوح الشام ج٢ ص٦٣ ـ ٦٤ الوطن في أدب الشراكسة ص155.

[3] - المماليك ص٤٦.

[4] - محاضرات في الأدب الملوكي والعثماني ص15.

[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٢ ص٤٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٣٣٣ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص١٧٢.

وجودة تدبير، لحسن سيرتها وغزير عقلها، ودعي لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة العباسي - كما كان في زمن عصر السلاطين - بقولهم: (واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمت الدنيا والدين أم خليل المستعصم صاحبة السلطان الملك الصالح)[١]، ونقش اسمها على الدراهم والدنانير، ولم يل مصر في الإسلام امرأة فأقامت المللكة ثلاثة أشهر وعزلت نفسها[٢]، وقيل ثمانين يوماً[٣].

- بعد انقضاء الخلافة العباسية في بغداد أحياها مرة ثانية في مصر السلطان الظاهر بيبرس فكان أول خليفة في مصر المستنصر بعد أن وصل إلى مصر عام تسعة وخمسين وسبعمائة بعد أن تم إثبات نسبته من القضاة فبايعه الخلافة وأجرى عليه نفقة، ولم يكن له من الأمر شيء سوى اسم الخليفة، ووراثة اللقب لأولاده من بعده، واستمر الأمر وكان آخر خليفة عباسي بل آخر خليفة للمسلمين هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب الملقب بالمتوكل، ولما دخلت القوات العثمانية على بلاد الشام ثم مصر أخذه معه السلطان سليم إلى تركية الحالية، وبعد أن توفى السلطان المذكور عاد الخليفة إلى مصر واستمر بها مقيماً إلى أن توفى في عام خمسين وتسعمائة وبموته انقطعت الخلافة إلى الآن[٤].

- قيل عن نهاية السلطان طومان باي غير ما ذكر سابقاً بأنه بعد أن دخلت قوات السلطان سليم مصر لم يتوقف عن القتال والدفاع عن مصر، ولكن ما دام الصلح أصلح لصون المسلمين، أرسل السلطان طومان باي إلى سليم كتاباً مع قاضي البهنسا يوضح فيه فيما إذا كان يريد المفاوضة على أن تكون الخطبة والسكة باسمه ويبقى هو نائباً، ويحمل إليه خراج مصر على أن يرحل عن مصر مع عساكره إلى الصالحية صوناً لدماء المسلمين، وأوضح له (إذا كنت لا تريد ذلك لاقني في الجيزة، ويعطي الله النصر لمن يشاء) ثم ذكر ما معه من قواد وأمراء وقوات و (رأى

---

[١] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٢ ص٣٧٣ - ٣٧٤ العصر المماليكي في مصر والشام ص١٨ مصر في دولة المماليك البحرية ص٢٠ الملك المظفر قطز ص٥ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص١٧٢.

[٢] - فتوح الشام ج٢ ص١٧٠ - ١٧٢ كتاب خطط الشام ج٢ ص١٠٧ من الموجز في تاريخ سورية ج٢ ص٦٠.

[٣] - البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٩ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص١٧٥.

[٤] - فتوح الشام ج٢ ص١٨٥ - ١٩٠.

السلطان سليم ألا يرفض الدخول في الصلح بحسب القواعد التي ذكرها طومان باي، وكتب صورة معاهدة إليه، ووقع عليها على أن يقوم الخليفة المتوكل والقضاة بحملها إلى طومان باي، ولكن الخليفة اعتذر وأناب عنه دواداره الخاص برد بك، فخرج الوفد ومعه مندوب عثماني على أنه حدث عند وصول الوفد إلى البهنسا أن هاجمه بعض الشراكسة وقتلوا المندوب العثماني وهرب برد بك. وربما اعتذار الخليفة من أحد أسباب عدم الصلح وربما ظن الخليفة في حينه عندما أعطاه سليم صلاحية صاحب الحل والعقد سيستمر بذلك. ثم نشبت الحروب من جديد قرب الجيزة هزم العثمانيون أولاً بفرقة، ولكن المعركة انتهت بنصر العثمانيين فاختفى السلطان طومان باي لثالث مرة خلال المعارك استعداداً لحرب أخرى على ما يبدو، وهذه المرة توجه السلطان طومان إلى الغربية لعند حسن بن مرعي وابن عمه شكري شيوخ غرب محارب، حيث كان ولاهم طومان باي على عربهم، وبعد أن أخرج حسن من الحبس المؤبد زمن المرحوم السلطان الغوري فالتقى بهم وأخذ العهود والمواثيق والأيمان المغلظة[1]، بأن يكونا معه ظاهراً وباطناً وبالقلب، وأن يكونوا هم على قلب رجل واحد. وشرح السلطان طومان باي بأن العدو في أثره، وأحضر مصحفاً وحلف حسن وابن عمه على القرآن ألا يخونا ولا يغدرا به ولا يدلا عليه بشي ولا لسبب من الأسباب، وحلفا على المصحف سبع مرات فاطمأن طومان . (وبعد أن اطمأن حسن بن مرعي على استقرار طومان باي ومن معه، خرج عنهم ليستطلع الأخبار، وقد حدثته نفسه بالخيانة، ويقال إن مجادلة حادة وقعت بينه وبين أمه في أمر الخيانة، وحذرته الأم من هذا العمل، وأخذت تذكره بما للسلطان طومان باي عليه من أياد بيضاء، وجهدت في نصحه فلم ينتصح، إنه كان يطمع في المكافأة وشجعه شكري ابن عمه بقوله: هل عاقل يبيع عاجله بأجله، لا تمل إلى الكفة الخاسرة فيحصل لك الخسران)، واستقر عزم حسن بن مرعي على الخيانة وأحاط

[1] - صور ومظالم من عصر المماليك ص٢١.

بعربانه الضيف. وأرسل إلى السلطان سليم بالخبر[1]، وبالطبع أمسك السلطان طومان وعاتبه سليم بمقتله رسله الذين أرسلهم للمفاوضة في الصلح لكن طومان دافع عن نفسه بشجاعة وهيبة ووقار، ونزاهة نفس، وأعرب بأنه لا بد من الدفاع من شرفه العسكري وشرف استقلال بلاده، وأعجب السلطان به وقال له: لو أطعتني أول مرة وجعلت السكة والخطبة باسمي لرجعت من حلب ولا دست أرضك. وكان جواب السلطان طومان له: (الأنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل، ... هل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا، وليس في عسكرك من يقايسني في حومة الميدان) فقرر سليم أن يضعه في الحجر، ولكن الأعداء أوغروا صدر سليم فأمر بشنقه يوم الاثنين ١٩ ربيع الأول ٩٢٣هـ الموافق نيسان ١٥٢٧م[2]، وسار طومان بحراسة ٤٠٠ جندي إلى أن وصل باب زويلة، ولم يهزم ولم يظهر عليه أي خوف أو اضطراب، وبقي رافع الرأس ويسلم على الناس طوال الطريق، وحينما أرخى له المشاعلي حبلاً هنا دعا السلطان طومان باي الناس الذين اجتمعوا حوله أن يقرؤوا له الفاتحة ثلاث مرات وبسط يده إلى السماء وقرأ الفاتحة عن نفسه في صوت مسموع وقرأ الناس معه، والتفت إلى المشاعلي وقال: اعمل شغلك، ولكن حبل المشنقة انقطع، وأعيد وضع الحبل حول رقبة السلطان طومان باي وسقط ميتاً المرة الثانية، وصرخ الناس صرخة مدوية تفيض حزناً وأسفاً، ودفن بعد ثلاثة أيام في حوش المدرسة التي بناها السلطان الغوري رحمهما الله[3].

اغلب المصادر تؤكد بأن السلطان المرحوم طومان باي تم شنقه كما ذكرنا ولكن هناك من يقول: إنه أعدم رمياً بالرصاص في ١٩ ربيع الأول ٩٢٣هـ[4].

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٠ مصر والشراكسة ص١٠٥ مصر والشام في عصر الأمويين والمماليك ص٢٨١.

[2] - مصر والشراكسة ص١٠٦.

[3] - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص١٩٢ ـ ١٩٨ طومان باي ص٧٦ إلى ١٧٨ العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٠٥ صور ومظالم من عصر المماليك ص٣٢ ـ ٣٣ مصر والشام في عصر الأمويين المماليك ص٢٨٢.

[4] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص١٨٢ ـ ١٨٣.

أعود إلى باقي السلاطين في الدولتين الأولى والثانية مع ذكر نسبه على الأرجح وحسب استلامهم الحكم:

١ ـ التركماني المعز أيبك الصالحي.

٢ ـ التركماني المنصور علي بن أيبك.

٣ ـ الخوارزمي المعر قطز المعزي.

٤ ـ التتاري العادل كتبغا المنصوري.

٥ ـ التركي المنصور لاجين المنصوري وقيل أصله من الشركس[1].

٦ ـ العربي الخليفة المستعين بالله العباسي بن محمد بن أبي بكر بن أحمد.

٧ ـ الرومي الظاهر خشقدم الناصري المؤيدي.

٨ ـ الرومي الظاهر تمر بغا الظاهري.

ب ـ نسب السلاطين:

نعت ونسب بعض السلاطين الشراكسة بالأتراك أو بأسماء أخرى لا بد من تبيان بعض الأمور حول ذلك فقد كان للملك الصالح ثلاثة قواد ذوي صولة وجولة، وهم أيبك التركماني وقطز الخوارزمي وبيبرس الشركسي [2]،وكان خلف بيبرس فارس الدين أقطاي والأمير سيف الدين قلاوون[3]، وكان كل من بيبرس والأميرين يدعمون شجرة الدر لكونها من الشراكسة مثلهم، ومما يدل على ذلك وحدتهم واختلافهم مع أيبك وقطز، وكان لابد من ظهور خلاف بعد موت الملك الصالح فسلطنت شجرة الدر لحسم أي خلاف بين القادة، ولكن لعدم قبول المسلمين بسلطانة عليهم، واعتراض الكثيرين ومنهم الخليفة العباسي[4]، ولكي لا يقع أي خلاف بالدولة الفتية تم زواج شجرة الدر بالمعز أيبك. (ولما جرى في المنصورة ما جرى أتفق الناس على أتابكية الأمير عز الدين التركماني الصالحي وأن يكون الرأي

---

[1] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٤٧ المماليك ص٧٠.

[2] - الوطن في أدب الشراكسة ص٤٤.

[3] - الوطن في أدب الشراكسة ص٤٤.

[4] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٠ مصر في دولة المماليك البحرية ص ٢٢ الملك المظفر قطز ص٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٩.

والتدبير لوالدة خليل - أي شجرة الدر - ولد الملك الصالح ، فداخلت الأمير عز الدين الطمع في المملكة) ثم صار يقدم جماعة خلف جماعة ولا يجسر إلا على إظهار التبعية مع أن الأمير فارس الدين أقطاي كان مخلصاً لأيبك ويمنع عنه كل معترض ومع ذلك كان أيبك يضمر الحقد لأقطاي وبيبرس وزملائهما ، وتم الاتفاق بين المعز والأمير سيف الدين قطز وجماعة من مماليكهما على قتل فارس الدين[١] ، وحينما طلب المعز الحضور من أقطاي ذهب معه بيبرس فلم يجسر أحد عليهما ، ولكن المكائد كانت مستمرة وحبائل المصائد تنصب ، فبعد أن خرج بيبرس وأقطاي أوضح بيبرس لرفيقه أن يكون حذراً ، وحينما أرسل أيبك لأقطاي مرة أخرى بحجة استشارته ، ومع تحذير بيبرس أبى إلا الرجوع فعاد إلى القاعة و دخل الأمير فارس الدين إلى قاعة العمد بالقلعة ، وقام منها إلى قاعة أخرى ، وإذا بالأمير سيف الدين قطز وقد ضربه بالسيف وهو غافل[٢] ،وأعانه بقية الجماعة ، وقتلوه غدراً في دهليز ضيق) وكان أن اقترح بيبرس على شجرة الدر وأقطاي وقلاوون الرحيل ، ولكن كما قال تعالى: (**لكل أجل كتاب**) وبعد مقتل أقطاي ، فما كان من بيبرس إلا الخروج مع من وافقه إلى الشام ، وبعد أن رفض أغلب خوشداشيته حيث انقسموا بآرائهم فمن قائل وخائف على أهله وأولاده وإقطاعه وملكه ومن يقول: (مالي ذنب أهرب منه) ولكن أيبك لم يتركهم فقتل وشرد الكثير منهم.

حينما وصل بيبرس مع رفاقه ومنهم قلاوون إلى الشام[٣] ، (تلقاه الملك الناصر صلاح الدين ابن الملك العزيز صاحب دمشق وحلب فأكرمه وأكرم من وصل معه

---

١ - الملك المظفر قطز ص١٠ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٩ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٤٦٧ تاريخ الملك الظاهر ص٢٦٨ المماليك ص٤٦ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٨ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٩٧ مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص١٧٨ - ٢٠٨.

٢ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٧٩ البداية والنهاية ج١٣ ص١٠١ العصر المماليكي في مصر والشام ص٤٥ الملك المظفر قطز ص٦٥.

٣ - خليل بن قلاوون ص٦ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٨ مدن الشام في مصر عصر الأيوبيين والمماليك ص١٨٢.

من الأمراء وخوشداشيته وتسلل الهاربون من البحرية إلى السلطان) أي بيبرس، وهذا يؤكد أن البحرية كان بينهم شراكسة وعددهم ليس بقليل.

استمرت الدسائس وراسل أيبك الملك الناصر وخوفه من بيبرس ورفاقه ففترت همة الملك الناصر تجاه بيبرس، وتغيرت عهود الملك الناصر وبما أن نابلس كانت إقطاعاً لبيبرس سابقاً فقد تكلم مع الملك الصالح بالخروج إليها مع جماعته (فأخذهم وتوجه إلى الكرك وبصحبته الأمير سيف الدين قلاوون الألفي وعز الدين أوغان الركني وغيرهما) فاستقر بيبرس في الكرك[1].

قتلت شجرة الدر أيبك[2] فقتلت هي الأخرى بعد أن سحقت كل جواهرها وذهبها لكي لا تقع في يد عدوها[3].

بعد موت أيبك ووصول قطز الحكم كانت معركة عين جالوت ، فراسل قطز عدوه السابق بيبرس للاتفاق معه على أن يقاتلا معاً عدو الإسلام، وقيل عكس ذلك بأن أحد أمراء دمشق التابع للأيوبيين واسمه زين الدين الحافظي أشار بالاستسلام لهولاكو والدخول في طاعته، عندما سمع زحف التتار في حلب، ولكن الأمير بيبرس لم يعجبه ذلك القول، فقام وصفع الأمير الحافظي على وجهه قائلاً له: (أنتم سبب هلاك المسلمين) ثم سار بيبرس ومعه الأمراء البحرية إلى غزة ومن هناك أرسل بيبرس إلى السلطان قطز يطلب توحيد الكلمة لمواجهة خطر التتار[4]، فاتفق بيبرس وقطز على القتال معاً لمصلحة البلد، وبعد الانتصار في المعركة لا حق بيبرس التتار إلى ما بعد حلب[5]، واصطحب قطز معه بيبرس متوجهين إلى مصر مع أنه قيل بأن قطز

---

1 - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٥١ إلى ٥٦.

2 - ولاة دمشق في عصر المماليك ص٥٩ مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص١٧٩.

3 - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٧ الملك المظفر قطز ص٢٢ ـ ٦٣ مصر والشراكسة ص٥١ من الموجز في تاريخ سورية ج٢ ص٦١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٣٧٨.

4 - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٣٢ العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٧ مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص١٨٤.

5 - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٢٠ ـ ٢٢١ ولاة دمشق في عصر المماليك ص٥٣ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٨٢.

كان قد وعد بيبرس بولاية حلب، ولكن على ما يبدو فقد غير قطز رأيه ولكن لم يصل مصر وإنما الذي دخلها وهي محتفلة بالنصر بيبرس الذي أصبح ملكاً وسلطاناً على مصر وبلاد الشام[1].

اختلفت الرواة في تحديد جنسية بيبرس فمنهم من قال بأنه من قبجاق[2]، وقيل من برج أغلي[3]. أما مرتفعات بلاد القبجاق فهي بين البحر الأسود وقزوين[4]، فقد ذكر أنه من القبجاق وقال البعض من الترك، وقال آخرون أنه شركسي من القوقاز[5].

كتب البعض بأن قلاوون تركي، وقيل من القبجاق[6]، وهناك كتابات تقول بأنه شركسي، كما جاء في تعليق للشيخ محمد زاهد الكوثري على أحد فصول كتابه (المزارات الإسلامية والآثار العربية) واعتبر قلاوون من قبيلة برج الشركسية[7]، وهناك من قال قلاوون من جنس القبجاق ومن قبيلة برج أغلي[8]، الجدير بالذكر أن السلطان قلاوون بعد تسلطنه استقدم العديد من الشراكسة، فقد أراد له طائفة منهم (تختصه بولائها ويرتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين، تختلف في أصولها عن الطوائف الأخرى القائمة)[9] ، فهو وزميله بيبرس أكد العديد بأنهما شركسيان[10]، وقيل بأنه من القبجاق.

---

[1] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٢٢.

[2] - المماليك ص٥٦ ققفاسيا ص٩.

[3] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد.

[4] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٢٧.

[5] - مصر والشراكسة ص٥٢.

[6] - المماليك ص٥٦ ققفاسيا ص٩ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٩٤.

[7] - الوطن في أدب الشراكسة ص٣٥ مصر والشراكسة ص٥٢.

[8] - خليل بن قلاوون ص٦ ـ ٩.

[9] - العصر المماليكي في مصر والشام ص١٤٢.

[10] - مجلة النشرة الثقافية العدد ٤آذار ١٩٩٠ ص١٦.

يسمى سكان شمال القفقاس القبجاق، كما سمو الجبل بجبل القبج[1]، ويقال عنه جبل قاف[2]، أما عن كلمة قبجق فهي كلمة شركسية معربة عن كيجك بمعنى النازح من سفح الجبل (وقال شيخ الربوة أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الدمشقي في كتابه (نخبة الدهر) :وأما القبجق فمساكنهم في جبال وغياض من وراء دربند وشيروان مما يلي بحر الروس، وكذلك سمي الناس بتلك الصحارى الواسعة في شمال الجبل وبين بحر الخزر ولأزق على نهري وولجا ودون (دمشت قبجق) أو صحراء الخزر[3].

يقال (لجبل القفقاس جبل القبق كما ذكره أبو الفداء في تقديم البلدان، وميدان القبق[4]، المعروف في مصر أحدثه الظاهر بيبرس، لتدريب الجيش المجلوب من القبق على الرمي، وسماه بهذا الاسم ليكون الجيش على ذكر منشئهم الأصلي، ومنشأ الأبطال عند تدريبهم على الرمي حتى ينشؤوا أبطالاً بكل معنى الكلمة لكي يتناسب جيشهم من حيث جبل القبق في البطولة)[5]. (بل توسعوا وأطلقوا لفظ (قبق) على كل أمير من القفقاس له جنود مدربة على الرمي. وقال صاحب كشف الظنون في جهانما (دليل العالم): للجركس أحد عشر قبقاً - والمراد بالقبق الأمير - فتمان، وتمرك، وجغاكا وهم حربيون كفار، وجانا كبير وجانا صغير، وبوزه دوق، وحاتوقاي، وبولتقاي، وبسني، وقبرطاي، وهم مسلمون)[6]، وهذه الأفخاذ والقبائل شركسية أصلية ما زالت موجودة إلى هذه الأيام وتوجد العديد من تلك القبائل في البلاد العربية.

---

[1] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص٢٤٩ ـ ٣٣٩ شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص١٠.

[2] - من الموجز في تاريخ سورية ج١ ص٢٧.

[3] - تاريخ القوقاز ص٦٦ شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص١٠.

[4] - المطبخ السلطاني ص٦٥ ـ ٦٦ تاريخ الملك الظاهر ص٢٠ المماليك ص١٠٨ إلى ١١٠.

[5] - تاريخ القوقاز ص٦٥ نظم دولة السلاطين ورسومهم في مصر ج٢ ص١٤٢ ـ ١٤٣ الروض الزاهر في سـيرة الملك الظاهر ص٤٢٤ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٣١.

[6] - تاريخ القوقاز ص٢٥٩.

حينما كان يود أحدهم الإقدام على الزواج لم يكن يقبل بالزواج إلا من جنسه، فمثلاً تزوج محمد (بركة خان) ابن السلطان بيبرس من بنت قلاوون[١]، كما كان قلاوون نفسه أرسل في طلب زوجة له من بلاده، وكذلك تزوج السلطان المؤيد شيخ ابنة الأمير إبراهيم من بنت السلطان الظاهر فرج[٢].

ينسب البعض شجرة الدر إلى الأتراك، ومنهم من قال إنها أرمنية[٣]، مع أنها شركسية[٤]، وسبب تلك العادة التي كانت في ذلك العصر فكان يذكر اسم الشخص باللقب أو ينسب على جماعة كان معهم أو إلى أستاذ كان له أو حتى إلى الأمكنة التي مر بها أو مكث فيها أو حتى إلى مذهبه أو عمله فيقال مثلاً: الطواشي صفي الدين جوهر التوازي الحبشي الخازنداري، ويقال الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله بن محمد الأدكوي ثم الفوي ثم يقال: الأمير الطواشي فيروز الرومي الجاركسي الساقي[٥]، واضح مما تقدم أن بعض الأشخاص لدى الكاتب الواحد يختلف ويتناقض أحياناً فما بالك بعشرات الكتب والكتاب واختلاف الأزمان والأهواء.

ج. نظام الحكم:

يوجد مثل لدى الشراكسة يقول: (إذا كنتما اثنين فليأتمر أحدكما بالآخر، وذلك لكي لا يقع أي خلاف، وعلى نطاق الجماعة أو على نطاق أي مجلس ولو مجلس سمر أو حفلة رقص، ويعين الشراكسة زعيماً أو حاكماً مصغراً لتلك الحفلة، ويتقيد الآخرون بأوامره ويستأذنونه في أي عمل يريدون القيام به، ضمن عادات وتقاليد تعرف بـ (أديغه خابزة) وينفذونها كقانون ودستور لهم[٦].

---

١ - تاريخ الملك الظاهر ص٢٠.

٢ - المطبخ السلطاني ص٦٠.

٣ - العصر المماليكي في مصر والشام ص١٧ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٩ الملك المظفر قطز ص٦.

٤ - مصر والشراكسة ص٥٠.

٥ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص٨٣ ـ ١١٣ ـ ١١٤ ـ ١٤٨.

٦ - الوطن في أدب الشراكسة ص٥٥.

على نطاق أكبر تكون المجالس العامة للقرية ولأي أمر طارئ يعين شخص للقيادة سواء بالإجماع العلني عليه أو ضمنياً، وإذا عدنا إلى أساطيرهم نجد تعداد المجالس فيها وأنواعها كما نجد تعداد الإله الذي يكون بمثابة القائد الأعلى لنوع من أنواع العمل فيسمى إله للحرب وإله للزراعة وإله للحيوانات وإله للحديد والتعدين وغيرها بالإضافة إلى وجود إله واحد للجميع كرب للأرباب.

لابد من هذا التمهيد لتوضيح كيفية حكم الشراكسة منذ القدم مع العلم أن الشراكسة لم يصلوا في تاريخهم القريب المعروف بوضوح إلى درجة إنشاء دولة واحدة لكافة أنحاء بلادهم وأقطارهم، بل كان لكل جهة أمير وهذا الأمير يرتبط بأمير الأمراء الذي يجمع عليه بمجلس عام بحضور أعضاء من كل طرف وجماعة وكمثال تجد الأمير (بلوتوقة) حيث كان النظام عندهم نظام (الإمارات المتحدة) ويستعمل البعض عبارة الحكومات المتحدة، وهذه الإمارات كانت لها صفة خاصة لا بالجمهوريات المحصنة ولا بالإدارة المطلقة، فكل أمير يحكم إمارته لوحده وحسب ما تعارفوا عليه في عاداتهم وتقاليدهم وهؤلاء الأمراء يكونون خاضعين لأمير الأمراء أو الأمير الكبير، وهذا الأخير يتم انتخابه بشكل ديمقراطي[1]، وبالطبع حتى يصبح أي أمير حاكماً يتولى الرئاسة أو الإمارة يجب أن يتصف بصفات عديدة منها (أن يكون متصفاً بالعقل الراجح والفكر الثاقب، شجاعاً مقداماً لا يهاب الكوارث، متمسكاً بالتقاليد القومية، محافظاً عليها عاملاً على تنفيذها ورعايتها، فإذا توفرت هذه المزايا في الأمير المرغوب تنصيبه ينتخب بالإجماع رئيساً وحاكماً على القبيلة مدى الحياة وتسند إليه القيادة العامة في الحروب)[2].

يشارك الأمير في الأمور الهامة مجلس أعيان أو مجلس قومي أعلى هذا المجلس من أولى مهامه انتخاب الأمير الحاكم وإعلان الحروب ومحاكمة الأمراء (أي الوزراء) وهذا المجلس يكون عادة من العلماء والنبلاء والقادة ويكون أعضاء المجلس الأعلى بعدد الدوائر المتآلفة بحيث يكون لكل منطقة أو دائرة مندوب

---

[1] - تاريخ القوقاز ص١٨٤.

[2] - تاريخ القوقاز ص١٨٥.

منتخب عنها لتمثيلها، وبالطبع في أول اجتماع للمجلس ينتخب رئيساً للمجلس وأعضاؤه يكونون تحت راية أمير الأمراء، وهؤلاء الأمراء وأعضاء المجلس لهم مكانة خاصة، فمثلاً إذا مر أي فارس من دار الإمارة أو الحكم يترجل عن فرسه. في حال مخاطبة الأمير يضاف إلى اسمه نعت يتصف بالتعظيم والتبجيل)[1].

يتضح إذاً (أن كل جهة تنتخب أميراً لها ومجموع الأمراء ينتخبون أميراً عاماً لهم، وإذا عدنا إلى عصر السلاطين سنجد أن الأمير كان على شاكلة ما ذكر، فكان هناك أمراء مختلفون عديدون يتبعهم أناس آخرون، هؤلاء تابعون لأمير معين، وفي حال انتخاب أمير الأمراء (السلطان) كما تسمى في عصر السلاطين يكون انتخابه من قبل مجلس الأمراء فيعين ويصبح هو الحاكم العام للبلاد في مصر والشام وما يتبعهما من البلدان، وباعتبارهم غريبين عن العنصر العربي فكان يجب ولو شكلياً أن يوافق الخليفة على ذلك التعيين، فالحكم كان ديمقراطياً بينهم ويتضح أن حكمهم كان حكم المجالس، كما كان الشراكسة في بلادهم القفقاس قديماً. (إن مفاهيم الديمقراطية ومجالس الشيوخ ومجالس الشباب ومبادئ الانتخاب والحرية مفاهيم باقية بوضوح شديد عند شعوب القفقاس الشمالي، وتفسر لنا النزعة الاستقلالية وشدة التمسك بالحرية الفردية، ولم يتمكن المؤرخون من فهم طبيعة هذه الشعوب مما جعلهم يصفونها بكثرة المنازعات على السلطة في دويلات المدن الديمقراطية، وحتى العصور الحديثة لدى السلاطين الشراكسة في مصر وكل ما في الأمر أنهم كانوا يأنفون من تولية ولي عهد صغير السن فيبقونه فترة احتراماً لذكرى والده ويعزلونه بعد ذلك ليولوا من بينهم من هو جدير بالرئاسة، ويلعب عامل السن دوراً في هذه المجتمعات بحسب عاداتهم وتقاليدهم المتوارثة ولو كانت الديمقراطية والتعلق الشديد بالحرية الشخصية من نقاط ضعفهم في تاريخهم السياسي)[2].

[1] - تاريخ القوقاز ص١٨٧ ـ ١٨٨ ـ ١٩١.

[2] - الشركس في فجر التاريخ ص٩٢ العصر المماليكي في مصر والشام ص١٠٥.

كان الشراكسة لا يمزجون (السياسة بالدين ولا يختلفون عن أهالي البلاد المفتوحة إلا بتعميم الإنسانية بسرعة فائقة وجعلها قانوناً مدنياً عاماً، وهكذا كانت حالة الشراكسة قبل التاريخ وبعده، ولأنهم قد اعتمدوا على القوة لنشر المدنية وفتح جميع البلاد بواسطة جيوشهم المنظمة ووضعوا لخطتهم القوانين الاجتماعية التي لا تزال أحكامها جارية إلى اليوم)[1].

لنعد إلى عصر السلاطين حيث كان اختيارهم يتم من قبل الأمراء كما ذكرنا، وكان الخليفة فقط يوقع ويوافق على ما اختاروه بل السلطان أحياناً كان يعزل الخليفة أو يعاقبه، وهذا يعني أن سلطنة الخليفة كانت شكلية، ويعطى له منصب ولقب، ويعطى له راتب بالإضافة إلى المهام الشكلية والتكميلية فيخرج مع السلاطين في الحروب مثلاً، ويمكن القول عن الخليفة حاكم بدون سلطة[2]، أي اسمية تماماً مثل ملكة بريطانيا حالياً أو رئيس الهند، ولتأكيد ذلك نذكر ما جاء في كتاب نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية (فيصف إحياء السلطان المولد النبوي، ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا، وما فعلوا في الحفل، ويبين عدا هذا كيف يجلس السلطان ليلاً وكيف يتقدم إلى كبار الدولة ينشد كل منهم شعراً في مدحه، وكيف يقابلهم السلطان، وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمسك بالله خليفة مصر تقدم (وباس الأرض كفرض العين وعين الفرض) وأنشد:

إن الخلافة ثوب خصصت به ... إذا لبست فلم يفضل ولم يميز
ما أودع الله في أحداقنا بصراً ... إلا لنفرق بين الدر والخرز[3]

إن توضيح كيفية الحكم في عصر السلاطين يحتاج أكثر من مجلد فنظام السلاطين فريد من نوعه يرتبط بأمور مختلفة، ولكن لا ضرر من توضيح الجوانب عما قيل عنهم ولنتذكر معاً مهما كان الحاكم منصفاً ستجد من يدعي ويقول انه

---

[1] - عاد وثمود ص٥٩.

[2] - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٨٣ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص١٧ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٩٢.

[3] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص١٩٢.

غير منصف، وهذا ليس في عصر السلاطين بل في كافة الأزمان ما قبل ذلك العصر وبعده، وليس الأمر متعلقاً بعدالة الحاكم أو بصحة حكمه أو كيفية الحكم بل الخلاف غالباً يتعلق بالمال فحينما اجتمع ولاة الأمصار في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه في المدينة عنده تكلم والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز: (وقال يا أمير المؤمنين إنه ليس يرضي الناس عنك إلا ما أسخطهم عليك، فإن الناس إنما نقموا عليك لأجل هذا المال، فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك، ولا يشكوك أحد بعد ذلك). ولا يستغرب الأمر ففي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم تجد بأنه نهض شخص ومد يده ممسكاً قميصه قائلاً له: لم تنصف حين وزعت الغنائم على الناس، فهل يعقل ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم؟ هل يعاب على عثمان أن يكون غنياً، وهل يعاب على السلاطين غناهم وأن تكون لديهم الأموال مع التذكير بأن السلاطين وأمراءهم هم الذين كانوا يخوضون المعارك بأنفسهم مع أعداء الإسلام، ومعلوم حسب الشريعة الإسلامية للمقاتلين أربعة أخماس الغنائم. فطالما كان العدو من التتار أو الصليبيين يريدون القضاء على البلاد العربية المسلمة فهل كان يريد البعض أن يتوقفوا لكي لا يصبحوا أغنياء، وكان الله ينصرهم في معظم الحروب وتأتي الغنائم، ألا تجد في كتب التاريخ أن الأمراء والسلاطين بنوا المساجد والمدارس والمنشآت مثل السدود والأقنية والطرق، ويذكر التاريخ كيف يدفعون الأموال بل يفتحون أمكنة للمحتاجين، ولا ينكر الرخاء الذي عم في عصر السلاطين.

د- السلاطين الشراكسة:

ذكرت كيف كان الأمراء يجتمعون لاختيار احدهم، والأوفر حظاً يكون من ذوي الكفاءة والمقدرة، أو الأكثر سناً في بعض الأحيان[1]، وبعد الاتفاق على أحدهم سلطاناً لهم، وقد يرفض المنتخب المنصب كالأمير أزبك، وهو من أشهر الأمراء وأرفعهم مقاماً، وحلف بالطلاق ثلاثاً ألا يتسلطن، وإزاء الإصرار الحاسم

---

[1] - قيام دولة المماليك الثانية ص١١٠.

سلطن الأمراء غيره[١]، وفي حال اتفاق الأمراء وقبل المنتخب وبرضا تتم البيعة له من قبل الأمراء ثم يبايعه باقي فئات الشعب ممثلين بالخليفة والقضاة وغيرهم.

كان السلطان المنتخب من الأمراء، لا يعين لفترة محددة من الزمن وإنما يبقى حاكماً طالما يقوم بواجبه خير قيام وهو نظام فريد لا هو بالجمهورية يحدد له فترة ولاية، ولا هو بالملكية بحيث يصبح بعده ولده مالكاً ، وفي حال انتقال السلطان إلى رحمة الله تعالى يعين آخر، أو في حال خلع السلطان لسبب ما أيضاً يعين آخر بنفس الطريقة، ولكن كما هي الحكومات الحالية كان خلال الفترة الانتقالية يعين آخر مؤقتاً وقد يكون ابنه وهذه العادة في حال وفاة السلطان وفي حال كون الابن صغيراً[٢]، يعين معه كفيل لتسيير الأمور بالشكل الصحيح. وفي حال خلع السلطان أيضاً يعين سلطان مؤقت وغالباً يكون ممن ليس له طموح في السلطنة، وأحياناً يعين هذا المؤقت من غير عنصر السلاطين ـ أقصد العنصر الشركسي ـ فيعين تتاري أو تركي أو رومي وذات مرة عين الخليفة العربي سلطاناً كفترة انتقالية.وقد يخضع السلطان في حال إقدامه على عمل مخالف حسب نظام حكمهم فقد كان الشركس مثلاً يعطون أهمية لكبير السن[٣]، وكان يعتبر مخلاً بنظامهم ومفهومهم وعاداتهم أن يترأسهم صغير السن، والأمر غير مستغرب لمن يعرف عاداتهم ونفسياتهم[٤] ، فمثلاً إذا كان السلطان صغير السن فلا تسمح عاداتهم بالتكلم بحضور كبار السن وذلك حسب عاداتهم وتقاليدهم في احترام الأكبر سناً[٥]، وكذلك الأخ الأصغر لا يحق له التكلم بوجود الأخ الأكبر، ولا الدخول للمجالس العامة. وهذا كان دأبهم ليس في القديم ولا في عصر السلاطين فحسب بل

---

١ - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص٤٤ ـ ٤٥.

٢ - نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج١ ص٢٧ العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٨ ـ ١٠٥ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٩٢ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٥٣ مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص١٨١ ـ ٣٩٩.

٣ - مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص٢٤٧.

٤ - المماليك ص٢٣٦.

٥ - مصر والشراكسة ص٨.

حتى في الوقت الحاضر وللتوضيح أذكر حديثاً ذكره صحفي عربي رافقه شيشاني في زيارة لجمهورية الشيشان بعد إعلان استقلالهم من طرف واحد وزار كبار المسؤولين فيها ومن جملتهم الرئيس الشيشاني الراحل جوهر دوداييف حيث كان الصحفي مع جمع آخر في صالة الطعام كان فيها ميرزا بيك دوداييف أخ الرئيس جوهر وحيث ذكر ملاحظته بعدم دخول الرئيس إلى القاعة مع وجود أخيه الأكبر (لو أن أخ الرئيس لم يغادر المكان لما تمكن الرئيس جوهر دوداييف من الجلوس على مائدة الطعام أو التحدث معنا إذ أن التقاليد الشيشانية في هذه الحالة تفرض على الرئيس أن يقف قرب الباب ليخدم علينا فقط فهذه هي مهمات الأصغر سناً بوجود من هم أكبر سناً منهم)[1].

إذا عدنا إلى عهد السلطان برقوق حينما (وصل والده أنس (أنص) إلى مصر فقد أجلس في صدر المخيم، وقعد الأمير اقتمر عبد الغني النائب من جانب، والأمير أيدمر الشمسي من جانب آخر، وجلس برقوق تحت أيدمر وهو يوم ذاك مرشح للسلطنة، فانظر إلى تلك الآداب والقواعد السالفة. ولما استقر بهم الجلوس أخذ آنص يخاطب برقوقاً ولده باسمه من غير تحشم كما يخاطب الوالد ولده على قاعدة الجراكسة)[2].

يتضح لك سبب تغيير الابن في حال وفاة الأب السلطان أو في حال وضع سلطان مؤقت، ليس الأمر كما اعتقد أغلب الكتاب بأن السبب هو المنافسة على السلطنة، كما ذكرت فالسلطنة ليست وراثية[3]، وهذا ما يؤكده أغلب الكتاب، وأكدته الوقائع بالإضافة إلى أن السلطان يختار من قبل الأمراء وليس هو من يرشح نفسه ويراعى كبر السن[4]، وغالباً حينما يعين البعض يطلب إعفاءه كما فعل

[1] - مقالة تحت عنوان (الشيشان تفاؤل وقلق ص٢٣ ـ ٢٥.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١١ ص١٨٣ ـ ٢٢٥.

[3] - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص٢٣٢ نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج١ ص٢٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٢٥٣ ـ ٣٥٥ مصر والشام في عصر الأيوبيين المماليك ص٢٠٥ ـ ٢٤٧.

[4] - المماليك ص٢٣٦.

بيبرس الجاشنكير[1]، وقايتباي والغوري وغيرهم[2]، وقد يصر الأمراء على السلطان المنتخب.

سأذكر السلاطين بالشكل التالي لسهولة البحوث التالية المتعلقة بالحروب والبلدان التي حرروها وفتحوها وما بها من العمران وخاصة المساجد والمدارس ذات الجمالية والإبداع الفني والعمراني الرائع:

١ ـ شجرة الدر.

٢ ـ الظاهر بيبرس وابنه بركة خان بن بيبرس وسلامش بن بيبرس.

٣ ـ المنصور قلاوون وابنه خليل بن قلاوون ومحمد بن قلاوون للمرة الأولى والثانية.

٤ ـ المظفر بيبرس الجاشنكير.

٥ ـ أحفاد قلاوون وهم: أبو بكر بن محمد بن قلاوون، وكجك بن محمد بن قلاوون، وأحمد بن قلاوون، وإسماعيل بن محمد بن قلاوون، وشعبان بن محمد بن قلاوون، وحاجي بن محمد قلاوون للمرة الأولى والثانية، وصالح بن محمد بن قلاوون، وصلاح الدين محمد بن سيف الدين حاجي، ثم شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون، ثم صلاح الدين بن حاجي بن شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون للمرة الأولى والثانية.

٦ ـ الظاهر برقوق للمرة الأولى والثانية وفرج (بلغاك) بن برقوق للمرة الأولى والثانية وعبد العزيز بن برقوق.

٧ ـ المؤيد المحمودي وابنه أحمد بن شيخ.

٨ ـ الظاهر ططر (تاتار) وابنه محمد بن ططر.

٩ ـ الأشرف برسباي (باسرباي) وابنه يوسف بن برسباي.

١٠ ـ الظاهر جقمق وابنه عثمان بن برقوق.

١١ ـ الأشرف إينال وابنه أحمد بن إينال.

---

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٨ ص٢٣٤ ـ ٢٣٦.

[2] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٩٤.

١٢ ـ الظاهر بلباي بن قلطاي.

١٣ ـ الأشرف قايتباي وابنه محمد بن قايتباي.

١٤ ـ الظاهر قانصوه (قانصاو) الأول المحمودي.

١٥ ـ الأشرف جنبلاط.

١٦ ـ العادل طومان باي (طمانباي).

١٧ ـ الأشرف قانصوه الغوري.

١٨ ـ الأشرف طومان باي (طمانباي).

حروب السلاطين

لقد حارب السلاطين وجاهدوا في سبيل الله ضد أعداء بلاد الشام ومصر خاصة والدولة الإسلامية بشكل عام فقد (أظهروا آيات البطولة وضروب الحيل في الدفاع عن الوطن العربي ضد الأخطار الكبرى التي هددته من جانب التتار والصليبيين)[١].وردوا كافة الغزاة عن تلك الأراضي، ولقد نجحوا في توطيد مراكزهم (وإظهارهم أمام العالم الإسلامي أجمع في صورة (داوية الإسلام) وفرسانه الذائدين عنه)[٢] ، والمعروف عن دولتهم أنها قامت بالأساس حربية[٣]، وقلما كانت الحروب تتوقف ولاعتقادهم وإيمانهم بالإسلام، ولما للجهاد من مكانة فقد روي (عن معاذ بن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن امرأة أتته فقالت: يا رسول الله انطلق زوجي غازياً، وكنت أقتدي بصلاته إذا صلى وبفعله كله فأخبرني بعمل يبلغني عمله حتى يرجع، قال لها: أتستطيعين أن تقومي ولا تقعدي، وتصومي ولا تفطري، وتذكري الله تعالى ولا تفتري، حتى يرجع؟ فقالت: ما أطيق هذا يا رسول الله فقال: والذي نفسي بيده لو أطقته ما بلغت العشور[٤] من عمله) رواه أحمد[٥].

الجدير بالذكر أنه لم يحصل أن بدأ السلاطين بالقتال ضد جيرانهم، بل كانوا مسالمين يدافعون عن الأرض والدين في حال حدوث أي اعتداء مع استعدادهم للقاء أي عدو. وبالإضافة إلى الحديث السابق، الذي سأسرده لاحقاً فهموا معنى الجهاد فقد ذكر (عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله صلى

---

١ - الحيل في حروب المماليك ص ٣٥ صور ومظالم من عصر المماليك ص٤ الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص٣٦٤.

٢ - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص٦٠.

٣ - الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص٣٦٤ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٠٢.

٤ - العشور: جمع عشر، هو الواحد من عشرة أجزاء.

٥ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج٢ ص٢٩٤.

الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال: اللهم منزل الكتاب[1]، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب[2]، أهزمهم وانصرنا عليهم) متفق عليه[3].

كتب شمس الدين سامي بك في دائرة معارفه (قاموس الأعلام) المطبوعة في الأستانة ما ترجمته (أن الشراكسة قد احتفظوا بأديانهم وحرياتهم أمام الجيوش الكبرى التي اكتسحت جميع العالم والتي لم يقدر غيرهم على الوقوف أمام سيلها الجارف)[4].

نعم كسر السلاطين شوكة الصليبيين والتتار والمغول[5]، وأعوانهم في أرمينية والأناضول وعم الهدوء والسلام والأمن في عصرهم، وحطموا المقولة القائلة بأنهم لا يغلبون، وتسلم السلاطين في مصر العالم ليس العربي فحسب بل العالم الإسلامي بأكمله وأصبح كيان المسلمين كبيراً[6]، وأصبحت دولتهم واسعة الأرجاء فكانت دولة عظمى وإمبراطورية كبرى وامتدت ليس في مصر وبلاد الشام فحسب بل خطب مثلاً للسلطان برقوق في الموصل وشمال العراق، وكانت تحت سلطتهم آسيا الصغرى شمالاً وجزيرة قبرص وكانت كذلك تخضع لهم بلاد الحجاز واليمن وبلاد النوبة وشمال السودان إلى حدود الحبشة وإلى مجاهل إفريقية وبرقة وجهات سواكن

---

[1] - م ل الكتاب: أي القرآن.

[2] - هازم الأحزاب: أي في غزوة الخندق.

[3] - رياض الصالحين ص٣٩٦.

[4] - عاد وثمود ص٢٦.

[5] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٦ ـ ١٥.

[6] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص١٨ ـ ١٩ مدن الشام في العصر المملوكي ص٢٧ طومان باي ص١١٢ محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص٤.

وجزائرها، وكانوا يطلبون رضاهم في الهند وسواحل المحيط الهندي والخليج العربي[1].

قوة السلاطين الموجهة إلى الأعداء كانت تنتهي بمجرد إسلام عدوهم وتجد ذلك واضحاً في رسالة جوابية من السلطان المنصور قلاوون للسلطان المغولي بعد أن أعلن إسلامه فكتب له (فإن الله والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة، وجهادنا إنما هو على الحقيقة لله وحيث دخل معنا في الدين هذا الدخول فقد ذهبت الأحقاد وزالت الدخول)[2].

خاض السلاطين وأمراؤهم حروباً ضروساً كثيرة خلال فترة حكمهم (وجرت عادة الدولة المملوكية الدخول في معركة من المعارك أن يعقد مجلس الجيش ويرأسه السلطان وعضوية أتابك العساكر والخليفة وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين الذين بلغ عددهم أربعة وعشرين أميراً، وكان الغرض من عقد هذه المجالس الاستفادة بآراء كبار الدولة قبل الإقدام على حرب من الحروب وجعل إعلان الحرب أمراً مشروعاً)[3]، وسأذكر بعض البلاد والقلاع التي تم فتحها من قبل السلاطين الشراكسة على سبيل المثال والتذكير:

١ ـ الظاهر بيبرس:

فتح قلعة البيرة والكرك والشوبك، وكانت وقعة البلستين، وفتح أرسوف وقلعة الهوى، وجهز عسكره إلى ساحل طرابلس الشام ففتحوا القليعات وعرقا ونزل هو إلى صفد ففتحها بعون الله، وأخذ إياس، وفتح شقيف أرنوق، وفتحت يافا وأنطاكية وبغراس، وفتح حصن الإسماعيلية وحصن الأكراد وقلعة الحصن، وتملك حصن عكا وكينول ومدينتها، وأدنة والمعيصة، وفتحت صلحاً قلعة المرقب، واستولى على برج صافيتا، وفتح حصن القرين واستولى على قلعة الكهف بالقرب

[1] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص١٨ ـ ١٩ ـ ٦٧ ـ ٦٨ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١٠ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص١٠٢.عشائر الشام ج١ ـ ٢ ص٦٨٦.

[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٣٧٥.

[3] - الحيل في حروب المماليك ص١٦.

من القدموس، وعندما سمع أن التتار نزلوا البيرة فساق عساكره إلى الفرات وخاضها، وكما غزا سيس واستعاد دربساك وغزا بلاد الروم واحتل قيسارية [1]، كما توجه إلى جهة عثليت وأخذ حصن الملوحة وحصن حيفا[2]، كما فتح سواكن[3]، وتمت كذلك الإغارة على صورة وغنموا فيها[4]، كما فتحت العليقة من الإسماعيلية[5]، كما فتح طرطوس[6]، كما تم احتلال هولين وتبنين والرملة وحلبا[7]، كما استولى على طبرية[8]، وفتحت

---

[1] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ص٦٥ إلى ٦٧ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٧٥ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٢٥٦ العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٨٢ الجوهر الثمي في سيرة الملوك والسلاطين ص٣٧ إلى ٥١ أثارنا في الإقليم الشمالي من ص٩٥ إلى ٦٨ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٣٠ ـ ٢٥٠ ـ ٢٥١ ـ ٢٦٠ ـ ٢٦٩ ـ ٢٩٣ ـ ٣٠٥ ـ ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ـ ٣٧٩ ـ ٤١٧ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٤٤ ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ـ ـ ٢٥١ ـ ٢٥٩ ـ ٢٧٢ ـ ٢٧٥ العصر المماليكي في مصر والشام ص٦٥ ـ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٢١١ مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص٦٢ ـ ٦٣ ـ ٦٩ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص٦١ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٤٩ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦١ الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص١٠ تاريخ الملك الظاهر ص١٠٦ ـ ٣٢١ ـ ٣٢٣ من الموجز في تاريخ سورية ج٢ ص٦٥ ـ ٦٦ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٣٨ ـ ١٤٠ ـ ١٤٢ ـ ١٥٣ ـ ١٨٦ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٩٨ ـ ١٩٩ ـ ٢٠٠ ـ ٣٢٢.

[2] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٣٤ مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص٦٢ الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص١٠ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٩٨.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٤٨.

[4] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٥٣.

[5] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٣٨٤ العصر المماليكي في مصر والشام ص٦٥.

[6] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٤١٧ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٥٩ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٦١.

[7] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٦٥ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٦٠ الدولة المملوكية التاريخ والسياسي والاقتصادي والعسكري ص١٠ تاريخ الملك الظاهر ص٣٢١ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٩٨.

[8] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢١١ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٥٩ تاريخ الملك الظاهر ص٣٢١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٨٦ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٢٣.

القصير[١]، وقيصرية[٢]، وفتحت عرقا ناصيف وبانياس، وكذلك بعلبك وصرخد وعجلون وحمص والصلت وتدمر والرحبة وتل باشر[٣]، كما فتح مرقبة[٤]، كما فتح بليناس وأنطر سوس ودرب ساك ودرعوش وتلميس وكفرين ورعياك المزريان وشيزر والبيرة[٥]، وفتح حصن مصياف[٦]، كما فتحت الباشورة بالسيف[٧]، كما فتحت دركوش وحصن قرب أنطاكية[٨]، وتسلم بوابة طلعة بلاطنس وقلعة كرابيل[٩].

أرسل السلطان جيشاً إلى دنقلة فكسر جيش السودان وقتلوا منهم خلقاً وأسروا شيئاً كثيراً من السودان[١٠]، وفتحت النوبة والسودان بأكملها[١١]، كما ملك بيبرس برقة وبعد حروب كثيرة[١٢].

٢ ـ قلاوون وأولاده:

فتح المنصور قلاوون صافيتا، وانتصر انتصاراً عظيماً على المغول في الوقعة التي ظاهر حمص بالمرج، ثم سار إلى حصن المرقب وأعطى أهلها الأمان على أن يخرجوا بما يقدرون عليه غير السلاح وتسلم الحصن، ثم سار إلى قلعة صهيون وأجيب بتسليمها له، ثم تابع سيره إلى اللاذقية وتسلمها بالأمان، وعاد أدراجه إلى طرابلس

---

[١] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٥٩ تاريخ الملك الظاهر ص١٢١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٤٣ ـ ١٨٦.

[٢] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٠٢.

[٣] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٦٠ ـ ٦١.

[٤] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٢١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٨٦.

[٥] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٢٢ ـ ٣٢٣ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٩٨.

[٦] - من الموجز في تاريخ سورية ج٢ ص٦٦.

[٧] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٤٢.

[٨] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٤٣.

[٩] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٤٦.

[١٠] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٦٩ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٦٢.

[١١] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٧٥ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٦٢ تاريخ الملك الظاهر ص٣٢٣ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٨٨.

[١٢] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٢٤٦.

الشام وفتحها بالسيف وفتح جبلة والكرك والشوبك[١]، وكذلك احتل عكا وبيروت وصيدا[٢]، وكذلك فتحت بانياس[٣]، كما تم الاستيلاء على طرابلس[٤]، واتجه قلاوون صوب مرقية فأجابه أميرها إلى طلبه[٥]، كما احتل أهدن وبقوفا ودكوها[٦]، أما أعظم الغزوات هو فتح قبرص[٧].

فتح الأشرف خليل بن قلاوون عكا والروم غربي الفرات وصيدا وبيروت، وهرب أهل مدينة صور فتسلمها وكذلك عتليت وطرطوس وبهنسا ومرعش وتل حمدون[٨].

انتصر محمد بن قلاوون في معركتين من أكبر المعارك ضد المغول الأولى معركة مرج الصفر والثانية انتصاره على جيوش غازان في موقعة

---

[1] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٣٠١ ـ ٣٢٨ ـ ـ ٣٦١ ـ ـ ٣٦٥ الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص٧١ ـ ٧٢ الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ج٢ ص٩٤ إلى ٩٨ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٧٩ ـ ٨٠ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج١ ص١٩٧ البداية والنهاية ج١٣ ص٣٠٥ ـ ٣١٣ العصر المماليكي في مصر والشام ص٧٤ ـ ٧٥ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٢٢.

[2] - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج١ ص١٩٧ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٩٥ العصر المماليكي في مصر والشام ص٧٥.

[3] - البداية والنهاية ج١٣ ص٣٠٩.

[4] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢١١.

[5] - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص٦٧.

[6] - من الموجز في تاريخ سورية ج٢ ص٦٨.

[7] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٣٢٨.

[8] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص ٨١ الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص ٦٥ ـ ٧٢ ـ ٧٤ الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٣ الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ج٢ ص١١٠ الحيل في حروب المماليك ص ٣٩ تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٣١ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج١ ص٢٠١ البداية والنهاية ج١٣ ص٣٢٠ ـ ٣٢٧ العصر المماليكي في مصر والشام ص٧٩ ـ ٢١١ خليل بن قلاوون ص٢٣ ـ ٥٢ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٥٠٧ من الموجز في تاريخ سورية ج٢ ص.٦٢ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٨ ص٨ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢١٩ ـ ٣٢٢.

شقحب[1]، والثانية بالقرب من الكسوة، كما سير أسطولاً في البحر من مصر إلى جزيرة أرواد وملكها، كما فتح ملاطية (ملطية) وهي مدينة بأرض الروم، وتم الاستيلاء على بلاد سيس ومن مدنها إياس، كما تسلم قلعة عرقية، وأرسل السلطان عساكر حلب إلى آمد وملكها، وجرد السلطان أمراء إلى برقة وحرروها، كما رسم السلطان تجريدة إلى اليمن بناءً على طلبهم[2]، كما فتحت أيام السلطان محمد بن قلاوون دارندة وطرسوس[3].

٣ ـ أحفاد قلاوون:

أمر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بتوجيه حملة عسكرية بقيادة نائب حلب الأمير جرجي الأدريسي لأخذ خرت وبرت وجرت فحاصرها واستلمها بالأمان، كما جرد السلطان تجريدة إلى بلاد النوبة بعد أن كثر فساد أولاد الكنز فيها فأمسكوا منهم جماعة وقتلوا منهم جماعة[4]، كما فتح سيس وهي حالياً في ولاية أضنه التركية وكانت عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى وبذلك يكون قد تم فتح أرمينيا[5].

فتح صلاح الدين حاجي بن شعبان مرعش وعينتاب وأبلستين وملطية ودروكي[6].

---

١ - المطبخ السلطاني ص٧٤.

٢ - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ص٨٦ ـ ٤١٣ انتصار الوحدة في شمال القفقاس ص٥٧ الفتوحات الإسلامية مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص٧٦ ـ ٨٠ ـ ٨٣ ـ ٨٤ الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ج٢ ص١٥٤ ـ ١٥٦ ـ ١٦٦ البداية والنهاية ج١٤ ص٢١ ـ ٢٥ ـ ٧٣ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٢١١ ـ ٢١٢ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٧٤.

٣ - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٢١٢.

٤ - الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ج٢ ص٢٢٢ ـ ٢٢٣ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٧٢.

٥ - أنباء الغمر بأنباء العمر ص٧٧ مدن الشام في العصر المملوكي ص٦١.

٦ - أنباء الغمر بأنباء العمر ص٢٧٢ إلى ٢٧٤.

٤ ـ الظاهر برقوق:

هاجم الفرنجة بيروت عن طريق البحر بعشرين مركباً فقام إينال اليوسفي بمهاجمتهم فكسرهم وغنم ستة عشر مركباً منها، كما أنشأ الأمير الطنبغا الجوباني أغربة وشواني سفن حربية لغزو الفرنجة في البحر الأبيض المتوسط وساروا إلى دمياط فوجدوا على ساحلها غراباً - نوع من السفن الحربية - للجينوية فكبسوا عليهم وأسروا من فيه، كما نازل الفرنجة في طرابلس الشام فواقعوهم وكسروهم وأخذوا منهم ثلاثة مراكب كما سار يلبغا الناصري بالعساكر الحلبية وغيرها وتنازلوا مع أحمد بن رمضان التركماني عند جسر الفرات فأسروه وابنه وأمه وقضوا عليهم[1].

٥ ـ الأشرف برسباي:

من مناقبه وإنجازاته فتح قبرص وأسر ملكها وقتل أخيه، وحمل ملك قبرص إلى مصر وطيف به[2].

٦ ـ الظاهر جقمق:

انتصر على جيش رودس ورجع ومعه بنت الملك وكثير من الأسرى والغنائم وخاصة الذهب[3].

٧ ـ الأشرف قايتباي:

جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك الدوادار أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار شاه ولاحق المنهزمين إلى أدنه وطرسوس وأخذهما، كما وقعت حرب على نهر جيحان فانكسر سوار وهرب إلى قلعة زمنطو، وكان قد جهز أربعة جيوش من مصر إلى

---

[1] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص٢٨٥ ـ ٣٣٠ ـ ٣٦٢ ـ ٤٢٤.

[2] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٣٤ مدن الشام في العصر المملوكي ص٧٦ الفتوحات الإسلامية مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص١٠٥ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج٢ ص٣٦ ـ ٨١ العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٧١ مصر والشراكسة ص٦٨ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٥٥.

[3] - الفتوحات الإسلامية مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص١٠٦.

سوار كانت التجريدة الأولى لقتال سوار زمن السلطان خوشقدم، أما الثلاث التالية ففي زمن السلطان قايتباي، كما أن دولات نائب قلعة سيس من قبل سوار سلم القلعة المذكورة لجيش السلاطين، وفتحت أيضاً قلعة فرمان ثم قلعة زمنطو حيث كان سوار هارباً إليها فاستسلم، وكذلك انتصر يشبك الدوادار على عسكر الطويل، كما كان الانتصار الثاني لجيش السلاطين على جيش العثمانيين، وتم استعادة قلعة كولك، والنصر الثالث كان باستيلاء الأتابكي أزبك على باب الملك والنصر الرابع على العثمانيين كان في معركة ضخمة قتل فيها عدد كبير من الفريقين، وكان النصر فيها للجيش المصري وعندما أعاد عسكر ابن عثمان أدنه هاجمها عسكر السلطان وأعاد فتحها بالأمان، كما انتصروا واحتلوا قلعة كوارة[1]، فأخذها من عسكر ابن عثمان أيضاً[2].

---

[1] - الأماكن المذكورة السابقة لها هي حالياً ضمن تركية.

[2] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٥٣ إلى ٥٥ ـ ٦١ ـ ٦٩ ـ ١٨٥ ـ ١٨٦ ـ ١٩٠ ـ ١٩٦.

بناء المدارس ودور العلم

بعد انهيار الخلافة العباسية في بغداد وسقوطها، وقيام دولة السلاطين في مصر وبلاد الشام لجأ إليها العلماء والأدباء سواء الذين هربوا من المغول في بغداد، أو القادمين من آسيا وأفريقيا حيث استقبلهم الحكام الجدد في مصر بالترحاب والتقدير وشدوا على أيديهم، وعندما أصبحوا في أمان محفوظي الكرامة لا يخشون شيئاً أبدعوا بالكتابة، وكانت لهم مؤلفات ضخمة، كما شجعت دولة السلاطين الناس للإقبال على العلم بفتح المعاهد والمدارس بجميع أنواعها[1].

نتيجة تشجيع السلاطين للعلم والعلماء قامت نهضة علمية[2]، بفروع الثقافة كلها، الدينية والعربية والتاريخية والعلوم الأخرى، بما فيها الطب حيث فتحوا مشافي للعلاج والتعليم، وكانت مدارسهم بمثابة جامعات خرجت الكثير من العلماء وحوت مؤلفاتهم العلم والمعرفة وظهر منهم مبدعون كثر، كما عرف كثير من السلاطين الشراكسة (بحبهم للأدب ومجالس العلم مثل برقوق وشيخ جقمق وقايتباي والغوري)[3]، في ظل هذه الدولة قامت في مصر حركة علمية زاهرة واسعة ارتفعت فيها العلوم والفنون، ومن خلال العديد من المراكز العلمية التي جرت فيها آنذاك، ويدل على ذلك التراث الضخم الذي تركه علماء ذلك العصر، وبفضل عوامل متعددة، وكانت لهذه الحركة سماتها المميزة لها[4].

في مجال اللغة العربية وعلومها وبعد انهيار اللغة العربية في بقاع الإسلام حفظ أدباؤها في مصر والشام عصر السلاطين اللغة العربية بل ازدهرت ازدهاراً كبيراً وذلك لعناية السلاطين بها، وجعلها لغة رسمية للدولة[5]، مع العلم أن أصول السلاطين وأمرائهم ليست عربية، بل تعلموا بجهودهم الفردية اللغة العربية وتكلموا

---

[1] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص١٤.

[2] - مصر والشام في عصر دولة الأيوبيين والمماليك ص٢٩٢.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص١٥٩ ـ ٢٣٩.

[4] - الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص١٠ من المقدمة والعصر المماليكي في مصر والشام ص٣٣٨.

[5] - مصر والشام ص١٣٢ ـ ١٣٣ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٥٩

بها وأتقنوها وكتبوا بها، وأبدع فيها العديد كمثال الفيروز أبادي وهو شركسي الأصل ألف القاموس المحيط[1]، والجدير بالذكر أنه بفضل السلاطين تم إتقان آداب اللغة العربية كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بك: (فقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية الشركسية حافظة مكانتها التي كانت لها من قبل، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ اللغة العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق[2].

في مجال القصة فقد ظهرت مؤلفات قصصية وسير شعبية كثيرة أشهرها: ألف ليلة وليلة وقصة عنترة، وقصة سيف الدين بن ذي يزن، وقصة الظاهر بيبرس وهي تتضمن حروبه مع الصليبين، وقصة أبو زيد الهلالي[3]...الخ.

أبدع الكثيرون في مختلف العلوم كعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافية منها المؤرخ الشركسي ابن دقماق وابن خلدون وابن كثير والذهبي[4].

كما ظهرت الموسوعات الضخمة في جميع العلوم[5]، أشهر مؤلفيها ابن فضل الله العمري وابن طولون[6]، ومن المؤلفات الدينية فقد كان العالم ابن تيمية وأتباعه مثل ابن قيم الجوزية ومن المؤلفين في الكتب الدينية أيضاً الذهبي وابن كثير وابن حجر[7].

مدح العديد من العلماء والباحثين عصر السلاطين لما أنتجوه وأبدعوا فيه من العلوم المختلفة، فيقول العلامة محمد زاهد الكوثري (ها هي كتب التاريخ

---

[1] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢١ ـ ٢٥ ـ ٤٣.

[2] - مصر والشراكسة ص١٣١.

[3] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٤٠.

[4] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٠ ـ ٦٦ ـ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ دمشق في عصر المماليـك ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

[5] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٣٤ دمشق في عصر المماليك ص٢٠٤.صور ومظالم مـن عصر المماليك ص٧٩ محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص٦ ـ ١٢ ـ ١٨٨ دمشق في عصـر المماليـك ص١٤٠.

[6] - دمشق في عصر المماليك ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

[7] - دمشق في عصر المماليك ص٢٠٥ ـ ٢١٩.

اكتظت بتراجم رجال كبار أنجبتهم مصر بكثرة بالغة في تلك القرون الذهبية، ممن لهم مؤلفات كثيرة جداً في شتى العلوم، بحيث يعدون مفاخر الإسلام فضلاً عن مصر، بل مآثرهم المحفوظة في خزائن العالم مما يقضي لمصر بالفخر الخالد، ومؤلفاتهم في الحديث والفقه والتاريخ خارجة عن حد الإحصاء)[1].

حاول البعض سواء كانوا عرباً أم غير عرب تشويه ما تحقق في ذلك العصر، فقد ذكر جاستون فييت بأنه يجب عدم الانخداع بكثرة المدارس، وأن ذلك لا يتعلق بنبوغ المدرسين ولا يوجد اسم واحد عظيم في عصرهم، ولم يتخرج من معاهدها العلمية الكثيرة شخصية أو كاتب موهوب، ويضيف لا يوجد أي عمل أصيل مميز، وكذلك كتب الدكتور محمد صالح داود القزاز، وهو من العراق ويدعي بأن الخسارة العربية الإسلامية بسقوط بغداد لا تعوض، ونعت ضمنياً عصر السلاطين وحكمهم بأنها أفقدت حرية التفكير وقوة الإبداع وعدم الإتيان بشيء جديد، وكان عصر ظلام فكري، ويضيف بأن علماء أوروبا ومفكريها تحسسوا ذلك. إن ما كتبه جييت والقزاز قد أجاب عليهما الدكتور محمد كمال الدين في نهاية كتاب ألفه عن الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة فكتب:(الحركة العلمية في مصر ـ آنذاك ـ لم تفقد كما زعم حرية التفكير، أو القدرة على الإبداع، وإنما كانت حركة مزدهرة أيما ازدهار، كما أن أعلامها مبرزون، تدرس مؤلفاتهم، وتستفاد معارفهم، بكل إجلال وتقدير، والحديث، والفقه، وأصوله، والكلام، والتاريخ والأدب...)[2].

اعتنى السلاطين وأمراؤهم بالمدارس وشجعوا على التعليم[3]، ولعل (ما يفسر قول ابن بطوطة: أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بمصيرها لكثرتها، وما ذهب إليه القلقشندي من أن: من المدارس ما ملأ الأخطاط وشجعها)[4]. ففي دمشق ذكر

---

[1] - مقالات الكوثري ص١٦٦.

[2] - الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص١٠١ ـ ١٠٢.

[3] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٦ دمشق في عصر المماليك ص٦٣ ـ ٦٩ مصر والشراكسة ص١٣٢.

[4] - الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص٥٠.

بأن فيها لوحدها ستاً وثلاثين مدرسة منها مدرستان طبيتان مرتبطتان بالمشفى[1]، وكان في دمشق زوايا هي أمكنة لطلاب العلم لا يكلف المقيمين فيها بأي شيء بل يقدم لهم رزقهم رغداً، لينصرفوا فقط لتحصيل العلم، فقد ذكر بأن الزوايا في مدينة دمشق وحدها ذلك العصر ثمان وسبعون زاوية للرجال واثنتان للنساء[2]، ويذكر نقلاً عن المدارس للنعيمي وذيل المقاصد لأسعد طلس أنه كان في نيابة دمشق وحدها زهاء مئتين وأربعين مدرسة وزاوية وخانقاه[3].

فيما يلي بعض أسماء المدارس التي بنيت في زمن السلاطين:

١ ـ بيبرس وابنه:

بنى السلطان بيبرس المدرسة الظاهرية (القديمة) تجاه البيمارستان المنصوري بين القصرين في القاهرة وهي أول مدرسة ذات مسقط ذي أربعة أيوانات متعامدة، أضاف للمدرسة ضريح المنشيء وسبيل وكتاب[4]، وأعاد التدريس في الجامع الأزهر في القاهرة بعد أن أغلق الجامع صلاح الدين الأيوبي[5]، وبنى المدرسة الظاهرية في دمشق شرقي المدرسة العادلية الكبرى في شمال باب البريد داخل باب الفرج والفراديس وقبلي الاقبسايتين والجاروخية، وهي مشغولة بالمكتبة الوطنية الظاهرية[6].

---

[1] - دمشق في عصر المماليك ص١١٩.

[2] - دمشق في عصر المماليك ص١٢٦ ـ ١٢٧.

[3] - تاريخ البصروي ص١٧.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٥ الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٦ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٨٤ الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٠ ـ ٤٦ ـ ٥١ ـ ٥٢ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٩٠ تحفة الناظرين فيمن ولي مصـر مـن الـولاة والسلاطين ص١٨٠ العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٠ نظم العقيان في أعيان الأعيان ص٤٦ ـ ١٥٤ ـ ـ ١٦٨ ـ ١٦٩ المطبخ السلطاني ص٧٠ تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقـاهرة ج٧ ص١٢١ ـ ٢١٣ مصر والشام في عصر دولة الأيوبيين والمماليك ص٢٩٨.

[5] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٩ ـ ٣١.

[6] - آثارنا في الإقليم السوري ص٥١ دمشق في عصر المماليك ص٩٥ مدن الشام في العصر المملوكي ص٤٥ ـ ـ ٤٦ كتاب خطط الشام ج٦ ص٨٣ الدارس في تاريخ المدارس ص٣٤٩.

بنى زمن بيبرس في دمشق الأمير آقوش النجمي مدرسة عرفت بالمدرسة النجمية كانت لصق المدرسة النورية في سوق الخياطين من جهة الشمال[1]، وبنى نجم الدين عباس التميمي المدرسة الجوهرية شرقي تربة أم الصالح في حارة بلاطة والمعروف بزقاق المحكمة[2]، كما بنيت المدرسة المعظمية من قبل عيسى مقابل شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية[3].

بنيت دار القرآن السلامية تجاه دار الحديث في القدس من قبل سراج الدين عمر السلامي[4].

شرع السلطان السعيد في بناء الدار التي كانت بدار العقيقي تجاه العادلية وهي مجاورة لحمام العقيقي لتعمل مدرسة وتربة الملك الظاهر، وأسست المدرسة فعلياً في زمن السعيد، كما فتحت مدرسة الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقاني في حارة الوزير في القاهرة[5]، كما فتحت المدرسة النجيبية وحضر تدريسها ابن خلكان[6].

٢ ـ قلاوون وأولاده:

بنى المنصور قلاوون مدرسته المعروفة بمدرسة قلاوون، وتعرف بالمنصورية أيضاً، وتقع في النحاسين بين القصرين في القاهرة وهي بجوار مشهد السيدة نفيسة ودفن في مدرسته، وتتكون المدرسة من صحن مكشوف وكان يدرس فيها الطب والعلوم الإسلامية وغيرها، وكانت تحوي مكتبة[7].

---

[1] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٦٢.

[2] - خطط الشام ج٦ ص٩١.

[3] - خطط الشام ج٦ ص١٢٣.

[4] - خطط الشام ج٦ ص١٢٤ ـ ٣٤٢.

[5] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٧٧ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٢٦٣.

[6] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٨٠.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٤ ـ ٢٠٣ ـ ٢٨٨ الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٧ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٨٩ تحفة الناظري فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ١ ص١٩٦ ـ ١٩٩ البداية والنهاية ج١٣ ص٢١٧ العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٢ ـ ٣٨٠ مصر دولة المماليك البحرية ص٩٨ خليل بن قلاوون ص٨ ـ ٨٣ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٥٣ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٣٢٥ مصر والشام في عصر دولة الأيوبيين والمماليك ص٢٩٨.

بنيت زمن السلطان قلاوون مدرسة دار الحديث بجوار تربة الجالقية من جهة الغرب في القدس نسبة لركن الدين الكبير العجمي المعروف بالجالق، وكان من جملة الأمراء في الشام، ووقف المدرسة الأمير شرف الدين عيسى الهكاري[١]، كما بنيت مدرسة باسم، رباط خليل الرحمن أنشأه قلاوون[٢].

بنى الأشرف خليل بن قلاوون مدرسته (الأشرفية) بالقرب من المشهد الحسيني[٣].

أكمل الناصر محمد قلاوون المدرسة المعروفة باسمه (الناصرية) وحوت مكتبة أيضاً[٤]، كما بنت خوند ابنة الناصر محمد بن قلاوون، وزوج بكتمر الحجازي مدرسة، وهي المعروفة بالحجازية[٥].

زمن السلطان محمد بنى الأمير علاء الدين طيبرس المدرسة الطيبرسية، وتقع يمين الداخل إلى جامع الأزهر في القاهرة[٦]، كما أنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد المدرسة الأقباغاوية، وتقع على يسار الداخل إلى جامع الأزهر، وباقٍ منها مدخلها وواجه القبلة، وجددت فيما بعد من قبل الأمير سعد الدين بشير الجمدار الناصري، كما أنشأ الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري مدرسته المعروفة بمدرسة قراسنقر وتقع في شارع الجمالية في القاهرة[٧]، وأصبحت فيما بعد المدرسة الجمالية الابتدائية، كما بنى الأمير علاء الدين مغلطاي مدرسة في القاهرة بدرب ملوخيا من رحبة العيد، وهي بجوار درب راشد على باب الزقاق المعروف قديماً بدرب

---

١ - خطط الشام ج٦ ص١٣٤.

٢ - خطط الشام ج٦ ص١٢٩.

٣ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٨١.

٤ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٠٦ ـ ٢٨٩ الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٠ العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٠ ـ ٣٤٢ ـ ٣٤٦ مصر دولة المماليك البحرية ص١١٤ صور ومظالم من عصر المماليك ص٧٧ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٢٠٨.

٥ - الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص٤٧.

٦ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٨ ص١٩٩.

٧ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٧٣ ـ ٢٦٠ ـ ٢٨٩حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١٧٨ ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٥١.

سيف الدولة نادر، وعرفت المدرسة بمدرسة مغلطاي الجمالي أو باسم المدرسة الجمالية، وهي غير السابقة بالطبع[1]، كما بنى الأمير جمال الدين مدرسة تحوي خزانة كتب نفيسة بالإضافة إلى المصاحف الثمينة[2]، وبنى الأمير سودون بن عبد الرحمن مدرسة في ساحة خانقاه سرياقوس[3] وبنى الحاج آل الجوكندر المدرسة المالكية بخط المشهد الحسيني، وتقع في شارع الغلام من جامع سيدنا الحسين في القاهرة[4].

بنى نائب الشام تنكز مدرسة عرفت بدار القرآن الحديث التنكيزية، وتقع شرقي حمام نور الدين الشهيد بسوق البزورية وتجاه دار الذهب في دمشق[5]، ثم أصبحت فيما بعد مدرسة للصبيان سميت الهاشمية، وكان معمارها إيدمر[6]، كما بنى المدرسة الحمصية تجاه الشامية البرانية في دمشق ولكنها اندثرت وأصبحت دوراً[7]، كما فتحت دار قرآن ودار حديث عرفت بالصبابية أنشأها شمس الدين بن تقي الدين بن ابن الصباب[8]، كما تم إكمال دار الحديث السكرية وهي دار الذهب في دمشق[9]، كما بنيت المدرسة الأسعرية بناها الخواجا إبراهيم الأسعري

---

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٩٨.

[2] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٣٧.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٨١.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٠ ص٨٨.

[5] - تاريخ البصروي ص٩٠ الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٢٣ البداية والنهاية ج١٤ ص١٨٧ ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٦٨ ـ ١٧٢ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٧٢.

[6] - خطط الشام ج٦ ص٧٩.

[7] - خطط الشام ج٦ ص٧٨.

[8] - (مكرر) البداية والنهاية ج١٤ ص١٨١ الدارس في تاريخ المدارس ص١٢٨.

[9] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٨٤.

والتي فرغ من عمارتها وتقع في الجسر الأبيض[1]، كما فتحت المدرسة الجوهرية في حياة منشئها الشيخ نجم الدين أبي المكارم التميمي الجوهري ودرس بها[2].

بنى تنكز في القدس مدرسة له فيها[3]، وقد كانت مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها، وهي بجانب السلسة مجاورة للسور من جهة الغرب وتحولت إلى محكمة شرعية فيما بعد[4]، وكذلك فتح تنكز دار حديث في القدس غير المدرسة المذكورة سابقاً[5]، كما بنيت المدرسة الوجهية قبلي المدرسة العصرونية المسرورية غربي الصمصامية التي تقع شمال الخاتونية أنشأها وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا، وهي درست، وأصبحت مخازن ودوراً[6]، وكذلك بنيت في زمن السلطان محمد بن قلاوون المدرسة المالكية شمال الحرم في القدس عمرها الحاج ملك الجو كنعمار، وكذلك بنيت المدرسة الأمينية بباب الأنبياء المعروف بباب الدريدارية بجوار المسجد الأقصى بناها الصاحب أمين الدين عبد الله[7]، وكذلك بنيت المدرسة الكريمية بباب حطة جوار القدس لصاحبها كريم الدين بن المعلم بن مكانس ناظر الخواص الشريفة[8].

بنيت المدرسة الزريقية في محلة السويقة داخل طرابلس أمر بإنشاء المدرسة سيف الدين كرناي السيفي[9]، وبنيت المدرسة السقراطية وتقع في طرف المدينة للجهة

---

[1] - الدارس في تاريخ المدارس ص١٥٠.

[2] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٤٨ خطط الشام ج٦ ص٧٢ ـ ٧٥ ، ـ ١١٩ ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٦٧.

[3] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٩٦.

[4] - خطط الشام ج٦ ص١١٩.

[5] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٨٧.

[6] - خطط الشام ج٦ ص٧٢.

[7] - خطط الشام ج٦ ص١٢١.

[8] - خطط الشام ج٦ ص١٢٢.

[9] - خطط الشام ج٦ ص١٢٨ ـ ١٢٩.

الغربية على الطريق الآخذة إلى جبانة باب الرمل في طرابلس بناها قطرق الحاجب مسجداً لله تعالى وتربة للدفن[1].

بنيت مدرسة حصن الأكراد أنشأها والي حصن الأكراد يكفر بن عبد الله الحر زاوية ومدرسة وبيمارستاناً فيها[2]، كما بنى الأمير علم الدين سنجر الجاولي مدرسة للشافعية في الكرك[3]، وفي زمن السلطان محمد أيضاً تم إنشاء المدرسة الجديدة في حلب[4]، وتم إنشاء المدرسة الناصرية في حلب وعمل لها منارة وهي عرفت بجامع الحيات لرسوم حيات من الحجر في قنطرة بابها[5].

٣ ـ أحفاد قلاوون:

رسم الصالح إسماعيل للأمير علي الدين سنجر الجاولي مدرسة للشافعية بغزة[6]، وفي زمن الصالح إسماعيل بنى التاجر العجمي شمس الدين أفريدون مدرسة (الأفريدونية) في دمشق في أول طريق الميدان[7]، كما عملت منارة خارج باب الفرج وفتحت مدرسة وعملت مطاهر عامة ومصلى للناس من قبل الأمير سيف الدين الخليلي[8].

---

١ - خطط الشام ج٦ ص١٢٩.

٢ - خطط الشام ج٦ ص١٢٩.

٣ - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٤٨ مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٦.

٤ - مدن الشام في العصر المملوكي ص٤٧.

٥ - خطط الشام ج٦ ص١١٤.

٦ - أنباء الغمر بأنباء العمر ص٢٢٩ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص٥٠٤ ٥٣٠.

٧ - البداية والنهاية ج١٤ ص٢١٣.

٨ - البداية والنهاية ج١٤ ص٤٧.

بنى السلطان شعبان مدرسة[1]، وتم بناء مدرسة أم السلطان شعبان في القاهرة[2]، كما بنى السلطان المدرسة المعزية في القاهرة[3].

بنى السلطان حسن مدرسته في الرميلة وهي من أهم الأمثلة على طراز المدرسة المتكاملة وتقع في ميدان محمد علي ويعرف بميدان صلاح الدين تجاه باب الغرب من قلعة صلاح الدين تجاه الجبل عند سوق الخيل وهي بناء ضخم حسن الشكل جمع فيها شتى الفنون[4]، وبنى في زمن السلطان حسن مدرسة صرغتمش في شارع الصليبية على يمين المتجه إلى القلعة في القاهرة[5]، وبنيت المدرسة القارسية في القاهرة أنشأها قارس الدين البكي[6]، كما تم بناء المدرسة الأرغونية في باب الحديد جوار الحرم أوقفها أرغون الكاملي نائب الشام في القدس[7]، كما بنيت المدرسة (المحدثية) بالقرب من الوجيهية عند باب الفواغة بجوار الحرم في القدس، وعمرها عز الدين محمد بن العزيز العجمي، واستعملت فيما بعد لقسم كلية

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٦٠ ـ ٢٦١ الحركة العلميـة في مصـر دولـة المماليك الجراكسة ص٤٧.

[2] - البداية والنهاية ج١٤ ص٢٧٢.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٥ ـ ١٢٢ ـ ١٢٣ ـ ٢٨٩ الحياة الأدبيـة في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٠ ـ ٢٧ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السـلاطين ص١٠١ الحركـة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص٤٧ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسـلاطين ج٢ ص١٦ صور ومظالم من عصر المماليك ص٧٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي الاقتصادي والعسكري ص٢٩٠ النجـوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٢٣ ج١٠ ص ٣٠٦ ـ ٣٢٥ الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسـلاطين ص٢٠٨.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٨٩ نظم العقيان في أعيان الأعيان ص٢٩ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٢٧١.

[5] - آثارنا في الإقليم السوري ص٥٢.

[6] - خطط الشام ج٦ ص١٢٠.

[7] - خطط الشام ج٦ ص١٢٣.

المعارف الوطنية[1]، وبنيت المدرسة القشتمرية في باب الناظر بالقرب من الحسينية في القدس بناها الأمير قشتمر السيفي حسن بن قلاوون[2].

بنيت المدرس الجقمقية وهي شمال الجامع الأموي في دمشق وأسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانتزعها الناصر حسن، وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت في غاية الحسن واحترقت في فتنة تيمور فجددها سيف الدين جقمق[3]، كما بنيت المدرسة النورية الصغرى، وهي مدرسة القلعة[4]، وبنى الأمير منجك اليوسفي مدرسة للحنفية كانت في المنيبع (حول الجامعة السورية البناء القديم) في دمشق[5].

تم اكتمال بناء المدرسة المنجيكية في باب الناظر جوار الحرم في القدس من قبل الأمير منجك نائب الشام، وكان الانتهاء في زمن السلطان صلاح الدين حاج[6].

بنى الأشرف شعبان مدرسته التي كانت تعرف بالأشرفية في القاهرة والتي هدمت زمن السلطان فرج بن برقوق، ثم بنى مكانها بيمارستان المؤيدي ووصفت المدرسة الأشرفية بأنها عظيمة وكنت في الصوة تجاه الطبلخانات تحت القلعة، وكان بانيها إينبك[7]، كما بنى مدرسة تعرف بمدرسة أم السلطان وهي خوند بركة موقعها في التبانة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل في شارع الوزير في

[1] - خطط الشام ج٦ ص١٢٣.
[2] - خطط الشام ج٦ ص٩١.
[3] - خطط الشام ج٦ ص٩٧.
[4] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٢١٥.
[5] - خطط الشام ج٦ ص١٢٠.
[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٤٠ تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص١٧٢ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٠٨ ـ ١٠٩ أنباء الغمر بأنباء العمر ص١٤٤ الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين ص٢٣٨ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١١ ص٦٧ ـ ١٥٥.
[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٨٩ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٠٨ ـ ١٠٩ أنباء الغمر بأنباء العمر ص٤٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١١ ص٥٩.

القاهرة[1]، والمذكورة كانت زوجاً لألجاي اليوسفي، والأخير بنى مدرسة تعرف باسمه وفتحت المدرسة بعد موته[2]، وبنيت المدرسة (الحنبلية) في باب الحديد في القدس من قبل الأمير بيدمر نائب الشام[3].

وقف ناصر الدين براق مدرسته (لمدرسة البراقية) في دمشق[4]، كما أكملت مدرسة زين الدين الأسعردي في دمشق، وكانت في الجسر الأبيض[5]، وفتحت دار القرآن التي وقفها الشريف التعاداني إلى جانب حمام الكاس شمالي المدرسة البادرائية في دمشق[6]، وبنيت في عهد الأشرف شعبان أيضاً المدرسة المنجكية بجوار خانقاه الصوفية الدقماقية في دمشق في المدارس في الخلخال، وكان الخلخال حديقة غربي المدينة أصبحت فيما بعد الثكنة الحميدية[7]، وكذلك بنيت المدرسة القرموطية في حلب التي أنشئت من قبل عبد القادر بن قرموط وجددها عبد الرحمن قرموط[8]، كما بنيت المدرسة الأسعردية جوار الحرم إلى الشمال في القدس من قبل الخواجة محي الدين عبد الغني الأسعردي[9]، وبنيت المدرسة (اللؤلؤية) بخط مرزبان بجوار حمام علاء الدين البصير من جهة الشمال وبباب العامود في القدس من قبل الأمير لؤلؤ غازي[10]، وبنيت المدرسة الخاتونية الواقعة أمام المدرسة السقراطية في طرابلس بنتها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها عز الدين إيدمر الأشرفي والي

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٨ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٠٨ ـ ١٠٩ أنباء الغمر بأنباء العمر ص٦٤.

[2] - خطط الشام ج٦ ص١٢٤.

[3] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص١١٨.

[4] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص١٢.

[5] - البداية والنهاية ج١٤ ص٣١٥.

[6] - خطط الشام ج٦ ص٩٧.

[7] - خطط الشام ج٦ ص١١٧.

[8] - خطط الشام ج٦ ص١٢١.

[9] - خطط الشام ج٦ ص١٢٤.

[10] - خطط الشام ج٦ ص١٢٩.

طرابلس[1]، وبنيت المدرسة (البارودية) في باب الناظر بالقرب من التشخرية من قبل الحاجة سفري خاتون بنت شرف الدين المعروف والدها البارودي[2].

بني زمن السلطان علاء الدين بن شعبان المدرسة الخاتونية في باب الحديد جوار الحرم في القدس وأوقفها اغل خاتون ثم أكملت عمارتها ووقفت عليها اصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه[3].

بني زمن السلطان صلاح الدين حاجي المدرسة الظاهرية بين القصرين[4].

٤ ـ برقوق وولده فرج:

بنى السلطان برقوق مدرسته وهي ملاصقة لمدرس الناصر محمد من الجهة الشمالية، وكان القائم على بنائها شاد العمائر جركس الخليلي وتسمى مدرسة السلطان برقوق وتعرف بالمدرسة الظاهرية الجديدة وتسمى أيضاً المدرسة البرقوقية وتقع بين القصرين مقابل قصر بشتاك في شارع المعز لدين الله في القاهرة[5].

بنيت مدرسة في زمن السلطان برقوق من قبل الأمير أيتمش بالقرب من القلعة[6]، وكذلك فتح المدرسة الجمالية أو المحمودية من قبل الأمير جمال الدين محمود، وكذلك فتحت المدرسة الجمالية أو المحمودية من قبل الأمير جمال الدين محمود،

---

[1] - خطط الشام ج٦ ص١٢٣ ـ ١٢٤.

[2] - خطط الشام ج٦ ص١٢٠.

[3] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص٢٦٧.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٩ ـ ٩٩ ـ ٢٠٩ ـ ٢١٢ الحيـاة الأدبيـة في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٠٦ تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص١٢٦ أنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٤٦ ـ ٣٧٧ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١١٨ الجوهر الثمين في سيرة الملـوك والسـلاطين ج٢ ص٢٦٤ نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٨ الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص٤٧ العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٣ قيام دولة المماليك الثانيـة ص١٠٧ نظم العقيان في أعيان الأعيان ص٢٩ ـ ٥٤ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص آ ـ هـ ـ مـن المقدمـة ـ ص٢٧٠ المطبخ السلطاني ص٧٠ ـ ـ مصر والشراكسة ص٥٧ النجوم الزاهرة في ملوك مصـر والقـاهرة ج١١ ص٢٣٩ ـ ٢٤٠ ج١٢ ص١١٦.

[5] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٢٥.

[6] - العصر المماليكي في مصر والشام ص١٤.

وهو أحد أمراء السلطان فرج بن برقوق[1]، وبنى الأمير الأستادار بهادر المنجكي مدرسة له وهي التي دفن فيها[2]، وبنيت المدرسة الطولونية داخل المسجد على الرواق الشمالي وكان يصعد إليها من السلم الموصل منه إلى منارة باب الأسباط في القدس أنشأها شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد الطولوني على يد أقبغا[3]، وكذلك بنيت المدرسة الفترية مقابل الطولونية من جهة الشرق يصعد إليها من السلم المتصل منها إلى منارة الأسباط أيضاً، وهي من إنشاء شهاب الدين الطولوني وجعلها للسلطان برقوق، فلما توفى آل الأمر لوالدة السلطان فرج[4]، وبنيت المدرسة الجهاركسية بجوار اليونسية من جهة الشمال في القدس وقفها الأمير جركس الخليلي أمير الملك الظاهر برقوق[5]، وبنيت مدرسة تغري برمش في باب الحديد على الطريق الآخذة إلى المولوية المشهورة عن أهل طرابلس في طرابلس[6].

بنى السلطان فرج مدرسة تجاه باب زويلة[7]، وبني في زمن السلطان فرج بن برقوق مدرسة أنشأها الأمير جمال الدين يوسف البيري وتسمى مدرسة جمال الدين الأستدار أو المدرسة الجمالية وتسمى المحمودية أيضاً وتقع في التجكثية في شارع الجمالية برحبة العيد في القاهرة، وتعرف الآن بزاوية الجمالي أو الجامع المعلق، وموقفها بين حارة القرافة وقصر التوبة، والمدرسة كانت تحوي مكتبة فيها العديد من الكتب[8]، كما بنيت المدرسة الفارسية في دمشق أنشأها سيف الدين الدوادار

---

[1] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٩.

[2] - خطط الشام ج٦ ص١٢٢.

[3] - خطط الشام ج٦ ص١٢٢.

[4] - خطط الشام ج٦ ص١٣٤.

[5] - خطط الشام ج٦ ص١٢٨.

[6] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٩.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٣٩ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١٥٣ ـ ١٥٤ تاريخ البصروي ص٨٣ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٩ مصر والشراكسة ص١٠٧.

[8] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص٢٢٩ تاريخ البصروي ص١٩٣ الدارس في تاريخ المدارس ج٦ ص٦٢٦ خطط الشام ج٦ ص٨٧.

التنمي (التميمي) وتقع قبلي الجامع الأموي بحوالي مائة وخمسين متراً غربي المدرسة الجوزية تجاه الخارج من باب الزيارة في أسفل سوق البزورية إلى اليسار، وقد بني مكانها مصلى محدث وفيه قبران لا يعلم لمن ولا يزال اسم الجامع الفارسية(١)، كما بنيت المدرسة الحلبية بخط السبعة وهي محلة السبع أنابيب شمالي باب توما في دمشق(٢)، ووقفت المدرسة المعروفة الطرنطائية الأمير سيف الدين نائب دمشق(٣).

في زمن السلطان فرج تم بناء المدرسة الكاملية في القدس من قبل الحاج الكامل من أهالي طرابلس(٤).

٥ ـ الشيخ المؤيدي:

بنى المؤيد شيخ مدرسته (المؤيدية) بالقرب من بوابة المتولي كانت تسمى سابقاً باب زويلة في القاهرة، وتعرف حالياً بالجامع المؤيدي(٥).

بنيت زمن السلطان قايتباي المحمدي مدرسته التي تقع في شارع الصلبية على بعد حوالي ستين متراً من خانقاه الأمير شيخو العمري الناصري، أنشأ المدرسة الأمير قايتباي المحمدي(٦).

بنى السلطان المؤيد مدرسته التي سميت المؤيدية، كما أنشأ سوقاً نسب إليه وذلك في دمشق(٧) كما بنيت مدرسة من قبل فاطمة بنة قايتباي العمري(٨)، وبنيت المدرسة الجقمقية من قبل نائب دمشق جقمق الداودار وتقع المدرسة مقابل باب

---

١ - الدارس في تاريخ المدارس ص٢٣٢.

٢ - خطط الشام ج٦ ص١١٥.

٣ - خطط الشام ج٦ ص١٢٣.

٤ - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٢٠ ـ ٢٧ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٢٧ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ٢ ص٣٣ العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٣ نظم العقيان في أعيان الأعيان ص٢٩ ـ ٤٦ ـ ١٣٩ ـ ١٧٢ ـ ١٧٨ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص هـ من المقدمة ـ ص٤٩ ـ ٢٧٢.

٥ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١١٧.

٦ - خطط الشام ج٦ ص١٠١.

٧ - الحركة العلمية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٤٧.

٨ - تاريخ البصروي ص١٦٨ ـ ١٨١ الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٨٩.

لسلسلة من الجامع الأموي في دمشق، ويعرف بباب الناطغانيين وتحولت فيما بعد إلى متحف للخط العربي[1]، كما بنيت المدرسة الفخرية بين السوريين في دمشق[2].

٦ ـ الظاهر ططر:

كان الأمير جوهر اللالا الذي كان في خدمة الأشرف برسباي قبل ولايته قد أنشأ مدرسة سميت مدرسة جوهر اللالا وتقع على ربوة عالية شمال مسجد الرفاعي في ميدان صلاح الدين في القاهرة[3].

٧ ـ الأشرف برسباي:

بنى السلطان مدرسة رأس الوراقين في العنبرانيين بين القصرين، وهذه المدرسة ما تزال باقية وتقع في شارع المعز لدين الله الفاطمي عند تقاطعه في شارع السكة الجديدة وهي المعروفة بالشرفية[4]، كما بنى برسباي مدرسة في سرياقوس تباهى في زخرفتها، وبنى مدرسته الثالثة في الصحراء في القاهرة وهي التي دفن فيها[5]، كما بنيت المدرسة الشركسية خارج باب النصر في القاهرة[6].

بنيت في زمن السلطان برسباي المدرسة العبد الرحمانية التي عمرها الأمير سودون بن عبد الرحمن[7]، وتم بناء مدرسة العثمانية في باب المتوضاء بجوار الحرم في القدس وأوقفها امرأة اسمها أصفهان شاه خاتون تدعى خانم[8]، وكذلك بنيت

[1] - خطط الشام ج٦ ص٨٧.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٣٢.

[3] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٣١ نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٢ في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٢١ الحركة العلمية في مصر دولة المماليك الجراكسة ص٤٧ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص٣٨٥ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين٢ ص٣٥ مصر والشراكسة ص٧١.

[4] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٢١ ـ ٣٢٢ العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٠ مصر والشراكسة ص٧١.

[5] - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج٢ ص٣٦.

[6] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١ ص ١٨٦.

[7] - خطط الشام ج٦ ص١٢٠.

[8] - خطط الشام ج٦ ص١٢٢.

المدرسة الباسطية في باب شرق الأنبياء في القدس بناها زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش المنصور عزيز المملكة[1]، وبنيت كذلك المدرسة الحسنية في باب الناظر على رباط علاء الدين البصيري من قبل الأمير الكشكيلي (الشكيلي) ناظر الحرم الشريف في القدس ونائب السلطنة في القدس ونائب السلطنة في القدس[2]، كما تم بناء دار القرآن الكريم الجذرية قيل بأنها كانت بدرب الجمر في دمشق من قبل شمس الدين الجزري[3].

٨ ـ الظاهر جقمق:

بنى السلطان أبو سعيد جقمق المدرسة الفخرية في القاهرة وهي اندثرت[4]، كما بنى السلطان المدرسة الجقمقية في دمشق وهي تقع إلى الشمال من الجامع الأموي قريبة من مدفن صلاح الدين[5]، كما بنت خوند مغل وزج الظاهر جقمق مدرسة[6].

تم في عصر الظاهر جقمق بناء المدرسة الجوهرية وشيدها جوهر القبقبائي، وتقع في الطرف الشرقي الشمالي من باب السر للجامع الأزهر في القاهرة[7] وبنى الدوادار الكبير ابن تغري بردى بن عبد الله البكلمشي مدرسته التي في الشارع بالقرب من صليبة جامع ابن طولون في القاهرة[8]، وكذلك أنشأ مدرسة أخرى بدرب المقاصيص بحي الصاغة[9]، وبنى الأمير فيروز الجاركسي الساقي مدرسته التي

---

[1] - خطط الشام ج٦ ص١٢٣.

[2] - الدارس في تاريخ المدارس ص٨.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص ٢٨١.

[4] - آثارنا في الإقليم السوري ص٥٢.

[5] - الحركة العلمية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٤٧.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٧٣.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠٦ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص٨٦.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠٦.

[9] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١١٣ ـ ١١٤.

أنشأها بالقرب من داره عند سوق القرب[1]، كما بنى الأمير وصفي الدين بن جوهر المنجكي مدرسته في رأس سويقة منعم تجاه مصلاه المؤمني في عمارة الفقيري[2]، وشرع الرئيس سعد الدين إبراهيم بن الجيعان في عمارة مدرسته على النيل في ساحل بورق بين الحجازية والبرانجية[3]، كما بنيت دار القرآن الدلامية من قبل أبو العباس أحمد بن زين الدين دلامة، وتقع في حارة المقدمية (جادة ابن المقدم) بالقرب من الماردانية أخذة إلى ساحة الجسر الأبيض ويعرف بجسر الصالحية على نهر ثورى على طريف الجركسية إلى حي المدارس (سوق الجمعة) في دمشق، وتحولت إلى مسجد بعد توسيعها وتجديدها، ودفن فيها منشئها وسمي باسمها[4]، كما بنيت المدرسة الشاذبكية وذكرت في بعض الكتب باس شاذ بك، وعرفت بالشابكية، وتقع في منطقة الشابكية وأوصلها أيضاً الشاذبكية في حي القنوات قرب الطرف الشرقي لشارع فخري البارودي أنشأ المدرسة الأمير سيف الدين شاذي بك دودار نائب الشام جلبان المؤيدي[5].

٩ ـ الأشرف إينال:

بنى السلطان اينال مدرسة له في الصحراء في القاهرة[6]، وخلع السلطان على الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الجيش الخاص باستقراره في نظر عمارتها[7].

بنى وجدد شهاب الدين الصابوني مدرسته المعروفة بدار القرآن الصابونية، وتقع قبلي باب الجابية غربي مزار أويس القرني في دمشق[8]، كما بنيت المدرسة

[1] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١١٣ ـ ١٦٣.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص ٣٨٣.

[3] - تاريخ البصروي ص٢١٤ الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩ خطط الشام ج٦ ص٧١ مآذن دمشق تـاريخ وطراز ص١٩٥.

[4] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص٥٢٥.

[5] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٢٢.

[6] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص ٥٤٦ ـ ٥٨٧ ـ ٥٨٨ ـ ٦٠٤.

[7] - تاريخ البصروي ص٣٤ الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٣ ـ ١٤.

[8] - خطط الشام ج٦ ص٩١ ـ ٩٢.

الحاجبية الخانقاه بها قبلي المدرسة العمرية في الصالحية على مقربة من مرقد الشيخ عبد الغني النابلسي وهي من إنشاء الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك الإينالي أمام جامع الجراكسة[1]، وكان الفراغ من مدرسة الأمير برد بك الدوادار التي أنشأها في قناطر السباع[2]، وكذلك كان الفراغ من مدرسة الأمير برد بك الثانية بخط السباع خارج القاهرة[3].

١٠ ـ الأشرف قايتباي:

بنى السلطان مدرسته في صحراء المماليك وتقع جنوبي تربة الأشرف برسباي بقرافة المماليك، وتحوي مئذنة ذات جمال ودقة بالتفاصيل العمرانية، كما تحوي قبة أيضاً والمدرسة من ضمن منشآت قايتباي في المنطقة فهي تحوي بالإضافة إلى المدرسة سبيلاً وكتاباً[4]، وأنشأ المدرسة الخانكاه[5].

أنشأ السلطان أيضاً مدرس في المدينة المنورة مطلة على الحرم النبوي على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، وبنى مدرسة في مكة المشرفة عند باب السلام، وأنشأ مدرسة في بيت المقدس، وأنشأ داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسة وكانت قبتها ثالث القباب المهمة في القدس الأولى فيه الصخرة، والثانية قبة الأقصى، وكانت المدرسة طبقتين سفلية وعلوية[6]، كما أنشأ مدرسة في دمشق، ومدرسة في غزة ومدرسة بثغر دمياط ومدرسة بثغر الإسكندرية[7].

---

[1] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص ٤٩٢.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص ٥٠٥.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٤ ـ ٤١ ـ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٢٢ الحركة العلمية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٤٧. العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٣ نظم العقيان في أعيان الأعيان ص٩٣ ـ ١٥٣.

[4] - القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص١٢٥.

[5] - خطط الشام ج٦ ص١١٩ مصر والشراكسة ص٨٥.

[6] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٠٦ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٢٢ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص١٢٥ مصر والشراكسة ص٨٥.

[7] - مصر والشراكسة ص١٣٤.

جـدد في عهـد قايتبـاي الأمـير أزبـك ططـخ الجركسـي مدرسـة المنصـورة في القاهرة، وضرب الفسقية التي لها قبة ومنبراً[1]، كما تم بناء مدرسة محمد بن يرد بك في شارع أم الغلام[2]، وتم بناء مدرسة قجماس الإسحاقي الشركسي وتقع في شارع الدرب الأحمر في القاهرة وقجماس تولى عدة مناصب أخرى نائباً للشام[3]، وبنيت في دمشق المدرسة القجماسية داخل باب النصر وباب السعادة، وكانت موجودة في سوق الحميدية حتى عام ١٩٤٢م، وأزيلت عام ١٩٤٣م لتوسيع الطريق[4]، وبنى القاضي قطب الدين الخيضري الشافعي مدرسة في الحي الذي لا يزال يحمل اسمه إلى اليوم مع بعض التحريف إذ تسمى الخيضرية، وتقع في داخل باب الجابية على يسار الطريق المنحدر إلى الجنوب شرقي سوق القطن في دمشق وهي الآن مسجد صغير لطيف[5]، كما بنيت المدرسة القادرية في دمشق وهي مدرسة محمد ين يوسف القادري، وقد أصبحت دوراً صغيرة وحواصل للخشب فيما بعد[6]. وبنيت المدرسة المزهرية في باب الحديد جوار الحرم في القدس من قبل أبو بكر بن مزهر صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية وبعضها راكب على ظهر الأرغونية، وكذلك بنيت المدرسة الجوهرية في باب الحديد جوار الحرم الشريف في القدس وقفها الصفوي جوهر زمام الأدر الشريفة[7]، وبنيت المدرسة الدلغادرية في باب حطة جوار الحرم في

---

[1] - مصر والشراكسة ص١٠٧.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٥٥ ـ ٢٩٠ نور المقابس في تواريخ الجراكسة ص١٣ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٢٢.

[3] - تاريخ البصروي ص١٧٣ الدارس في تاريخ المدارس ج٦ ص٥٦٤ ـ ٥٦٥ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٢٢.

[4] - تاريخ البصروي ص٢٥ ـ ٦٢ خطط الشام ج٦ ص٧٠ ـ ٧١.الدارس في تاريخ المدارس ج٧.

[5] - خطط الشام ج٦ ص١٠١.

[6] - خطط الشام ج٦ ص١٢٠.

[7] - خطط الشام ج٦ ص١٢٢.

القدس بناها الأمير ناصر الدين بن محمد بن دلغادر بعد أن عمرتها زوجته مصر خاتون[1].

١١ ـ الأشرف جانبلاط:

قام السلطان نصف عام وخلع إلا أنه بنى المدرسة الجنبلاطية خارج باب النصر وكان فيها قبتان ليس لهما نظير في مصر وقد هدمت من قبل الفرنسيين عام ١٢١٤هـ.

١٢ ـ العادل طومان باي:

بنى السلطان العادل مدرسته العادلية خارج باب القصر، ودفن في مدرسته، وخربت المدرسة من قبل الفرنسيين فيما بعد.

١٣ ـ قانصوة الغوري:

بنى السلطان الأشرف قانصوة الغوري مدرسة حافلة وسميت باسمه أنشأها تجاه جامعه الذي في الشرابيين في شارع الغوري المسمى حالياً بشارع المعز لدين الله في القاهرة[2]، كما أنشأ السلطان الغوري مدرسة في مكة[3].

بنى في عهد قانصوه مدرسة خاير بك في حي الوزير[4]. وبنيت مدرسة الأمير قرقماس وتقع في قرافة المماليك بجوار خانقاه الأشرف برسباي[5]، وبنى الأمير

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٨٣ ـ ٢٩٠ الحياة الأدبيـة في مصـر العصـر المملوكي والعثماني ص١٨٢ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٥٥ ـ ١٥٦ نـور المقـابس في تواريخ الجراكسة ص١٣ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٨ ـ ٣٢٢ الحركة العلمية في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٤٧طومان باي ص١٢٧ العصر المماليكي في مصر والشام ص١٩٠ ـ ٣٤٣ محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص١١ مصر والشراكسة ص١٠٨ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٦٧ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٧٠.

[2] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٤٠.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٨٣.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٧٨.

[5] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٦٦.

سيباي مدرسته في باب الجابية في دمشق[١]، وبنيت مدرسة قايتباي الرماح أمير أخور في شارع الناصرية في القاهرة[٢]، وبنيت مدرسة قايتباي أمير أخور في ميدان صلاح الدين بأول درب اللبان[٣]، وبنيت المدرسة السيبائية من قبل الأمير سيباي بن بختجا آخر أمراء دمشق في عصر السلاطين وتقع في باب الجابية في دمشق شمالي بئر الصارم، ويسميها الناس السباهية وتقع في سوق الدرويشية قرب ساحة باب الجابية، وفي المدرسة قبر أم سيباي وابنته، أما هو فاستشهد في معركة مرج دابق التي بعدها دخل العثمانيون بلاد الشام[٤]، كما أنشأ سيباي عبد الله الجركسي في دمشق المدرسة السيبائية[٥]، كما بنيت مدرسة الصروي وهي ملحقة بجامع الصروي في محلة البياضة في حلب.

[١] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٩٠ مصر والشراكسة ص١٠٨.

[٢] - مصر والشراكسة ص١٠٨.

[٣] - الدارس في تاريخ المدارس ج ص٤٥٦ تاريخ البصروي ص١٤ ـ ١٩٢ مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٤٩.

[٤] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٨٤.

[٥] - خطط الشام ج٦ ص١١٨.

بناء المساجد

اعتنى السلاطين بالمساجد وتفننوا في بنائها واشتهرت مآذنها التي كانت لها أشكال مختلفة ما زالت مآذن اليوم تقتبس منها. ويصف سينور وانجلوا كيف كانت تزدحم المساجد ، والتي بلغت في القاهرة وحدها اثني عشر ألف مسجد ويذكر (أن المساجد التي شيدها السلطان الناصر محمد وأمراؤه بلغت في مصر ثمانية وعشرين مسجداً)[1] ، ويذكر كيف كانت المصابيح تضاء ليلاً فتعطي النفس انطباعاً قوياً ، كما وصفت المآذن في عصر السلاطين بأشكالها المختلفة وزخارفها وكيف كانت المشكاوات الزجاجية المذهبة بالميناء وتلوين الجص المنقوش وتغطيته بزجاج رقيق لتغشية النوافذ التي يطلق عليها القمريات والشمسيات[2].

بلغ عدد المساجد لمدينة دمشق في عصر السلاطين واحداً وسبعين مسجداً[3]، أما في نيابة دمشق كلها فبلغت الجوامع فيها أكثر من تسعمائة مسجداً ، وتنتشر في كل أنحاء النيابة من حمص إلى غزة[4]، فقد بنى السلاطين وأمراؤهم خلال حكمهم العديد من المساجد والجوامع ولكونهم مسلمين فكان لا بد من بناء المساجد لوجود أحاديث ترغب في بنائها ، كما في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قول الناس فيه حين بنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم أكثرتم علي، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة ، وفي رواية: بنى الله له مثله في الجنة ، رواه البخاري ومسلم وغيرهما[5].

---

1 - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص١٨٥.

2 - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١١ ـ ٢١.

3 - دمشق في عصر المماليك ص١١٧ ـ ١١٨.

4 - تاريخ البصروي ص١٧.

5 - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف جذ ص١٩٣.

١ ـ الظاهر بيبرس:

بنى الظاهر بيبرس جامعاً عظيماً يسمى جامع الظاهر ويسمى جامع العافية، ويمتاز بأن أول مدخل تذكاري بارز، ويقع في الحسينية في ميدان قراقوش في القاهرة[١]، وحينما حرر صفد عمل فيها بيبرس جامعاً في القلعة وجامعاً بالربض[٢]، وكذلك حينما فتح السلطان قيسارية أرسوف بنى قلعة حصينة وعمرت الكنيسة جامعاً[٣]، كما تم إكمال بناء جامع المنشية[٤]، كما جدد جامع الرملية[٥]، وبنى جامع الروضة في جزيرة مصر وجامع المنشية المستجدة، وجامع الصالح في ظاهر القاهرة، وجامع الحسينية، وجامع بقطبا وجامعين في صفد وجامعاً في قاقوم وجامعين في الشقيف وجامعاً بصافيتا وجامعاً في بغراس وجامع أنطاكية وجامعاً في قارا[٦]، كما أمر السلطان بناء جامع الإسكندرية[٧].

في عصر السلطان بيبرس تم بناء مئذنة جامع الرومي في حلب[٨]، وتم من قبل محمد بن علي الحداد منبر في الجامع الكبير في حلب[٩]، ويذكر أن هولاكو حينما احتل قلعة الصبيبة، وهي تقع شرقي بانياس في سورية هدم القلعة، وحينما

---

[١] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٠١ ـ ٢٢٣ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٧٤ تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٦ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٨٠ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٤٩ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٧٣ ـ ٣٣٢ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٦١ ـ ١٩٢.

[٢] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٦٣.

[٣] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٧٥.

[٤] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٥٨ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٥٠.

[٥] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٧٦ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٥.

[٦] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٦٠.

[٧] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص١٩٣.

[٨] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٣٠.

[٩] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٨٩ ـ ١٩٠.

تسلطن بيبرس أعاد بناءها وجددها وأنشأ لجامعها منارة[1]، كما أعاد السلطان بناء الجامع في دير الطين في ظاهر مصر[2]، وبنى عند الركن المخلق مسجداً أعني جامع الظاهر العبيدي، كما بنى جامعاً في المنشية وآخر في منية الشرج وجامعاً في الظاهرية الشرقية، وكذلك جامعاً في الفيوم وكذلك على فوهة الإسكندرية[3]، وجدد جامع الرمله وأصلح جامعاً لبني أصلح وجامع زرعين[4]، وجدد في بعلبك المسجد الذي في رأس العين ووسع مدخل الحنابلة وجدد عمارة جامع البلد[5]، وأمر بعمارة المسجد المجاور لضريح نون عليه السلام[6]، كما بنى جامعاً في حصن الأكراد، وكذلك بنى جامعاً في حصن عكا بعد أن جدد قلعتها فيها[7]، وبنى في قلاع الإسماعيلية الثمان جوامعاً[8]، وجدد جامع الأنوار وكان أنشأه الفاطميون المعروف بجامع الفاكهيين، وكان مغلقاً فيما سبق فأعاده وجدده وتم إعادة الخطبة فيه[9]، وبنى السلطان بيبرس جامعاً في قانون في فلسطين[10].

جهز السلطان بيبرس الأخشاب والحديد والرصاص وآلات الصناع وأعاد عمارة المسجد النبوي الشريف، ووضع منبراً للمسجد النبوي[11]، ولما رأى الناس

---

[1] - الجولان أطماع العدو تاريخياً وبشرياً وجغرافياً واقتصادياً ص١١٨ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٥.
[2] - تاريخ الملك الظاهر ص٧٣ ـ ٣٤٨.
[3] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٦٧.
[4] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٢.
[5] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٦.
[6] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٧.
[7] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٧ ـ ٣٦٠.
[8] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٨ ـ ٣٦٠.
[9] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٥ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٢.
[10] - خطط الشام ج٦ ص٥٦.
[11] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٤٥ ـ ٢٥٦.

يلتصقون بالقبر أقام ما حوله بيده ثم أمر بدرابزين من خشب حول القبر الشريف، كما ذهّب سقفه وبيضه وحينما حج غسل الكعبة بيده بماء الورد[1].

أذن السلطان بيبرس للأمير عز الدين أيدمر الحلي بعمل منبر للجامع الأزهر في القاهرة لم يبق منه إلا لوحته التاريخية المحفوظة في متحف الجزائر، وجدد الجامع ولم يبق من هذه العمارة سوى الزخارف الجصية[2]، والجدير بالذكر أن الظاهر بيبرس و الذي أعاد فتح الجامع الأزهر وأعاد الصلاة والخطبة فيه[3]، بعد أن أغلقت من قبل صلاح الدين الأيوبي حينما استلم الحكم في مصر.

٢ ـ قلاوون وأولاده:

بنى السلطان المنصور قلاوون جامعاً شهيراً بين القصرين في القاهرة[4]، ومن أروع الأمثال للمحاريب المملوكية محراب قبة المنصور قلاوون في شارع المعز لدين اللّه[5]، ومن المآذن المشهورة مئذنة مدرسة قلاوون[6]، وتمت في زمن قلاوون، وصنع منبراً عند مرآب الصحابة في دمشق بسبب عمارة كانت بالمنصورة[7]، وأمر بعمارة المحراب في الجامع الكبير في حلب من قبل السلطان سيف الدين قلاوون[8]، وبني زمن السلطان في حلب مسجد قنسرين عمره قراسنقر[9]، كما بنى جامعاً.

---

[1] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٦٥ الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص٦٧ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج١ ص١٨٠ ـ ١٨١ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٧٥.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٧٢.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٧٧ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين ج١ ص١٨٣. البداية والنهاية ج١٣ ص٢٤٨ العصر المماليكي في مصر والشام ص١٣٨ تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٢.

[4] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص١٠٤ معجم البلدان المجلد العاشر ص٣٣٤ خليل بن قلاوون ص ٨ محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص٥.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٢.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٤.

[7] - البداية والنهاية ج١٣ ص٣١٤.

[8] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٩٠.

[9] - خطط الشام ج٦ ص٤٨.

الحنابلة[1]، كما تم بناء الجامع الكبير لقلاوون في طرابلس الجديدة بعد أن خربت المدينة القديمة[2].

صاحب المعارك والفتوحات السلطان خليل بن قلاوون قلب الكاتدرائية في طرطوس بعد أن فتحها جامعاً[3]، كما بنى في طرابلس الجامع الكبير على ما يرى في الكتابة المحفورة فوق باب الجامع الشمالي[4].

بنى السلطان محمد بن قلاوون مسجداً يقع في القسم الجنوبي من قلعة صلاح الدين على يسار الداخل من البوابة الوسطى للقلعة قادماً من باب الجديد في القاهرة، بعد أن بدأ العمل في المسجد عام ٧١٨هـ، وفرغ منه خلال أربعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً وأعاد بناءه من جديد عام ٧٣٥هـ[5]، وبنى السلطان محمد جامعاً بجانب خانقاه سيرقوس وتقع شمالي القاهرة[6]، كما أمر السلطان بعمارة جامع القلعة وتوسيعه[7]، وعمارة جامع مصر العتيق[8]، كما أمر السلطان بتجديد جامع راشدة[9]، كما جدد السلطان محمد الجامع الكبير في حلب بعد احتراقه عام ٦٨٤هـ، وعندما هاجمها صاحب سيس، وعمل منبراً للجامع من خشب الأبنوس وطعمه[10].

---

[1] - خطط الشام ج٦ ص٥٨ ـ ٥٩.

[2] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٧٥.

[3] - آثارنا في الإقليم السوري ص٩٧.

[4] - خطط الشام ج٦ ص٥٣.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٤٦ ـ ١٤٨ ـ ١٤٩ ـ ١٥٩ ـ ٢٠٥ ـ ـ ٢٠٧ ـ ٢٣٧ ـ ٢٨٩ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٨٤ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص١٥٦ ـ ١٧١ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص٣٥٨ مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص١١٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٥٦ ـ ١٨٠ ـ ١٩٨.

[6] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٥٣ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص١٧١.

[7] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٥٤.

[8] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٧٠.

[9] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٦١.

[10] - آثارنا في الإقليم السوري ص٧٤.

أكملت في عهد السلطان محمد الرابع الجديد الناصري في مصر القديمة على النيل وعمره القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش باسم السلطان محمد[1]، كما تم بناء جامع قوصون خارج باب زويلة[2]، وبنى علاء الدين مغطاي (الجمالي) عمارة جامع بين السورين بجوار البرقية في خط بين السورين في القاهرة سمي جامع التوبة[3]، وتم بناء مسجد في الصحراء في القاهرة من قبل الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري[4]، كما قام الأمير بكتمر الجوكندار بأعمال صلاح الدين والتجديد في جامع الصالح طلائع والتي يقع منها المنبر الخشبي للمسجد، وقد نقش النص الكتابي فوق جلسة الخطيب باسم الأمير المذكور[5]، وبنى الأمير الطنبغا عبد الله المارداني مسجداً عرف باسم مسجد الطنبغا المارداني وهو صهر الناصر محمد بن قلاوون بجوار خط التبانة خارج باب زويلة[6]، وأنشأ الأمير آق سنقر الناصري جامعاً سمي جامع آق سنقر يقع في شارع باب الوزير[7] والجدير بالذكر أيضاً أنه أقدم منبر رخامي موجود في مسجد الخطيري وبقاياه موجودة في متحف الفن الإسلامي في القاهرة يعود لعام ٧٣٧هـ[8]، وأنشأ الأمير حسين بن جندر جامعه المعروف بجامع الأمير حسين من جهة ميدان باب الخلق في القاهرة[9]، وتم بناء جامع المشهد النفيسي، وتم بناء جامع الأمير بدر الدين محمد التركماني بالقرب من باب البحري في القاهرة، وجامع الأمير كراي المنصوري ويسمى جامع الريدانية في آخر

---

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٣٣ ـ ١٩٨.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٩٥.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٩٦ ـ ١٩٩.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٣٨.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٥٨ ـ ٢٨٩ السيف المهند في سيرة الملك المؤيـد ص٢٧١.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٦٢ ـ ٢٦٤. الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٦٤.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٦٤.

[9] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٦٢.

الحسينية خارج القاهرة، وجامع كريم الدين خلف الميدان وجامع شرف الدين الحاكي في سويقة الريش، وجامع الفخر ناظر الجيش على النيل فيما بين بولاق وجزيرة الفيل، وجامعاً آخر خلف خص الكيالة في بولاق وجامعاً ثالثاً في جزيرة الروضة، وجامع حسين الحكر وجامع الأمير.قيدان الرومي في قناطر الإوز، وجامع الأمير ناصر الدين الشربيشي الحراني في القرافة، وجامع الأمير أقوش نائب الكرك بطرف الحسينية بالقرب من الخليج، وجامع آق سنقر قريباً من الميدان، وجامعاً خارج باب القرافة وجامع الملك الظاهري في الجزيرة المستجدة المعروفة بالوساطة وجامع الأمير الماس الناصري بالقرب من حوض ابن هنس خارج القاهرة، وجامع الأمير قوصون الناصري بالقرب منه خارج القاهرة، وله جامع خارج باب القرافة، وجامع الأمير عز الدين أيدمر الخطيري في ساحل بولاق، وجامع في صاروجا في شون القصب، وجامع الأمير يشبك الناصري على بركة الفيل تجاه خانقاته وجامع الأمير ملك الحسينية، وجامع الست حدق الدادة فما بين السد وقناطر السباع وجامع الست مسكه قريباً من قنطرة آق سنقر، وجامع الطنبغا المارداني خارج باب زويلة، وجامع المظفر في سويقه الحميزة من الحسينية، وجامع جوهر السحرتي قريباً من باب الشعرية وجامع فتح الدين محمد بن عبد الله الظاهر في القرافة[1]، كما بنى الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام مسجده الشهير في حكر إسحاق في دمشق[2]، وتم بناء الجامع الذي ابتناه وعمره الأمير جمال الدين نائب السلطنة عند الرباط الناصري في الصالحية[3]، كما بنى إبراهيم بن منجك من أتباع السلطان محمد مسجداً باسمه (جامع منجك) بالقبيبات، وبنى مسجداً آخر سمي مسجد القصب أو الأقصاب أو جامع السادات[4]، وبنى جامع خليخان تجاه

[1] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٩٩ إلى ٢١٠.

[2] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٣٤ تاريخ البصروي ص٩٠ البداية والنهاية ج١٤ ص٨١ ـ ٨٨ مـآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٢٦ ـ ١٣٥ ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٦٥ ـ ١٦٧.

[3] - البداية والنهاية ج١٤ ص٤٢.

[4] - تاريخ البصروي ص٨٥ ـ ١٥١.

خارج باب كيسان من الجنوب في دمشق أنشأه نجم الدين بن خليخان[1]، وكذلك بنى جامع الكريمي بالقبيبات في دمشق أنشأه عبد الكريم هبة الله المصري[2]، وفي حماه تم بناء جامع العزة بناه محمد حمزة العزي[3]، كما بنى تنكز أيضاً جامعاً في نابلس وعجلون[4]، وبنى في حلب جامع الطون بغا الصالحي، وقيل عنه بأنه أول جامع بني في حلب بعد الجامع الكبير[5]، وبنى جامع طينال تسميه العامة طيلان بناه سيف الدين طينال في طرابلس في هندسة لطيفة[6]، كما بنى في طرابلس جامع عبد الواحد وراء سوق الصاغة تجاه عبد الواحد المغربي المكناسي[7]، وتم بناؤها مع الأفرم في حي المهاجرين في منطقة الأفرم في شارع إبراهيم هنانو شيدها نائب السلطنة في الشام أمير دمشق جمال آقوش الدواداري الأفرم في دمشق[8]، كما بنى جامع الشيخ علي البريدي في حي السويقة، في شارع حطاب في زقاق البريدي في دمشق، شيدها الحاج أحمد بن عثمان النحاس[9]، وبنى الأمير علم الدين سنجر الجاولي أبو سعيد جامعاً في الكرك، وكان نائباً فيها من الناصر محمد[10]، كما بنى جامعاً صغيراً في قلعة صلاح الدين التي تسمى قلعة صهيون أيضاً[11]، كما بنى نائب غزة الأمير علاء الدين الجاولي جامعاً حسناً في غزة[12]، كما أعيدت

---

[1] - خطط الشام ج٦ ص٦٣ البداية والنهاية ج١٤ ص١٧٤.
[2] - خطط الشام ج٦ ص٦٣.
[3] - خطط الشام ج٦ ص٦٢.
[4] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٨٧ ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٦٦ ـ ١٦٧.
[5] - خطط الشام ج٦ ص٤٩.
[6] - خطط الشام ج٦ ص٥٣.
[7] - خطط الشام ج٦ ص٥٤.
[8] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص٢١٥ ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٤٧.
[9] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص٤٤٧.
[10] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٤٨ مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٦.
[11] - آثارنا في الإقليم الشمالي ص٩٤.
[12] - البداية والنهاية ج١٤ ص٩٧.

وتكاملت المنارة الشرقية في الجامع الأموي في دمشق[1]، كما تم بناء مئذنة جامع فاطمة في بصرى[2].

٣ ـ بيبرس الجاشنكير:

كان السلطان محمد بن قلاوون أمر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير قبل أن يصبح الأخير سلطاناً، أن يجدد جامع الحاكم بأمر الله، فأصلحه وجدده، كما حول بيبرس الطوابق العليا من مئذنتي الجامع المذكور حيث يؤكد البعض أن المكعب الثاني من المئذنة هو من عمل بيبرس، كما نجد في خانقاه بيبرس الجاشنكير مئذنة عالية تمتاز بقبتها المضلعة[3].

٤ ـ أحفاد قلاوون:

في عهد السلطان أبو بكر بن الناصر محمد قلاوون بنى نائب السلطنة الحاج آل نلك مسجداً مكان خزانة البنود، كما كان له جامع آخر خارج باب النصر وقد اندثر[4].

في عصر الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد تم إكمال عمارة الجامع الذي في المزه الفوقانية الذي جدده وأنشأه الأمير بهاء الدين المرجاني[5]، ورسم الصالح إسماعيل لعلم الدين سنقر الجاولي بناء غزة وعمر فيها الجامع[6].

---

[1] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٨٩.

[2] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٢٩.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٣ ـ ٢٢٣ ـ ـ ٢٣٧ البدايـة والنهايـة ج١٤ ص٣٣ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٨ ص٢٧٦.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٠ ص٨٨.

[5] - البداية والنهاية ج١٤ ص٢١٦.

[6] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٤٧.

أنشأ الحاج جنيد بن عمر الأقصراي جامع الجونشية في السويقة وكان الفراغ منه في أيام الملك الكامل سيف الدين شعبان[1]، وتم بناء جامع الخيف من قبل عمر ابن المرجاني[2].

بنى الأمير شيخو مسجداً في القاهرة وذلك في زمن السلطان حاجي[3]، وكذلك بنى نائب دمشق سيف الدين يلبغا البحياري جامعاً ويقع في الشمال الغربي من القلعة في منطقة سوق الخيل، وحالياً على شارع النصر[4].

بنى السلطان حسن بن محمد بن قلاوون جامعاً يعتبر من أجمل العمائر الإسلامية في مصر والشام[5]، كما جدد في دمشق جامع كريم الدين، وجامع شمس الدين غربال[6]، وبنى الأمير قراسنقر جامعاً في حلب[7]، وبنى الأمير علاء الدين الطبغا في نيابته في حلب جامعاً في شرقها على طريق الميدان الأسود داخل سور شرقي المدينة[8]، وأنشأ السلطان حسن محراباً لمدرسته في ميدان صلاح الدين في القلعة، وهي من أروع المحاريب لذلك العصر[9]، كما أنشأ منبراً رخامياً في مدرسته أيضاً من الرخام الأبيض[10]، وأنشأ مئذنتين عظيمتين لمدرسته بلغ ارتفاع الكبرى منها حوالي ٨١، ٦٠م[11]، كما جدد السلطان حسن جامع الحاكم بأمر الله في

١ - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢٠٧.

٢ - البداية والنهاية ج١٤ ص٩٦.

٣ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة٢٨٩.

٤ - تاريخ البصروي ص٥٠ ـ ١٠٠ ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٩١ ـ ١٩٢ دمشق في عهـد المماليـك والعثمانيين ص٥٤.

5 - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص٤٥١.

٦ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٥٧.

٧ - ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٥١.

٨ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٠ ص٧٣.

٩ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة٣٢.

١٠ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة٣١ ـ ٢٦٤.

١١ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة١٢٩.

القاهرة[1]، وبنى جامعاً آخر في القاهرة[2]، كما للسلطان حسن مآثر في مكة المشرفة فعمل باب الكعبة[3].

بنى في زمن السلطان مئذنة لمدرسته بناها الأمير صرغتمش، كما بنى الأمير سيف الدين شيخو العمري الناصري جامعاً في ميدان صلاح الدين في القلعة في شارع الصليبية في القاهرة، وللأمير مئذنة في الخانقاه التي أنشأها[4]، وتم بناء جامع منجك وموضعه تحت القلعة خارج باب الوزير وتسميه العامة جامع المنشكية وهو داخل درب المنشكية المتفرع من شارع الوداع بجري القلعة في القاهرة أنشأه الأمير سيف الدين منجك اليوسفي[5]، وتم بناء مئذنة أق سنقر في القاهرة[6]، وتم بناء مسجد آراق السلحدار في منطقة الصحابة على طريق الميدان الوسطاني قرب دوار باب المصلى في دمشق، شيدت التربة المنسوبة إلى آراق بن عبد الله السلحدار نائب السلطنة في صفد وفي التربة ضريح ينسب إلى الصحابي صهيب الرومي لذلك أطلق الناس اسم جامع سيدي صهيب، وكذلك يطلق اسم مسجد قره أصلان[7]، وبنى أرغون شاه مسجداً وتربة وهو المعروف حالياً بجامع السنجقدار في دمشق[8]، وفي عهد السلطان حسن بني جامع الصحابية في حلب من قبل أحمد بن يعقوب بن الصاحب[9]، وتم افتتاح جامع بناه سيف الدين يلبغا الناصري غربي سوق الخيل[10]،

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة٢٢٤.

[2] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٩٤.

[3] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٠ ص٣١٦.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة١٠٩ ـ ١١٥ ـ ٢٨٩ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج٢ ص٦٦ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٢٧١.

[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٠ ص٢٦٣.

[6] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٢٨.

[7] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص٤٣٧.

[8] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٢٠٠.

[9] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢٠٦.

[10] - البداية والنهاية ج١٤ ص٢٥٦.

وبنى في طرابلس جامع العطار وسط البلد قرب محلة الملاحة والمشهور عند الأهالي ومكتوب على بابه بأنه من عمل المعلم محمد إبراهيم[1].

بني زمن السلطان حسين في دمشق مئذنة جامع الشحم[2]، وبني جامع الشحم عند النهاية الشرقية لسوق مدحت باشا شيدها الكسار ومئذنتها مفصولة عن الجامع بينهما طريق[3]، وبنى الأمير إبراهيم منجك الجركسي جامع منجك بميدان الحص المعروف بالجزماتية في الميدان الوسطاني في دمشق[4].

بنى منكلي بغا بن عبد الله الشمسي جامعاً في حلب وذلك في عهد السلطان شعبان بن حسين[5]، وعرف بالجامع الرومي[6].

٥ ـ برقوق وأولاده:

بنى السلطان برقوق مسجداً في القاهرة[7]، ويذكر بأن كتابة على باب المسجد الأقمر في القاهرة تحمل اسم السلطان برقوق الذي أمراً بإصدار هذه العمارة بإشراف الأمير يلبغا السالمي وفي الجامع توجد مئذنة على يسار الباب امتازت بما فيها من نقوش ومقرنصات من إنشاء الأمير السالمي المذكور أيضاً[8].

بنى في سلطنة برقوق الجامع الجديد، ويقع على حافة يزيد في الصالحية في دمشق[9]، وتم بناء جامع التنبية في حي الميدان الفوقاني على الطريق العام في دمشق

---

[1] - خطط الشام ج٦ ص٥٤.

[2] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٢٦.

[3] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٥٣.

[4] - أعلام الأدب والفن ج٢ ص١٠٩ خطط الشام ج٦ ص٦٣ مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٦٩ ولاة دمشق في عهد المماليك ص٢١٦.

[5] - أنباء الغمر بأنباء العمر ص٥٨.

[6] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٣٨ ـ ٢٠٧.

[7] - معجم البلدان ا لمد العاشر ص٣٣٤ مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٢٧ ـ ١٢٨ قيام دولة المماليـك الثانيـة ص١٩٥ محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص٥ مصر والشراكسة ص٥٧.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢١٦ ـ ٢١٧.

[9] - تاريخ البصروي ص١٢٥.

بناه نائب السلطان بدمشق الأمير يشبك تتبك أو تتم[1]، وأنشأ الأمير يوسف بن تغري بردى جامعاً في حلب حينما وليها[2].

بنى السلطان فرج بن برقوق مسجد الحرش داخل القلعة في القاهرة[3]، وتوجد مئذنتان وخانقاه وقبة فرج ولكل من المئذنتين ثلاث دورات[4]، وأنشأ عزران شاه الزيني جامع المزار في الشاغور في دمشق وذلك في القرن الثامن، ثم جدد سنة ٨١٣هـ[5]، كما تم أيضاً في زمن فرج وضع محراب جامع السادات في الزينية في دمشق[6]، كما أنشأ خليل الطوغاني جامع السقيفة التي دفن فيه عثمان السقيفي من الصحابة[7]، وسمى الجامع نفسه أيضاً بجامع الكنيسة، وحالياً يسمى جامع الثقفي بعد تجديده، وهو خارج باب توما عند النهاية الجنوبية في شارع برج الروس في دمشق[8]، وبنى أقبغا نائب حلب جامع الأطروش في محلة الأعاجم[9]، وكذلك تم بناء جامع جمال الدين الأستادار في القاهرة[10]، كما تم بناء جامع الموازيني في حلب أيام السلطان برقوق من قبل كافل المملكة الشريفة في حلب[11]، وفي لبنان تم بناء جامع دير القمر للأمير فخر الدين عثمان المعني[12].

---

[1] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص٤٥٩.
[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١٦.
[3] - مصر في عصر المماليك الجراكسة ص٣١٤.
[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٧٢.
[5] - تاريخ البصروي ص٩٩ خطط الشام ج٦ ص٦٧.
[6] - خطط الشام ج٤ ص١٣٦.
[7] - خطط الشام ج٦ ص٦٣.
[8] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص٢٤١.
[9] - آثارنا في الإقليم السوري ص٧٤ تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢٠٥.
[10] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٨٩.
[11] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢٠٨.
[12] - خطط الشام ج٦ ص٥٩.

أنشأ السلطان الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق الباب الشرقي للجامع الأموي في دمشق، وفي المتحف الوطني في دمشق لوحة نحاسية تخلد هذا الإنشاء[1]، وحينما زار السلطان مدينة دمشق أمر بزخرفة عدد من جدران المسجد الأموي بالرخام وإصلاح المآذن[2]، وتم كذلك بناء مئذنة جامع الأقصاب في دمشق[3].

٦ ـ الشيخ المؤيدي:

بنى السلطان شيخ جامعاً يقع في تقاطع شارعي الموسكي وشارع المعز لدين الله الفاطمي (السكرية) وملاصقاً لباب زويلة، وكان هذا المسجد سابقاً سجناً عرف بخزانة شمائل، ويعتبر الجامع من أفخر المساجد في عصر دولة الشراكسة، وكان فيه منبر خشبي اعتبر من أروع الأمثلة للمنابر الخشبية[4]، وبنى جامع المؤيد في أول سوق الهال القديم في دمشق[5].

تم بناء مسجد قانيبال المحمودي في القاهرة في زمن السلطان المحمودي[6] وكذلك بني مسجد القاضي زين الدين عبد الباسط ناظر الجيوش[7]، وبنى جامع التوبة في طرابلس وهو ملاصق للجسر على نهر أبي علي[8].

٧ ـ الأشرف برسباي:

بنى السلطان الأشرف مسجداً مع مدرسة تقع في العنبرانيين بين القصرين في القاهرة، كما بنى جامعاً آخر في بلدة الخانكة الحالية بمركز شين القناطر

[1] - آثارنا في الإقليم السوري ص٤٧.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٩.

[3] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٢٥.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣١ ـ ١٤٠ ـ ١٨٧ معجم البلدان ا لمد العاشر ص٣٣٤ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١١٣ مصر في عصر المماليك الجراكسـة ص٣١٤ ـ ـ ٣١٦ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص ت من المقدمة صور ومظالم من عصر المماليك ص٧٧ المطبخ السلطاني ص٧٠ ـ ٧١ مصر والشراكسة ص٦٣ ـ ١٠٧.

[5] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٤٥.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٨٩.

[7] - مصر في عصر المماليك الجراكسة ص٣٠٦ مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٢٧.

[8] - خطط الشام ج٦ ص٥٣ ـ ٥٤.

قليوبية[1] كما توجد مئذنة تعلو المدخل الرئيسي لخانقاه التي أنشأها السلطان نفسه[2]، وبنى في عهد السلطان مسجد جوهر اللالا في القاهرة[3]، كما تم بناء جامع جاني بك في شارع المغربلين في القاهرة[4]، وبنى القاضي أمين الدين مسجداً له أيضاً[5]، وتم إنشاء مئذنة جامع القلعي في محلة الخيضرية (الخضيرية) في دمشق، وتعتبر مثلاً لفن بناء المآذن وزخرفتها[6]، وتم إنشاء جامع صلاح الدين برسباي وسمي بجامع الورد في حارة الجورة منطقة العينية في منطقة العمارة البرانية قرب التقاء شارع الملك فيصل بحارة سوق ساروجا (صاروجا) في الدرويشية عند زاوية حارة الورد في دمشق بناه يوسف الدين الناصري ودفن فيه وفي موضع مسجد أقدم يعود إلى سنة ٧٨٤هـ، ويظن أن هذا المسجد كان يسمى مسجد السبع قاعات[7]، وتم بناء مسجد هشام في سوق الصوف المجاور للطرف الغربي لسوق مدحت باشا من جهة الجنوب وقبال خان بركة في دمشق شيدها القاضي بدر الدين بن زهر[8]، وتم بناء جامع التوريزي في زقاق التوريزي في محلة قبر عاتكه بالقرب من رأس الشويكة، وأقام الجامع صاحب حجاب دمشق الأمير غرس الدين خليل التوريزي[9].

٨ ـ الظاهر جقمق:

بنى السلطان جقمق مساجد كثيرة وجدد العديد من الأعمال فيما يتعلق بالمساجد فقد جدد الجامع المعلق المجاور لكنيسة الملكيين والتي هدمها داخل قصر

---

١ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٣١ مجلة العربي العدد ٣٦٦ ص٧٣ مصر والشراكسة ص٧١ ـ ١٠٧.

٢ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٧٥ ـ ٢٧٦.

٣ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٨٩.

٤ - مصر والشراكسة ص١٠٧.

٥ - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٧.

٦ - آثارنا في الإقليم السوري ص٥٢ ـ ٥٣.

٧ - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٤١ ـ ١٧٥ خطط الشام ج٦ ص٦٢ ـ ٦٣ تاريخ البصروي ص١٤٣.

٨ - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٧١.

٩ - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٣٩.

الشمع، والمسجد الذي في خان الخليلي، وجامع الظاهر حيث دهنه وبلطه، وجامع الحاكم سقفه وبلطه بعد أن كان مغلقاً لفترة، وجدد مدرسة أستاذه البرقوقية[1]، كما أعاد مسجد أبي المغربي بعد أن هدمه[2].

في عهد جقمق بنى ابن تغري بردى في مدرسته مئذنة ذات طراز مملوكي التي تنتهي قمتها بجوسق محمولة على أعمدة رخامية[3]، وبنى مسجد الفقير الغمري[4]، وتم بناء جامع يلبغا في دمشق[5].

٩ ـ الأشرف إينال:

بنى السلطان إينال مسجداً له[6]، وتم بناء الجامع المعلق في منطقة بين الحواصل عند الطرف الغربي لشارع الملك فيصل وبين بابي الفرج والفراديس (بابي المناخلية والعمارة) وينسب بناؤها إلى برد بك الأشرفي[7].

١٠ ـ الأشرف قايتباي:

بنى السلطان قايتباي مسجده في القرافة في طريق صالح سالم اليوم في القاهرة[8]، وبنى السلطان مسجداً له في الأزبكية لكنه اندثر فيما بعد[9]، وبنى جامعه في الصالحية في صحراء القاهرة مكان تربته في الخطاره[10]، بنى جامعاً

[1] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٣٤ ـ ١٣٥ الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢١٠ ـ ٢١١.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٥ ص٢٤٣.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠٨.

[4] - في عصر مصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٧.

[5] - خطط الشام ج٦ ص٦٢.

[6] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣.

[7] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٦٥.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٨٩ معجم البلدان ا لمد العاشر ص٣٣٤ مصر والشراكسة ص١٠٧.

[9] - طومان باي ص١٢٠.

[10] - القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص٤٦ ـ ١٠١ ـ ١٢٥.

ضمن مقابر الخلفاء بالقرب من جامع ابن طولون[١]، وبنى مسجد العباسية في القاهرة[٢]، وبنى السلطان جامعاً في جزيرة الروضة وجامعاً في رأس الكبش، وجامعاً في باب الخرق (الخلق) عند الشيخ سلطان شاه، وجامع لطيف خارج باب القرافة وجدد منبر جامع الناصر محمد، وجدد قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وجدد مقام سيدي أحمد البدوي، وجدد جامع الرحمة في غيط جاني بك نائب جدة[٣].

بنى السلطان قايتباي منارة للمسجد الحرام في مكة وجدد عمارة للمسجد النبوي الشريف بعد حرقه من الصاعقة[٤]، فأنشأ قبة عظيمة ومقصورة من الحديد المسبك على قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ورخم مسجده عليه السلام، وغير المنبر والمآذن التي كانت في الحرم[٥]، وبنى الخيف قرب عرفات في منى وبوسطه قبة عظيمة[٦]، ومن آثار قايتباي أعماله في جامع نمرة في جبل عرفات[٧].

أنشأ السلطان قايتباي الباب الغربي للجامع الأموي في دمشق[٨]، وأعاد المئذنة الغربية للجامع الأموي بعد احتراقه عام٨٥٤هـ، وتعتبر المئذنة من أجمل المآذن[٩]،

---

١ - مصر والشراكسة ص٨١.

٢ - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٨.

٣ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٠٦ تاريخ البصروي ص٩٧ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص١٣٧ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص١٢٥ مصر والشراكسة ص٨٥.

٤ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٠٦ نور المقابس في تواريخ الجراكس ص٤٧ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص١٢٥ مصر والشراكسة ص٨٥ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٧.

٥ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٤١ ـ ١٤٥ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص١٢٥ مصر والشراكسة ص٨٥ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٧ ـ ٣١٨.

٦ - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣ مصر والشراكسة ص٨٥ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٧ ـ ٣١٨.

٧ - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣ مصر والشراكسة ص٨٥.

٨ - آثارنا في الإقليم السوري ص٤٧.

٩ - تاريخ البصروي ص٨٨.

والمعروفة بمأذنة قايتباي[١]، كما بنى مئذنة جامع هشام بين سوق مدحت باشا وسوق الحبالين في دمشق[٢]، وبنى مئذنة في مدرسته في جنوبي تربة الأشرف برسباي في قرافة المماليك وهذه المئذنة من أحسن المآذن لتناسب أجزائها وتتكون من ثلاث دورات[٣]، كما أمر السلطان بهدم الجامع الكبير الغربي في القاهرة وجدده، وأقام على يمينه المئذنة ذات الثلاث دورات[٤] وأنشأ السلطان المنبر الحجري في خانقاه فرج ابن برقوق بزخارف كثيرة أهمها الهندسية منها كما أنشأ الدكة[٥].

جدد في عصر قايتباي الأمير يشبك بن مهدي جامع الأفخر، وبعد تجديده عرف بجامع الفاكهاني، ويقع على رأس حارة خشقدم في شارع المعز لدين الله (العقادين)[٦]، وجدد الأمير يشبك جامع الصالح طلائع فكشف سلم الجامع، وأجرى العديد من الإصلاحات[٧]، وبنى الأمير أزبك مسجده الكبير[٨]، عمل الأمير أزبك بن ططخ منبراً أثناء تجديد عمارة مدرسة قلاوون[٩]، وبنى الأمير الأزبكي جامعه المعروف بالأزبكية[١٠].

جدد عمارة جامع السقيفة في دمشق[١١]، وبنى الأمير فخر الدين عبد الغني مسجداً عرف باسم الفخري بين السورين[١٢]، وتم في زمن السلطان قايتباي بناء جامع

---

١ - خطط الشام ج٤ ص٤٣٦.

٢ - آثارنا في الإقليم السوري ص٥٣.

٣ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٤ ـ ٢٧٧.

٤ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٧٣.

٥ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٢ ـ ٣٨ ـ ١١١ ـ ٢٧٣.

٦ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٨٥ ـ ١٨٦.

٧ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٥٤.

٨ - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٣ مآذن دمشق تاريخ وطراز ص٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥٢ ـ ٦٥.

٩ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٠٤.

١٠ - مصر والشراكسة ص٨٠ ـ ١٣٤.

١١ - تاريخ البصروي ص٧٤.

١٢ - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٤.

الحيواطية للأمير علي بن حيوط[1]، في محلة قبر عاتكه حارة جادة الحيواطية خلف مشفى المجتهد[2]، وبنى جامع الحاجب في سوق ساروجا[3].

بني في طرابلس زمن السلطان قايتباي جامع أرغون شاه وتسميه العامة الفنشا على الطريق الشرقية الأخذة لجبانة باب الرمل[4]، وتم إنشاء عمارة مسجد السفاحية، ومدرسة في أيام الأشرف أبي نصر الدقماقي[5]، بنى السلطان محمد بن قايتباي مسجداً في الفيوم[6].

١١ ـ قانصوه الغوري:

بنى السلطان قانصوه الغوري مسجداً له تجاه مدرسته في الشرابيين في القاهرة، ولها مئذنة تتكون من ثلاثة طوابق يعلوها أربعة رؤوس[7]، كما بنى السلطان مئذنة ذات رأس مزدوج للجامع الأزهر[8]، وبنى جامع المقياس في الروضة[9]، وبنى مسجداً خلف ميدان القلعة[10]، وتم بناء جامع شرف في حلب[11].

---

[1] - خطط الشام ج٦ ص٦٣.

[2] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٤٧.

[3] - خطط الشام ج٦ ص٦٣.

[4] - خطط الشام ج٦ ص٥٣.

[5] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢٠٩.

[6] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٨.

[7] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص١٨٢ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٥٥ ـ ١٥٦ الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٧٦ معجم البلدان المجلد العاشر ص٣٣٤ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٨ العصر المماليكي في مصر والشام ص١٩٠ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٧٠.

[8] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٤ نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٨.

[9] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣.

[10] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٨.

[11] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢٠٧.

بني زمن السلطان الغوري مسجد خير بك[1]، وبني أيضاً جامع الشيخ علي شاتيلا في المعادلي[2]، وأنشأ الأمير قاني بك (قانيباي) الرماح مسجده بمئذنة ذات رأس مزدوج ، وموقعها في ميدان صلاح الدين في القلعة في القاهرة[3]، وبنى مئذنة ذات طراز مملوكي لمدرسة الأمير قرقماش[4]، وتم بناء مئذنة لمدرسة السيبائية في نهاية الدرويشة قرب باب الجابية في دمشق أنشأها آخر نواب الشام الأمير سيباي بن بختجا[5].

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٩٠ مصر والشراكسة ص١٠٨.

[2] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢٠٩.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤٧ ـ ١٣٣ ـ ١٣٤ ـ ١٧٤.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٧٩.

[5] - مآذن دمشق تاريخ وطراز ص١٤٩.

منشآت مختلفة

بنى السلاطين الشراكسة وأمراؤهم خلال فترة حكمهم من المدارس والمساجد ومرافقها وبالإضافة إلى ذلك بنوا العديد من المرافق العامة من طرق وجسور وهي شاهدة على ازدهار عصرهم[1]، وكان عصر دولة السلاطين من أزهى العصور الإسلامية[2]، ويقول الدكتور زكي محمد حسن (لا ريب في أن عصر دولتي المماليك هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر، فقد كان الإقبال عظيماً على تشييد العمائر، من جوامع وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبله كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة في العناصر المعمارية من واجهات ومنارات وقباب وزخارف جصية ورخامية)[3].

روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته، علماً علمه ونشره، وولداً تركه، أو مصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبي بناه، أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صمته وحياته تلحقه[4] من بعد موته) رواه ابن ماجه[5].

بلغت في عهد الدولة الشركسية فنون العمارة الإسلامية (أوج تطورها وازدهارها حتى غطيت القباب من الخارج والمآذن بزخارف نباتية وهندسية غاية في الدقة والإتقان، وكانت تعددت القباب والمآذن في المسجد الواحد، ويني السبيل والكتاب كوحدة معمارية قائمة بذاتها، وبرز من بين سلاطين هذه الدولة محبو العمارة والتشييد بجميع أنواع العمائر من دينية مثل المدارس والخانقات، ومن مدنية مثل القصور والمنازل والوكالات والخانات والقناطر والجسور والبيمارستانات ومن حربية مثل القلاع والحصون، ويذكر منهم على سبيل المثال في مصر السلطان الملك

---

1 - دمشق في عصر المماليك ص٦٢.

2 - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص٥.

3 - العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٧٩ ـ ٣٨٠.

4 - ينال ثواب نعيمها.

5 - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج١ ص١٩٣.

الأشرف قايتباي والسلطان قانصوه الغوري) وبعد الدولة الشركسية استمر(الطراز المعماري المحلي بحسب أسلوب العمائر الجركسية، وظل قائماً في معظم العمائر التي شيدت في هذه الفترة)[١] ، وحتى بعد أن ظهر النظام البيزنطي في البناء بعد الاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر.

بناء السلاطين والأمراء كان كاملاً بملحقاته فكل بناء كان يتبعه المطبخ والساقية وغيرها، وكذلك المنشآت المدرسية والدينية كان لابد من سبيل، وهذا السبيل يتألف من ثلاثة أشياء وتكون بشكل طوابق عادة تحوي الطبقة الأولى خزان الماء (صهريج) ويكون تحت الأرض وهو لخزن المياه وتأمينها، والطبقة الثانية تكون فوق الأرض بها المزملة وبصدرها السبيل الموزع إلى الأحواض والشبابيك، وتحوي الطبقة الثالثة غالباً مكتباً أو كتاباً، ولا يخفى على أحد الكسوة الرخامية الملونة للجدران والأرضية، وتحوي أشكالاً هندسية بديعة[٢].

عرف من الأبنية السكنية ما سمي بالخانقاه وتعني دار تعبد، وكانت مخصصة لإيواء المتصوفة والمنقطعين للدراسة وخاصة الدينية منها، وعرفت فيما بعد الكتاب[٣]، كما اعتنى السلاطين والأمراء بالأضرحة تعلوها قبب[٤].

تم بناء القصور والمنازل المختلفة أيضاً وذلك للسلاطين والأمراء والقادة للسكن الخاص[٥]، كما بنيت مساكن عامة أي الخانات أو ما يعرف الآن بالفنادق، وهي وحدات معمارية تحوي فناء مكشوفاً يحيط به غرف مفتوحة يطلق عليها حواصل وهي مستودعات أو حوانيت وهذه الغرف تطل على الشارع الخارجي وهي غالباً تؤجر للتجار في حين غرف النوم في الطوابق العليا، أي فندق تحته سوق تجاري[٦]، وهذه

---

[١] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٢ ـ ١٧٩ ـ ٢٣٣ ـ ٢٣٩.
[٢] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٦ ـ ٣٨.
[٣] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص ٣٨.
[٤] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص ٤٠.
[٥] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ٤١ ـ ٤٢.
[٦] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤٦آثارنا في الإقليم السوري ص٣٧.

الخانات تختلف عن الوكالات التي هي أبنية خاصة للتجار القادمين للبلاد وفيها تحفظ بضائعهم حتى تباع، وفيها أيضاً غرف للسكن للمسافرين[1].

امتازت العمائر زمن السلاطين بجمالها ودقتها فتجد العقود المختلفة مثل العقد نصف الدائري والمدبب وحذوة الفرس والمفصص والعقد المدايني، وهو عقد ذو ثلاثة فصوص، وكذلك الأعمدة ببدنه المثمن الذي انتشر استخدامه زمن السلاطين[2].

توسعت المدن القديمة زمن عصر المماليك، ونشأت ضواح جديدة، وكان هناك دعم للمدن الصغيرة في عصر السلاطين[3].

كانت مدينة دمشق هي الثانية بعد القاهرة في عصر السلاطين من حيث الاتساع والكبر والأهمية، وكان سكانها أكبر عدداً من سكان مدينة باريس أو فلورنسة أو أي مدينة أوروبية أخرى في ذلك العصر.

بشكل عام ازدهر العمران وتوسعت أشكاله المختلفة بما فيها المرافق العامة كالجسور والطرق، وكانت التكاليف تدفع من قبل السلاطين والأمراء و (كان إسهام المماليك في المحافظة على التجهيزات المادية المدنية مكوناً أساسياً للاقتصاديات المدنية، وأدى إعادة التنظيم للموارد المالية التي قام بها السلطان الناصر محمد في ٧٤١هـ - ١٣٤١م إلى حدوث فائض من الثروة تم استثماره في ترميم الطرق والشوارع والأعمال المائية والأبنية الجديدة وإقامة المؤسسات والمعاهد الدينية بنسبة لم يسبق لها مثيل منذ أيام الأمويين، ومن ناحية أخرى فقد كان لسرعة النشاط إيقاعات متنوعة في مدن مختلفة بطرق تطابقت بإحكام مع سياسة المماليك السياسية)[4].

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤٧.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤٩ إلى ٥١.

[3] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١١٥ دمشق في عصر المماليك ص٩٤.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٥٤.

فيما يلي بعض الأمثلة على العمران الذي بني في عصر السلاطين:

١ ـ شجرة الدر:

أنشأت أول ملكة إسلامية شجرة الدر القبة التي تقع في الجهة الشمالية الغربية لمدرسة زوجها الصالح نجم الدين ليدفن فيها، وكان محلها قاعة لشيخ المالكية، والجدير بالذكر أن ارتفاع الضريح حتى القبة حوالي ٢١ متراً[١]، كما لعصمة الدين شجرة الدر تربة بطريق المشهد الحسيني النفيسي[٢]، وأنشأت شجرة الدر بجوار تربتها في شارع الخليفة في قسم الخليفة في القاهرة مدرسة عرفت فيما بعد باسم جامع شجرة الدر أو جامع الخليفة وقد تجدد بناؤه مراراً[٣].

٢ ـ بيبرس وابنه:

بنى الظاهر بيبرس في مصر مدرسته الظاهرية، وأضاف إليها ضريحاً له، وكذلك السبيل والكتاب[٤]، كما أنشأ بيبرس خانقاه داخل باب النصر بخط الجمالية التي بناها بيبرس قبل أن يلي السلطنة[٥]، كما بنى في الرحبة التي تعرف برحبة الحبارج قبة محمولة على اثني عشر عموداً من الرخام الملون[٦]، وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة[٧]، كما عمر بظاهر القاهرة اصطبلات وحوضاً للسبيل، وأنشأ قسطلاً كبيراً وأحاط به سوراً مشرقاً، كما أنشأ في سوق الخيل حماماً بناها لابنه سعيد وأنشأ الجسر الأعظم والقنطرة التي على الخليج[٨]، وبنى

---

١ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٠١ المماليك ص٤٧ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٣٧٨.

٢ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٦٧.

٣ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٦ ص٣٧٨.

٤ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٥.

٥ - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٥٠ صور ومظالم في عصر المماليك ص٧٨.

٦ - تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٠ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩١.

٧ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٠.

٨ - تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٢ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩١.

تربة للأمير فارس الدين أقطاي الذي قتله قطز[1]، وبنى السلطان أيضاً دار العدل التي عرفت بالقديمة للنظر في المظالم[2]، وموقعها تحت قلعة الجبل[3]، كما جدد قلعة الروضة في القاهرة بعد أن هدم جانباً منها المعز أيبك التركماني[4]، كما بنى السلطان قناطر السباع على طريق مصر التي سميت بذلك لنصبه عليها سباعاً من الحجارة، والسباع هو رنكه أي السباع علامته في ختمه وما يأمر به من المنشآت[5]، وتكاملت عمارة الدار الجديدة المرسوم بعمارتها عند باب السر الذي بالإيوان المطل على سوق الخيل[6]، وبنى قرية سميت الظاهرية وهي في السد قرب العباسية في مصر[7]، هذا واختار بيبرس قلعة اللانج لصلابته فأمر بقطع الأشجار حولها وهدموا البناء الذي حولها، وبنى قناطر أبي المنجي في القليوبية[8]، كما رمم بناء ما تهدم من منارة الإسكندرية التي قد تداعى أركانها وتحقق مشاركته في بنائها[9]، وبنى السلطان حوض ماء (مصنع)[10] ، وعمر مناراً في الجيزة حيث أمر بعمل جسرين أحدهما من مصر إلى الجزيرة، والآخر من الجزيرة إلى الجيزة، كما عمر أسوار مدينة الإسكندرية وخليج الإسكندرية، وعمر لثغر رشيد مناراً لرؤية مراكب الفرنج، ورسم بردم فم دمياط وتوعيره بالحجارة، ورسم بحفر أشموم طناح، وعمر

---

[1] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٧٩.

[2] - نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص١٥٧.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص١٨٩.

[4] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٦٧.

[5] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٧٤ ـ ٧٥ حوادث الدهور في مدى الأيـام والشـهور ج٢ ص٤٩٢ تحفة الناظرين قيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج١ ص١٨١ المماليك ص٢٢٩ النجـوم الزاهـرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩١.

[6] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٤٦.

[7] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٩١.

[8] - تحفة الناظرين قيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج١ ص١٨٠ ـ ١٨١ النجوم الزاهرة في ملـوك مصـر والقاهرة ج٧ ص١٤٨.

[9] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٤٤٨.

[10] - نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص١٢.

بلدتي الظاهرية والعبدية عن العباسية[1]، وبنى باب القلعة، وسبب التسمية لأجل أنه كان هناك قلة[2]، كما أكمل السلطان بيبرس بناء عمارة بئر الليونة قريب الإسكندرية[3] وأكمل عمارة الحوض الذي يمر في قناة باب البريد، كما بنى بيبرس شاذروان وقبة وأنابيب يجري منها الماء إلى جانب الدرج الشمالي[4]، كما بنى بيبرس دار الذهب في قلعة الجبل، وحفر أنهاراً كثيرة وخلجان في بلاد مصر ومنها نهرالسرداس، كما جدد قبر الخليل عليه السلام وزاد في زاويته، وبنى المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السلام وقبة قبلي أريحا وجدد في القدس أشياء حسنة من ذلك قبة السلسلة، ورخم الصخرة غيرها، وبنى في القدس خاناً هائلاً وعمل طاحوناً وفرناً وبستاناً، وبنى على قبر أبي عبيد ة مشهداً، ووقف عليه أشياء للواردين، وعمر جسر دامية وجدد قبر جعفر الطيار في ناحية الكرك، وبنى في حلب داراً هائلة[5]، وأنشأ قيسارية عند أبي الفتوح وأخرى خارج باب الفتوح، كما أنشأ في الريدانية ربعاً وفندقاً وعدة مخازن[6]، وأنشأ بين النيل والخليج المصري ضيعة أسماها المنشية بدلاً من منشية الفاضل وأنشأ منية الشرج بل منية الأمراء التي كان البحر قد أتى عليها، وأنشأ في الشرقية ضيعة سماها الظاهرية وجدد قلعة في أرض برقة تسمى العمودين وقلعة في السويس وضيعة الجزيرة[7]، وبنى جسراً في القليوبية وجدد الجسر على بركة النيل، وبنى قنطرة عند القصير وقنطرة منية عنبرة وقنطرة البلهامة وقنطرة طوخ وقنطرة نوكية الغربي وقنطرة الخطارة وقنطرة المشعبة

---

[1] - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٨٢ ـ ٨٣ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٩١ ـ ـ ١٩٣ ـ ٢٤٧.

[2] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص٣٢٢.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص١٨٧.

[4] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٤٦.

[5] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٧٥ ـ ٢٧٦ تاريخ الملك الظاهر ص٣٨٩ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقـاهرة ج٧ ص١٩١ ـ ١٩٤.

[6] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٥.

[7] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٧ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٢.

وقنطرة بوداود وقنطرة بحر طناح وقنطرة أقر وقنطرة شارمساج وهذا كله من القاهرة إلى دمياط، وبنى قنطرة على خليج القاهرة يمر منها إلى ميدان البورجي وقنطرة على خليج الإسكندرية[١]، كما حفر خليج الإسكندرية وحفر بحر طناح ويعرف ببحر أشموم، وحفرت ترعة الصلاح وحفر خور سونجا وحفر المحايري[٢]، وحفرت ترعة كيسان وحفر ترعة أبي الفضل وحفر بحر الصمصام في القليوبية[٣]، وبنى بيبرس زاوية للشيخ خضر في القاهرة خارج باب الفتوح بخط زقاق الكحل، تشرف على الخليج الكبير[٤].

بنى الظاهر بيبرس في بلاد الشام قصره الأبلق في دمشق كان مبنياً مكان التكية السليمانية وحالياً المتحف الحربي[٥]، وكان على واجهته مائة أسد منزلة صورها بأسود وأبيض، وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة صورها بأبيض وأسود[٦]، وهو بناء عظيم بني من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب وإحكام عجيب[٧]، وبنى المدرسة الظاهرية في دمشق وقبر السلطان الظاهر[٨]، وعمر بيبرس الجسر المشهور بين قرارا ودامية وتولى عمارته الأمير جمال الدين محمد بن بهادر وبدر الدين محمد بن رحال والي نابلس والأغوار[٩]، كما بنيت

---

[١] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٨ ـ ٣٤٩ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩١ ـ ـ ١٩٢ ـ ـ ١٩٣.

[٢] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٤٩ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٣.

[٣] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٠ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٣.

[٤] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٦٠ ـ ١٩٢.

[٥] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٨٤ آثارنا في الإقليم السوري ص٥٣ دمشق في عصر المماليك ص٩٩ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٨٢ ـ ٨٤ تاريخ البصروي ص١٢٠ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٧٦ خطط الشام ج٤ ص٤٤ العصر المماليكي في مصر والشام ص٢١٣ ولاة دمشق في عهد المماليـك ص٢٠ ـ ٤٤ دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص٥٦ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٧٤ ـ ١٧٨.

[٦] - خطط الشام ج٤ ص١٢٢.

[٧] - خطط الشام ج٥ ص٢٨٥.

[٨] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٤٥ ـ ٤٦.

[٩] - البداية والنهاية ج١٣ ص١٤٧.

زاوية خضر العدوي في المزة، وكان هذا مشهوراً بشيخ الملك الظاهر بيبرس، وبنى له عدة زوايا في مصر والشام منها زاوية المزة في دمشق، وزاوية في ظاهر بعلبك، وزاوية في حماه[1]، وبنيت زمن السلطان بيبرس زاوية لشيخ بيرق، كانت داخل الثكنة العسكرية في حلب[2]، وتم بناء رباط علاء الدين البصير تجاه الرباط المنصوري من قبل الأمير علاء الدين أيدغدي[3]، وبنى السلطان في دمشق دار العدل والميادين الكثيرة التي أشهرها الميدان الأخضر وميدان الحصى[4]، كما أن الظاهر بيبرس جدد شرفات قلعة دمشق ورؤوس أبوابها التي كان التتار قد هدموها، وبنى فيها حماماً، كما جدد مشهد زين العابدين رضي الله عنه في جامع دمشق، وترخيم الحائط الشمالي وتجديد باب البريد وفرشه بالبلاط[5]، وبنى السلطان بعد فتح صفد وعمارة قلعتها بنفسه[6]، ورسم بيبرس بتجديد عمارة الخليل، وكتب بذلك لدمشق، وتوجه الأمير جمال الدين نهار فجددت الأخشاب والأبواب والدهانات وجددت كذلك الضرائح المقدسة[7]، ونفض قبة الصخرة في القدس، وعمل عوضها وغشاها بالرخام، وغشي الرخام بالرصاص وكتب عليها اسمه، وأنشأ خاناً للسبيل وطاحوناً وفرناً وبستاناً، وغير كنيسة المصلبة وصيرها زاوية[8]، وفي الكرك جدد في القلعة برجين وخندقاً مما يليهما وجدد في المدينة برجاً من شرقها وجدد برجاً يعرف بالداوية ويعرف بباب الرحمة، ونشر جسراً على تربة دامية على الشريعة بالغور وانشأ على العوجا وما حولها ثلاثة جسور وأنشأ جسراً بالقرب من اللد وجسراً

---

[1] - خطط الشام ج٦ ص١٤٢.

[2] - خطط الشام ج٦ ص١٥١.

[3] - خطط الشام ج٦ ص١٥٣.

[4] - دمشق في عصر المماليك ص٩٩.

[5] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢١٣ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٥ .

[6] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٨٥ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٩ النجوم الزاهرة في ملـوك مصـر والقاهرة ج٧ ص١٩٥.

[7] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٨٧ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٩.

[8] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٤.

في أمدود وجسراً على يبنا وجسراً على قاقوم وأنشأ قلعتها، وبنى للشيخ خضر زاوية[1]، وأنشأ في قلعة صفد صهريجاً وبنى عليه برجاً وبنى حماماً وساق إليها الماء من بركة اليتيم وبنى في الشقيف حماماً، وداراً لنائب السلطنة[2].

بنى في دمشق حماماً عند باب القلعة الشرقي، وحماماً خارج باب النصر، وبنى جسراً على الطريق من باب الميدان إلى سوق الخيل وبنى إلى جواره دار السعادة وجعل فيها دوراً برسم البريد[3]، وفي حمص جدد في المدينة دار الملك، وأمر بإنشاء خان في القدس الشريف وحوضاً بناه الأمير جمال الدين محمد المنصور، وجدد داراً برسم سكن نائب الملك، وأنشأ قلعة ستمبميس، والتي تهدمت بأيدي التتر وجدد في قلعة بلاطنس ثلاثة أبراج وجدد سور العليقة[4]، وأمر السلطان القيام بأعمال مختلفة في الخليل[5]، وأمر بإنشاء خان في القدس الشريف وحوض بناه الأمير جمال الدين محمد بن نهار[6]، وفي بانياس أعاد قلعة الصلبيبة بعد أن هدمها هولاكو سابقاً، فجدد بناءها وأنشأ لجامعها منارة وبنى داراً لنائب السلطنة، وعمل جسراً يمشي عليه إلى القلعة[7]، وأمر في عمارة القناطر في جسر شيرمنت[8]، ورسم بعمارة القلاع التي خربها هولاكو وهي قلعة بعلبك وقلعت الصلت وهي في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون، وقلعة صرخد (صلخد)، وقلعة عجلون على جبل عوف، وقلعة بصرى وقلعة شيزر بالقرب من المعرة وقلعة حمص، وعمر خاناً في القدس الشريف وعمر قبة

---

[1] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٢.

[2] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٣ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٥.

[3] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٥.

[4] - تاريخ الملك الظاهر ص٣٥٨.

[5] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٨٩ ـ ٩١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٤.

[6] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٢١.

[7] - الجولان أطماع العدو تاريخياً وبشرياً وجغرافياً واقتصادياً ص١١٧ ـ ١١٨ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٨٢ العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٨٠ ـ ٣٨١ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٤٩ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٥.

[8] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٩١.

بالصخرة وزاد في الخليل عليه السلام[1]، كما عمر قلعة قاقون بعد فتح قيسارية وأرسوف[2]، وكذلك بعدما فرغ السلطان من فتح القرين أمر الأمير عز الدين الأفرم وعز الدين ايبك العمارة فيها[3]، كما سير السلطان جمال الدين موسى بن يعمور بمباشرة حصن جزيرة بني نصر[4].

جدد السلطان بيبرس البيمارستان في المدينة فأمن ما يلزم من المواد لإتمام عمارة الحرم الشريف النبوي[5]، وبنى في زمن بيبرس الأمير أقوش النجيبي الخانقاه في عمارة القصر الأبلق (حارة الحلبوني) في دمشق، ولكن اندثرت، وكانت تعرف بالخانقاه النجيبية وله خان النجيبي على طريق الميدان لم يبق له أثر، كما بنى تربة ليدفن فيها في دمشق، ولكن دفن في مصر[6]، وبنى الأمير عز الدين أيدمر الظاهري الخانقاه العزية التي أنشأها على ضفة نهر ثورا عند الجسر الأبيض في صالحية دمشق، وبنى إلى جانبها رباطاً وتربة لدفنه[7].

بنى السلطان بركة خان بن بيبرس حماماً بالقرب من مدرسة الناصر حسن في القاهرة[8]، وفتحت في زمن السلطان السعيد بركة خان الخانقاه النجيبية[9].

٣ ـ قلاوون وأولاده:

بنى السلطان قلاوون العديد من العمران في أنحاء مختلفة ويعود السبب بذلك لطول سلطنته، فقد بنى السلطان في مصر البيمارستان المسمى باسمه بالنحاسيين

---

[1] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٩٣.

[2] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٧٥.

[3] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٣٨٥.

[4] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٩٠ ـ ١٩٣.

[5] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٦٥ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٨١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٩٤.

[6] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٦٢ ـ ٦٣.

[7] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٩٥.

[8] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٧٧.

[9] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٨٠.

بين القصرين في القاهرة واندثر أغلبيته حالياً[1]، وهذا المشفى كان مقسماً إلى أربعة أقسام كبيرة قسم للحميات وقسم للرمد وقسم للجراحة وقسم للنساء وغيرها من الأقسام التي تتبع المشافي[2]، وبنى قبة مع مدرسته التي شيدت على رقعة من أرض القصر الفاطمي الصغير الغربي، وكان مكانها خان الزكاة حالياً موقعها على شارع المعز لدين الله[3]، وأنشأ الديوان ومكانه الآن جامع محمد علي باشا الكبير في القلعة في القاهرة وهي مكان يجلس فيه السلطان للنظر في المظالم أي كان بمثابة دار العدل والقضاء[4].

بنى السلطان قلاوون الصالحي الرباط المنصوري في باب الناظر في القدس[5]، وكذلك الرباط تجاه القلعة في القدس[6]، واشترك الأمراء والأجناد في حفر خليج الطبرية (ترعة المحاجر في جزيرة البحيرة)[7]، وعمر السلطان قلاوون مدينة جديدة قرب طرابلس بعد أن خرب القديمة[8]، وبعد احتلال السلطان قلعة الروم أمر

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القـاهرة ص ٤٦ ـ ـ ٢٠٢ ـ ـ ٢٠٦ ـ ـ ٢٨٨ تـاريخ البيمارستانات في الإسلام ص١٠ ـ ٢١ ـ ٢٣ ـ ٨٣ ـ ١٧١ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السـلاطين ص٦١ ـ ٧٩ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص ١٢٢ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٩٦ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج١ ص١٩٦ مصر في عصر دولة المماليـك البحريـة ص١٦٥ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٥٥ ـ ٣٢٨ مصر والشراكسة ص٦٣ النجوم الزاهـرة في ملوك مصر والقاهرة ج٤ ص٤٧ ـ ج٧ ص٣٢٦.

[2] - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص٩٨.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ ـ ٢٠٩ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٦١ ـ ٧٩.

[4] - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٢٤٣ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السـلاطين ص٦١ نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص١٥٧.

[5] - خطط الشام ج٦ ص١٥٣.

[6] - خطط الشام ج٦ ص١٥٦.

[7] - المماليك ص٢٠٥.

[8] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٢ ص٦٨ العصر المماليكي في مصر والشام ص٧٤.

بعمارتها[١]، وبنى في عهد قلاوون قبة الخانقاه البندقدارية وقبة زين الدين يوسف[٢]، وبنى قراسنقر الجوكنداري سبيل المقامات في حلب[٣].

أنشأ السلطان خليل بن قلاوون قبة في شارع الأشرف في القاهرة من الجهة الشمالية من المشهد النفسي[٤]، وجدد الإيوان الذي بناه والده[٥]، وأنشأ قصر الأشرفية[٦] وفي زمن السلطان خليل بنى الأمير حسام الدين لاشين خاناً تحت ثنية العقاب وعرفت بخان عياش في دمشق[٧]، وأمر السلطان الأمير سنجر الشجاعي في بناء أبنية عظيمة في قلعة دمشق فبنى الدور السلطانية والطارمة والقبة الزرقاء، ووسع الميدان الأخضر - حالياً هو مكان بناء وزارة الداخلية - في دمشق[٨]، وبنى الأمير أيبك الحموي الحمام الذي بناه في مسجد الأقصاب في دمشق[٩]، وأمر السلطان خليل بعمارة قلعة حلب بعد أن خربت من قبل التتر[١٠]، وكان قد شرع قراسنقر في عمارتها أيام المنصور قلاوون وتمت في أيام السلطان خليل فكتب اسمه عليها[١١]، وأمر السلطان خليل في عمارة الباب الوسطاني في قلعة حلب[١٢].

يعتبر السبيل الذي بناه الناصر محمد بن قلاوون في مدرسة أبيه في النحاسيين من أقدم الأسبلة الباقية في مدينة القاهرة[١٣]، ويعلو السبيل قبة صغيرة كسيت

---

١ - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص٧٤.

٢ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠٣.

٣ - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢١٨.

٤ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٨١.

٥ - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٢٤٧.

٦ - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٢٠٨ المطبخ السلطاني ص٦٨.

٧ - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٧٠.

٨ - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٧٧.

٩ - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٧٩ البداية والنهاية ج١٣ ص٣٢٣.

١٠ - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص٧٣.

١١ - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٣ ـ ١٩٠ ـ ١٩٦.

١٢ - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٩٨.

١٣ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٨.

رقبتها ببلاطات من القاشاني عليها كتابات قرآنية غاية في الإبداع وألحق السبيل كتاباً[1]، وشيد أربع سواقي على النيل تنقل الماء إلى الأسوار ثم من السور إلى القلعة وأمر بعمل السواقي عند ساحل النيل واتصلت بها قناطر امتدت واتصلت بالقناطر القديمة كي تتجمع المياه في خزانين[2]، وجدد الناصر محمد قناطر السباع التي بناها بيبرس فتم توسيعها[3]، وجدد الناصر قبة النصر التي كانت زاوية في الصحراء تحت الجبل الأحمر يسكنها فقراء العجم[4]، وبنى السلطان القصر الأبلق ويقع في الجهة الغربية من القلعة في القاهرة[5]، وأنشأ بجوار القصر حديقة[6]، كما عمر السلطان محمد لأتباعه عدة قصور خارج القاهرة وداخلها[7]، كما عمرت جزيرة الفيل، وناحية براق، واتصلت العمائر من ناحية منية الشرج على النيل، وكانت تسمى منية الأمير أو الأمراء، وهي حالياً من الضواحي التابعة لمدينة القاهرة[8]، كما جدد السلطان بناء الإيوان بعد أن هدم[9]، كما بنى القاعات السبع التي تشرف على الميدان وعمر باب القرافة[10]، كما أنشأ السلطان قبة جليلة بجوار

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٠٤.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠٣ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص١٥٧.

[3] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص ٤٩٢. نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص١٥٧.

[4] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص ٤٨٥.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٤٧ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٨٤ ـ ٨٥ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص١٥٣ مصر في عصـر دولـة المماليـك البحريـة ص٩١١٤ المطبخ السلطاني ص٦٨ ولاة دمشق في عهد المماليك ص٢٠ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٣٦ ـ ١٧٩.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٤٧.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٣٨.

[8] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٨٣.

[9] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٨٤ ـ ٨٥ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص ٣٢٢ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٢٤٣.

[10] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٨١.

مدرسته[1]، كما أنشأ خاناً للزكاة هدمت فيما بعد وأصبح مكانها مدرسة برقوق في القاهرة[2]، كما حفر السلطان محمد بئرين عميقتين، وركب السواقي والدواليب التي تديرها الأبقار فتنقل المياه إلى القناطر في سور القاهرة والقناطر العتيقة حتى تصل المياه إلى القلعة فتدخل إلى القصور وإلى دور الأمراء[3]، كما بنى جسراً خارج القاهرة[4]، وأنشأ السلطان جسراً بالنيل على جسر ابن الأثير[5].

بنى العديد من الأبنية مثل الحوش الفوقاني والدور والسواقي والقناطر مثل قناطر شيبين القصر على بحر أبي المنجا (ترعة الشرقاوية) فأنشئت تسع قناطر[6]، كما أمر السلطان في بناء جسر يمتد من شيبين القصر إلى بنها العسل، وجمع له اثني عشر ألف رجل ليعملوا على إنجازه، ثم أقام عدة قناطر وبذلك أمكن من وصول المياه إلى الأراضي المرتفعة في تلك النواحي[7]، كما بنى سد شيبين القصر[8]، وشيبين القصر تعرف الآن بشيبين القناطر ـ قليوبية، وكانت القناطر المكان الذي يمر عليه اليوم كوبري السكة الحديدية فيما بين قليوب والزقازيق وقد هدمت في عهد محمد علي باشا، وأقيم بدلاً منها قنطرة فم الخليلي، كما بنى السلطان محمد قناطر أم دينار وقناطر الخليج الناصري فعمر سبع قناطر، كما اعتنى السلطان محمد ببلاد الجيزة وعمل على كل بلد منها جسراً وقنطرة[9]، كما طلب السلطان إلى الأمراء إقامة جسر من بولاق إلى منية الشرج[10]، وتم بناء خانقاه

---

[1] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٠٦ ـ ٢٨٩.
[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٠٩.
[3] - نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص١٢ ـ ١٣.
[4] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٣٠.
[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٢٤.
[6] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١١٤.
[7] - العصر المماليكي في مصر والشام.
[8] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٣٠.
[9] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٣٠.
[10] - المماليك ص٢٠٦.

سيرياقوس[1]، ويقع شمال القاهرة وجعل فيها مئة خلوة صوفي، وبنى حماماً ومطبخاً، وهي بالقرب من قرية سيرياقوس الحالية التابعة لمحافظ القليوبية، وبنى السلطان مناظر سيرياقوس[2]، كما أعاد السلطان حفر خليج الإسكندرية[3]، كما حفر الخليج الكبير المعروف بخليج الغور[4]، كما أمر السلطان بحفر خليج من البحر إلى حائط الرصد، وبحفر وسط الشرق المعروف بالرصد عشر آبار[5]، وبنى السلطان مناظر الميدان الكبير، وعمر الميدان تحت القلعة وميدان المهارة، وعمر الميدان عند مورة الجبس وميدان سوق الخيل، وبنى قصر يلبغا وغير ذلك[6]، كما جدد بناء باب القلة بعد أن سبق هدمها من قبل أبيه المنصور قلاوون[7]، وكان للسلطان محمد عناية كبيرة ببلاد الجيزة، حتى أنه عمل على كل بلد جسراً وقنطرة، وبنى جسر أم دينار وعرف الجسر فيما بعد باسم حليبة أم دينار[8]، كما بنى سد شيبين القصر وأنشأ جسراً خارج القاهرة[9]، كما جدد السلطان قلعة جعبر[10]، كما أمر السلطان بتركيب باب جديد للكعبة وأرسله السلطان مرصعاً

---

[1] - المطبخ السلطاني ص٦٦ ـ ٧٠ ـ ٧١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٨٣.

[2] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص٨٠ ـ ١٨٢.

[3] - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص١١٤ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٨٠. النجوم الزاهرة في ملوك مصـر والقاهرة ج٩ ص١٧٨.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٢٤.

[5] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٠ ص١٦٠ ـ ٢١٠.

[6] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٨٤ ـ ٨٥ العراك بين المماليك والعثمانيين الأتـراك ص٥٣ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص ١٠٥ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص١٥٢ ـ ـ ١٥٣ ـ ١٥٧ ـ ١٦٠ ـ ١٦١ ـ ١٦٥ ـ ١٧١ البداية والنهاية ج١٤ ص١١٨ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٧٩ ـ ١٩٣.

[7] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص ٣٢٢.

[8] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٩٠.

[9] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٩٢.

[10] - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٢١١ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٩ ص١٧٢.

مـن السـبط الأحمـر كأنـه أبنـوس، فركـب عليـه صـفائح مـن فضـة زنتهـا خمسـة وثلاثون ألف وثلاثمائة وعشر[1].

بـني في عهـد السـلطان محمـد قصـر قوصـون بنـاه يشـبك بـن مهـدي ويقـع خلـف مدرسة السلطان حسن في ميدان صلاح الدين، ولم يبق منه سوى المدخل الرئيسي.

وأنشـأ هـذا القصـر سيف الـدين قوصون السـاقي صهر السلطان الناصر محمـد بـن قلاوون. وبنـى قصـر يشبك النـاصري، ويقـع بـين القصـرين في شـارع المعـز لـدين الله في القاهرة أنشأه الأمير سيف الدين بشتاك[2]، كمـا بنـى الأمـير بشـتاك حمامـاً لم يبـق منـه سـوى مدخلـه المكسـو بالرخـام[3]، وبنيـت خانقـاه سـنجر وسـلار ويعـرف باسـم خانقاه الجاولي وتقع في شارع مراسينا حالياً في شارع عبد المجيد اللبـان الموصـول مـن ميـدان السـيدة زينـب إلى ميـدان صـلاح الـدين في القـاهرة، وأنشـأها سـلار النـاصري وجددهـا سنجر الجـاولي[4]، كمـا فتحـت الخانقـاه الـتي أنشـأها سـيف الـدين قوصـون النـاصري خارج باب القرافة[5]، وبنيت قبة سـنجر المظفـر[6]، كمـا ألحـق الأمـير عـلاء الـدين طيبرس مدرسته حـوض مـاء وسـبيلاً وخزانـة[7]، وبنـى الأمـير قوصـون (قوسـون) وكالـة تقـع في شـارع بـاب النصـر إلى يمـين الـداخل مـن هـذا البـاب، وجعلـها فنـدقاً للتجار[8]، وكما بنى الأمير قراسنقر تربة عمـر فيهـا حـوض سـبيل ويعلـوه مسـجد[9]، وتم فـتح حمـام الزيـت الـذي في رأس درب الحجـر وجـدد عمارتـه وهـو حمـام جيـد

---

١ - البداية والنهاية ج١٤ ص١٦٢.

٢ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤٢ ـ ١٣٩ ـ ٢١٢ ـ ٢٨٩ العصر المماليكي في مصر والشام.ص٣٨١.

٣ - العصر المماليكي في مصر والشام.ص٣٨٢.

٤ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠ ـ ٢٨٩.

٥ - البداية والنهاية ج١٤ ص١٧٣.

٦ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠٤.

٧ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٧٢.

٨ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤٧ ـ ٢٣٣ ـ ٢٨٩.

٩ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٣٨.

متسع[1]، وكملت عمارة الحمام الذي بناه الأمير علاء الدين صبيح جوار داره شمال الشامية البرانية[2]، وكذلك كملت عمارة الحمام الذي بناه بهاء الدين بن عليم بزقاق الماجية من قاسيون بالقرب من سكنه، وانقطع به أهل تلك الناحية ومن جاورهم في ذلك الوقت[3]، هذا وتمت عمارة جسر باب الفرج وعمل عليه باسورة وأمر باستمرار فتحه إلى ما بعد العشاء الأخير كبقية سائر الأبواب[4]، وبنى نائب الشام تنكز الدهشة وهي قيسارية تجارية شرقي الجامع الأموي عند باب جيرون، وبنى معها السوق المجاور لها اللبادين والوراقين، كما بنى تربة لزوجته ستيتة قرب النورية في دمشق، ويذكر أنه قد بنى قلعة جعبر[5]، وبنيت سوق ساروجا أو صاروجا شمال قلعة دمشق بناه صارم الدين صاروجا[6]، وأنشئت عدة أحياء منها حارة الشالق (الشالة) وحارة ابن صبح (حارة قولي) وحارة الجامع الكريمي (حارة جامع الدقاق في الميدان) وهذه الأحياء في دمشق وأنشأ تنكز دار الذهب القديمة وكانت داخل باب الفراديس (باب العمارة) ودار الذهب الجديدة، وكانت قبالة مدرسته دار القرآن الحديثة، وقام مكانها فيما بعد خان السبيعي بالبزورية مع قسم من قصر العظم، كما بنى قصراً ضخماً خارج دمشق في القطائع شرقي القدم وعرفت الجهة بالقصر، وداراً ضخمة جانب جامعه وحماماً قرب جامعه أيضاً، كما بنى في القدم خانقاه ورباطاً وحمامين وقيسارية وسوقاً، وساق الماء إلى المسجد الأقصى ومدينة القدس، وأنشأ في صفد مارستاناً[7]، وأمر ببناء حمام في القدس، وحين وصول القناة إلى القدس ـ صادف وصوله إليها أثناء رجوعه من مصر إلى دمشق ـ وأمر

---

[1] - البداية والنهاية ج١٤ ص٩٨.

[2] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٠٢.

[3] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٠٣.

[4] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٧٤.

[5] - تاريخ البصروي ص٩٠ ـ ٩١ ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٦٠ ـ ١٦٨ ـ ١٧٢.

[6] - تاريخ البصروي ص١٢١.

[7] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٦٦ ـ ١٦٧ البداية والنهاية ج١٤ ص١٣٣ ـ ١٨٧ تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٣٤.

بعمارتها وتجديدها[1]، كما وسع الطرقات في الشام ظاهر باب الجابية من كل ما يضيق الطرقات[2]، كما أمر ببياض ودهان الجدران المقابلة لسوق الخيل في باب الفراديس وأمر بتجديد خان الظاهر[3]، كما بنى خانقاه في القدس ورباطاً وسوقاً موقوفاً على المسجد الأقصى[4]، وتم في زمن السلطان محمد بناء زاوية محمد الطعاني البسطامي في حارة الشماعين المشارقة في حلب[5]، كما بنى الأمير علم الدين سنجر الجاولي أبو سعيد بيمارستان الكرك وعمر الأمير المذكور في الكرك قصراً للنيابة وجامعاً وحماماً وخان السبيل والميدان[6]، وبنى محمد بن فضل الله بيمارستاناً في الرملة وآخر في نابلس، كما بنى أحواضاً لسقي الماء في الطرقات[7]، كما جدد في عهد السلطان محمد قلعة صلاح الدين (صهيون) وأنشأ فيها بالإضافة إلى الجامع المئذنة وحماماً[8]، كما بنى قناة جديدة في حلب لتحسين إرواء المدينة في حلب[9]، وسور الأمير قراسنقر حلب ومدينتها[10]، كما جلب الماء للأماكن المقدسة في القدس والجليل ونفذت قناة رئيسية وخزاناً لتزويد الماء في القدس[11]، كما تم بناء رباط كرد بباب الحديد بجوار السور تجاه المدرسة الأرغونية في القدس من قبل المعز السيفي صاحب الديار المصرية[12]، وتم بناء زاوية المغاربة في القدس من قبل

---

[1] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٣٣.
[2] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٥٢.
[3] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٥٧.
[4] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٨٧.
[5] - خطط الشام ج٦ ص١٥٠.
[6] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.
[7] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٦٠.
[8] - آثارنا في الإقليم السوري ص٩٤.
[9] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٤٨.
[10] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٥١.
[11] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٤.
[12] - خطط الشام ج٦ ص١٥٢.

الشيخ عمر بن عبد الله عبد الغني المغربي المصمودي[1]، وكذلك تم بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين أقطاي المنصوري الناصري كافل السلطنة[2]، وكذلك نائب الشام أمر في عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت من قبل أبي بكر بن البصيص البعلبكي، وعمر الأمير بشير الشهابي بإيعاز من والي صيدا جسراً على نهر الدامور أيضاً[3]، كما كان الكثير من الأمراء يتعهدون بأموالهم الخاصة تطوير أحياء كاملة وحتى مدناً صغيرة فمثلاً خصص الأمير أسندمر حاكم مدينة طرابلس مبالغ لإنشاء المساجد والمدارس والحمامات والخانات والأسواق في طرابلس، وبنى الأمير سنجر الجاولي قصراً وحماماً ومسجداً في الكرك، وذلك لاعتبار هذه المنشآت هامة ومن العناصر الرئيسية لإقامة مدينة كاملة صحية[4]، كما عمر سقوف المسجد الحرام وإيوانه، وعمرت في مكة طهارة مما يلي على باب شيبة[5].

٤ ـ بيبرس الجاشنكير:

قبل أن يتولى السلطنة أنشأ الخانقاه المعروفة باسمه في رحبة العيد، وهي ما تزال موجودة بخط شارع الجمالية تجاه الدرب الأصفر بجوار جامع سنقر في القاهرة داخل باب النصر، وقد أنشأ بجانب الخانقاه رباطاً يتواصل إليه من داخلها والحق بها قبة كبيرة[6].

---

[1] - خطط الشام ج٦ ص١٥٣.

[2] - خطط الشام ج٦ ص٣٠٠.

[3] - خطط الشام ج٦ ص٣٠١.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٥ ـ ١٢٦.

[5] - البداية والنهاية ج١٤ ص١٣٣.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢١٩ ـ ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ـ ٢٨٩ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٩٣ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص١٣٧ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص ١٢٠ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٤ ص٥٠ ج٨ ص٢٢٦ ـ ٢٧٦.

٥ ـ أحفاد قلاوون:

توج قبة للأمير علاء الدين كوجك بن محمد بن قلاوون[١].

بنى السلطان إسماعيل بن محمد قلاوون قاعة الدهيشة داخل القلعة في القاهرة على غرار مثيلتها بحماة، وهي عبارة عن قاعة كبيرة مرتفعة البناء مفروشة بأنواع البسط والمقاعد المزركشة[٢]، كما رسم السلطان إسماعيل للأمير علم الدين سنجر الجاولي ببناء بيمارستان غزة، كما عمر حماماً هائلاً وخاناً للسبيل[٣]، وبنيت الزاوية المهمازية غرب المدرسة المعظمة من الغرب منسوبة للشيخ كمال الدين المهمازي على مربع من الملك الصالح إسماعيل بن قلاوون[٤].

انتهت في زمن السلطان الكامل سيف الدين شعبان عمارة قصر الأمير أرغون الكاملي في الجسر الأعظم تجاه الكبش، وهذا القصر مكانها مقابل الجامع المعروف بحوش إبراهيم شركس، والجسر الذي يعرف اليوم باسم شارع مراسينا في قسم السيدة زينب في القاهرة[٥]، وبنى الأمير سيف الدين يلبغا نائب دمشق قيسارية ظاهر باب الفرج في دمشق، وكان في وسطها بركة ومسجد ظاهرها دكاكين وأعمالها بيوت للسكن[٦]، وبنيت الزاوية الجوشنية الأقصراوية نسبة لمنشئها علي الشيخ إبراهيم الكازروني[٧].

في عهد السلطان حاجي بن محمد قلاوون شيد نائب دمشق سيف الدين يلبغا اليحياوي قبة النصر وتعرف باسمه وتقع في القدم في دمشق، اتخذت محطة ومركزاً

---

١ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٦٣.

٢ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١٨٠ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٩٨ نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص١٦٤ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٠ ص٨٩.

٣ - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٤٧.

٤ - خطط الشام ج٦ ص١٥٣.

٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٠ ص١٢٧.

٦ - البداية والنهاية ج١٤ ص١٤٩.

٧ - خطط الشام ج٦ ص١٤٩.

لاستقبال القادمين من مصر ولتوزيع الذاهبين إليها[1]، كما تم الفراغ من بناء الحمامين الذين بناهما نائب السلطنة بالقرب من الثابتية في خان السلطان الضيق[2]، في حي السريجة في دمشق، وبنى قيسارية عظيمة في حارة الفرج لا وجود لها حالياً[3].

توجد للسلطان حسن تربة بالقرافة في سوق الخيل[4]، وتوجد فسقية وتعني نافورة من أروع الأمثلة للفسقيات وتوجد في صحن مدرسة حسن[5]، كما تم إنشاء البيمارستان الأرغون الكاملي في محلة قنسرين في حلب[6]، وتم في عهد السلطان حسن بناء خانقاه شيخون وتسمى الخانقاه الشيخونية من إنشاء الأمير الكبير يوسف الدين شيخون العمري في خط الصليبة قرب ميدان صلاح الدين في القاهرة[7]، كما بنيت خانقاه الأمير صرغتمش[8]، كما أنشأ الأمير سعد الدين بشير الجمدار الناصري سبيلاً وكتاباً عند الباب الجنوبي للجامع الأزهر في القاهرة[9]، وكذلك بنى الأمير سيف الدين منجك اليوسفي صهريجاً عرف باسمه ويقع خارج باب الوزير[10]، ومن آثار الأمير سيف الدين منجك اليوسفي في دمشق خانه الذي كان خارج باب النصر وحمام في العمارة وقد حول إلى دور فيما بعد، وزاوية في الكسوة

---

[1] - تاريخ البصروي ص٥٠ ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٩١ ـ ١٩٥ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٥٤.

[2] - البداية والنهاية ج١٤ ص٢٢٠.

[3] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص١٩١.

[4] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٠١.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٦.

[6] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢٠١ خطط الشام ج٦ ص٦٦ تـاريخ البيمارسـتانات في الإسـلام ص٢٥٢ ـ ١٥٨ آثارنا في الإقليم السوري ص٧٧.

[7] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١٠٥ الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٩ ـ ١٠٩ ـ ١١٣ ـ ٢٨٩ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص٢٧١.

[8] - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج٢ ص١٦.

[9] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٧٣.

[10] - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص٤١٨.

جعل بها دار ضيافة للمسافرين[1]، وبنيت زاوية قطليجا في محلة محمد بك في حلب[2]، كما بنيت زمن السلطان حسن الزاوية الشيخونية بالقرب من الصلاحية عن سويقة باب حطه في القدس من قبل الأمير سيف الدين قطيشا بن علي من رجال قلعة دمشق[3].

في عهد السلطان الصالح صلاح الدين بنى محمد بن الأمير سيف الدين قصره بجوار المدرسة البندقدارية تجاه حمام الفارقاني على يمين من سلك من الصليبة، وتولى الأمير منجك اليوسفي في بنائها وعرفت فيما بعد باسم مدرسة السيوفية في شارع السيوفية في القاهرة[4]، كما كتب على قسطل عند حمام التل في حلب بأن أمر بعماره من قبل الأمير بيبغا[5]، كما بنيت زاوية الطواشية في حارة الشريف وتعرف بحارة الأكراد في القدس من قبل الشيخ شمس الدين محمد جلال الدين[6].

أكمل في عهد السلطان محمد بن حاجي مدرسة السلطان حسن من قبل بشير الجمدار، وتم بناء القبة الكبيرة التي تقع خلف جدار القبة للمدرسة المذكورة[7]، وأقيمت حفلة بمناسبة الانتهاء من تكامل تجديد بيمارستان الدقاني جوار الجامع الأموي من قبل الغرب بدمشق[8]، ومن المعروف أن نواعير حماه تعود إلى عصور مختلفة لكن من أقدمها اثنتين من العصر المملوكي وهما المحمودية[9]، كما بنيت زاوية تكية باب بيرم للقلندية[10] في حلب، وتم بناء الرباط المارديني بباب حطة مقابل

---

[1] - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٢١٥.

[2] - خطط الشام ج٦ ص١٥١.

[3] - خطط الشام ج٦ ص١٥٣.

[4] - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٠ ص٢٦٥.

[5] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢١٦.

[6] - خطط الشام ج٦ ص١٥٣.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٢٤.

[8] - تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٥٩ ولاة دمشق في عهد المماليك ص٢٢٥.

[9] - آثارنا في الإقليم السوري ص١٠٣.

[10] - خطط الشام ج٦ ص١٥١.

الكاملية وهي بجوار التربة الأوحدية في القدس، وتم بناء الزاوية المحمدية بجوار البارودية من جهة الغرب في القدس من قبل محمد بن زكريا الناصري[١].

أمر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بعمارة الإسكندرية وإصلاح ما تهدم منها إثر هجوم الإفرنج عليها، وذلك حينما كان السلطان يجاهد في سيرياقوس، وحين عودة السلطان هرب الفرنجة منها[٢]، وبنى الأمير بكتمر المؤمني أمير أخور السلطان شعبان سبيل المؤمني أو المؤمنين تحت قلعة الجبل في شارع العطارين[٣]، وفي عهد منكلي بغا أكمل بناء القيسارية قبلي سوق الدهشية[٤]، كما برز مرسوم من السلطان بأن يسمح لنائب دمشق منكلي بغا الشمسي بإعادة فتح باب كيسان حيث كان مغلقاً أكثر من مائتي عام من وقت إغلاقه في عهد نور الدين الشهيد، وباب كيسان ينسب إلى كيسان مولى معاوية، كما يسميه النصارى باب يونس، وهو أحد أبواب سور دمشق، ويقع في الزاوية الشرقية الجنوبية، كما عقد عليه قنطرة كبرى ومد له إلى الطريق المسلوك جسراً، وعمر الخان عند جسر الجامع، وكذلك الخان في سعسع على طريق دمشق القنيطرة، والخان المذكور غير خان سنان في سعسع[٥]، كما تكاملت عمارة حمام منجك في بصرى الشام في محافظة درعا[٦]، ونذكر أقدم مثال للسبيل والكتاب هي الموجودة بمدرسة الجالي اليوسفي التي أنشأت في عهد السلطان شعبان[٧]، بنيت زاوية مقرها عند جامع الطواشي في حلب بنيت من قبل أمير السلاح ألجاي فجعلها للفقراء والمترددين والصالحين الواردين إليها[٨]، كما بنيت زاوية تجاه بستان الكلاب في جنوبي بستان إبراهيم آغا من

---

١ - خطط الشام ج٦ ص١٥٣.

٢ - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ص٢٢٢.

٣ - تاريخ البصروي ص٣٧.

٤ - ولاة دمشق في عهد المماليك ص٢٢٨.

٥ - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص١٢١ أنباء الغمر بأبناء العمر ص٥٨.

٦ - أنباء الغمر بأبناء العمر ص١٢.

٧ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٨.

٨ - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢١٠.

إنشاء بدر الدين بن زاهرة منتزهاً من بعد جلبان كافل حلب وجعلها زاوية وهي اندثرت، وكذلك بنيت زاوية القادرية وتنسب للأمير جلبان على رأس باب الجنان[1].

في عهد السلطان حاجي بن شعبان ومن أعمال المقر السيفي جركس الخليلي تم إنشاء جسر بين الروضة والجيزة في مصر وعمل طاحونة تدور بمياه النيل وحفر وسط البحر خليجاً إلى فم الخليج الناصري عند موردة الجبس[2]، كما أنشئت قبة يونس (أنس) الدوادار، تقع في الجهة البحرية الغربية بالخانقاه الظاهر فرج بن برقوق بقرافة المماليك[3].

في سورية عقد جسراً بحجارة على نهر بردى عند جامع يلبغا حيث كان فيما سبق مصنوعاً من الخشب، وعمل الجسر الطنبغا أستدار جندمر، ثم عمل نظيره مقابله على نهر الخندق ويدعى النهر حالياً بنهر عقربا وقديماً سمى النهر المجدول[4].

٦ ـ برقوق وأولاده:

بنيت خانقاه برقوق في شارع النحاسين، وجعلت الخلوات منفصلة في أربع وحدات سكنية[5]، وهناك له تربة معظمة حافلة هائلة في الصحراء بمدافن الخلفاء، وكان الابتداء بعمارتها ٨٠١هـ وفرغ منها ٨١٣هـ، وجدد السلطان القناة التي تجعل النيل إلى قلعة الجبل، وأصلح الميدان تحت القلعة، وبنى صهريجاً للماء ومكتباً، كما أقام طاحونة في القلعة وسبيلاً تجاه باب بيت الضيافة وأمام القلعة[6]، وأقام برقوق جسراً على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وجزيرة الروضة من طرفها البحري، وهذا الجسر الذي عجز عن إقامته كثير من السلاطين السابقين لبرقوق،

---

١ - خطط الشام ج٦ ص١٥٠.

٢ - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ج٢ ص٢٦٠ أنباء الغمر بأبناء العمر ص٧٨٣ ـ ٧٨٤.

٣ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٧ ـ ٢٨٩.

٤ - أنباء الغمر بأبناء العمر ص٢٧٤.

٥ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٩ الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص٧٠ مصر والشراكسة ص١٠٧.

٦ - قيام دولة المماليك الثانية ص١٠٧ الجوهر الثمين في ملوك مصر والقاهرة ج١٢ ص١١٥.

وعهد برقوق بإقامة هذا الجسر إلى الأمير جهاركس (جاركس) الخليلي[1]، كما أنشأ برقوق قاعة جديدة للمظالم[2]، وبنى السلطان قناطر بني منجا وأحكم عمارتها، كما توجه شهاب الطيلوني لبناء برجين في دمياط[3]، كما بنى برقوق زاوية البرخ في دمياط[4]، وسور دمنهور[5]، كما أصلح برقوق قلعة دمشق وصار لهذا الإصلاح أكبر الأثر في مقاومة هجمات الأعداء من التتار فيما بعد[6]، كما نفذت على حساب السلطان برقوق الترميمات المختلفة للقناة الرئيسية ومشروع تزويد القدس بالماء[7]، كما بنى السلطان قناة العروب في القدس[8]، كما بنى السلطان برجاً في العريش في فلسطين[9]، ومن قبل السلطان أيضاً تم إنشاء جسر على نهر الأردن (الشريعة) في الغور بين دمشق وبانياس[10]، وبنى أيضاً بركة بطريق الحجاز، وبركة أخرى برأس وادي بني سالم[11].

أنشئ في عهد السلطان برقوق فندق وربع ينسب للأمير جمال الدين يوسف أستادار، وأمر السلطان برقوق أن تكون دار وكالة يرد إليها القادم من الشام ومن

---

١ - قيام دولة المماليك الثانية ص١٠٦ ـ ١٠٧.

٢ - نظم دولة المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص١٥٧ ـ ١٥٨.

٣ - أنباء الغمر بأبناء العمر ص٣٠٨.

٤ - قيام دولة المماليك الثانية ص١٠٧ الجوهر الثمين في ملوك مصر والقاهرة ج٢ ص١١٤.

٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٢ ص١١٤.

٦ - قيام دولة المماليك الثانية ص١٠٧.

٧ - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٤.

٨ - قيام دولة المماليك الثانية ص١٠٧ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٢ ص١١٤.

٩ - تاريخ البصروي ص٧٤.

١٠ - مدن الشام في العصر المملوكي ص٣٦٧ خطط الشام ج٥ ص٣٠١ قيام دولة المماليك الثانية ص١٠٧ مصـر والشراكسة ص٥٧ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٢ ص١١٣.

١١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١٢ ص١١٤.

البحر المتوسط[١]، كما أنشأ الأمير جهاركس الخليلي خاناً وعرف باسمه ولم يبق له أثر سوى الاسم[٢].

بني في عهد السلطان حمام الود ويقع إلى الشمال من جامع الورد في سوق ساروجة في دمشق[٣]، وبني في دمشق خانقاه اليونسية أول الشرف الأعلى شمالي شرقي الخانقاه الطواريسية أنشأها الأمير يونس داودار الظاهر برقوق وهدمت فيما بعد وجعلت طريقاً[٤]، كما بنيت زاوية الجعفرية في زقاق فرن جقجوقه في سويقة حاتم في حلب[٥]، كما بنى السلطان بركة بطريق الحجاز إلى الحج، كما جددت خوند شرين الخوزي في مكة[٦].

تم بناء مدفن السلطان برقوق الذي تمت عمارته في عهد ابنه الناصر فرج وقد روعي في تصميمه أن يكون على هيئة مجمع يضم مسجداً كبيراً وضريحاً للظاهر برقوق وأفراد أسرته وخانقاه للصوفية[٧]، وبنى السلطان فرج خانقاه (الناصرية) وقبة عرفت باسمه وتقع في الجزء البحري في قرافة المماليك بجوار قبة يونس الداودار في القاهرة وشاركه في بعض كمالياتها أخوه السلطان عبد العزيز[٨]، كما عمل فرج زاوية عرفت باسمه أيضاً[٩]، كما بنيت زاوية شمالي جامع جراح في دمشق للمغاربة وتعرف بزاوية المغاربة أنشأها علاء الدين الشهير بابن وطية الموقت[١٠]، وبعد أن خرب

---

١ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٤٠.

٢ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٤٥ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ص هـ ـ ـ من المقدمة النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١١ ص٣٨٤.

٣ - تاريخ البصروي ص١٤٣.

٤ - خطط الشام ج٦ ص١٣٧.

٥ - خطط الشام ج٦ ص١٥٠.

٦ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص١٨.

٧ - العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٨١.

٨ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٣٩ ـ ٢٣٠ ـ ٢٨٨ الحركة العلمية في مصـر في دولة المماليك الجركسية ص٧٠.

٩ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٥٢.

١٠ - خطط الشام ج٦ ص١٤١.

تيمورلنك أسوار قلعة حلب حرقها إلى أن جاء الأمير سيف الدين حكم نائباً من قبل السلطان فرج فأمر ببناء القلعة وألزم الناس بالعمل في الخندق وإزالة التراب منه حتى أنه عمل بنفسه أيضاً[1].

أنشئت في عهد السلطان فرج قبة كزل (كركر) في الصحراء الشمالية من قبل أحد أمرائه وهو الأمير كزل بن عبد الله الناصري الظاهري[2]، وبعد الحريق في المسجد الحرام أواخر شهر شوال عام٨٠٢هـ أعيد ما حرق وأعيد السقف خشبياً كما كان[3].

٧ ـ الشيخ المؤيدي:

أهم ما قام به السلطان هو بناء البيمارستان تجاه طبلخانة القلعة، بسكة الكومي، ولم يبق منه سوى بقايا[4]، كما بنى السلطان السد بين الجامع الناصري وبين جزيرة الروضة[5]، كما بدأ بحفر البحر تجاه منشآت المهراني[6].

خرب المغول سور حلب عام ٦٥٨هـ فأعاد المماليك إنشاءه وجعلوا له أبواباً تغلق، ثم اقتحمها المغول، بزعامة تيمورلنك أواخر القرن الرابع عشر الميلادي فخربوا السور فأعيد ترميمه وتقويته، وكان أكثر السلاطين عناية بحلب وأسوارها السلطان المؤيد شيخ، كما جدد في عهد المؤيد شيخ باب إنطاكية[7]، وكذلك البرج عند باب فنسرين[8].

---

[1] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٩٦.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٧١ ـ ٢٨٨.

[3] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص٨٥.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤٦ ـ ١٤٠ ـ ٢٨٩ تـاريخ البيمارسـتانات في الإسلام ص١٠ ـ ١٧٢ ـ ١٧٧ مصر والشراكسة ص١٠٧.

[5] - المطبخ السلطاني ص٦٩ المماليك ص٢٠٦.

[6] - المطبخ السلطاني ص٦٩.

[7] - آثارنا في الإقليم السوري ص٧٢.

[8] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢١٣.

أعاد أحد الأمراء في عهد المؤيد مدينة صور وأضاف إليها تحصينات وأسواقاً جديدة[1]، كما بنى نائب دمشق جقمق الداودار سوقاً عرف باسمه ويقع قرب خان (التكة) أو (الدكة) كان في أول سوق مدحت باشا يباع فيه الثياب كما بنى خاناً أيضاً[2].

٨ ـ الأشرف برسباي:

بنيت خانقاه الأشرف برسباي وهي عبارة عن خانقاه لإقامة الصوفية ولها حوش كبير، وفيها قبة لأخيه الأمير يشبك وأقاربه، وفيها مصلى وتوجد فيها قبة حجرية ويلاحظ زخرفة القباب من الخارج فأصبحت تكسو سطح القبة كلها. هذا وتقع الخانقاه تجاه منشآت السلطان الأشرف قايتباي في القاهرة[3]، وتوجد تربة بالصحراء في القاهرة بجوار تربة الناصر فرج[4]، وله قناطر[5].

اعتنى برسباي بقلعة حلب فبنى الأسوار الخارجية له وجدد باب المقام[6]، كما بنيت زمن السلطان زاوية تغري برمش، كافل حلب قرب جامع الأطرش في حلب[7].

٩ ـ الظاهر جقمق:

بنى السلطان جقمق رصيفاً هائلاً في بولاق، وجسراً في أسيوط، وسوراً في خانقاه سيرياقوس، وقرر لأهل الحرمين دهشة للفقراء في كل يوم، وكان مهتماً بالترميمات لأماكن العمران المختلفة وتجديدها وخاصة القناطر والجوامع ونحوها من المصالح العامة، فتجدد قناطر بني منجا وقنطرة باب البحر، وقناطر يبري

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٦.

[2] - تاريخ البصروي ص١٨١.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤١ ـ ١٧٤ الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص٧٠ مصر والشراكسة ص١٠٧.

[4] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٣١ من مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣١٣.

[5] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣.

[6] - آثارنا في الإقليم السوري ص٧٢ ـ ٧٣.

[7] - خطط الشام ج٦ ص١٥١.

الدمسيس، وقناطر أمين الدين اللاهوت في مصر، وقناطر الرستن بين حمص وحماة[1].

بنى تغري بردى تربة هائلة بالقرب من تربة الأشرف إينال في الصليبة والآن هي بحي طولون ووقف كتبه وتصانيفه بها، كما بنى سبيلاً وكتاباً في الجانب الأيمن من الواجهة الشرقية يسار الداخل إلى مدرسته[2].

١٠ ـ الأشرف إينال:

بنى الأشرف إينال تربة حسنة في الصحراء في الصليبة في شارع السلطان أحمد بقرافة قايتباي في حي طولون، ولم تكن مجرد تربة فقط، وإنما كانت إلى جانب ذلك مجموعة معمارية، أريد منها الصلاة والتعليم[3]، وبنى السلطان خانقاه أيضاً[4]، كما تم بناء رباط زوجة السلطان إينال في شارع الخرنفش في القاهرة[5].

بنيت في عهد السلطان إينال القنوات والنواعير في حرم الخليل[6]، كما تم عمارة القبة التي أنشأها أحد الأمراء في منشية المهراني[7].

١١ ـ الأشرف قايتباي:

أنشأ السلطان قايتباي أيام سلطنته العديد من الأعمال العمرانية في جميع أنحاء سلطنته نذكر منها ما أنشأها في القاهرة فقد بنى جامعاً بباب الخرزف عند الشيخ سلطان شاه، وأنشأ بقربه سبيلاً ومكتباً. كما أنشأ زاوية في المرج والزينات، وأنشأ

---

[1] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٣٤ ـ ١٣٥ تحفة الناظرين فيمن ولي مصـر مـن الـولاة والسلاطين ج٢ ص٣٨.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠٦ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص٢٥.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠٦ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٣٧ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج٢ ص٣٨ مصر والشراكسة ص١٠٧.

[4] - الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص٧٠.

[5] - مصر والشراكسة ص١٠٧.

[6] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٤.

[7] - الطرب في العصر المملوكي ص١٠٢.

السبيل برأس سويقة عبد المنعم وأنشأ عدة زوايا، وسبيلاً وصهاريج وعدة ربوع وحوانيت في القلعة وأنشأ المقعد داخل الحوش وبيتين حوله، وبنى حواصل بجوار قاعة البحرة، وجدد عمارة الإيوان الناصري في القلعة، وكذلك قاعة العرش فيها أيضاً، وأنشأ مواضع كثيرة في القلعة، وجدد عمارة قنطرة باب البحر، وجدد عمارة أبو المنجا والقنطرة التي في شرمنت في الجيزة، وأنشأ هناك رصيفاً، وجدد عمارة قنطرة باب البحر، وجدد عمارة الميدان الكبير الذي بجوار بركة الناصري وقد أنشأ مقعداً وحديقة في دار البقر التي تحت القلعة، وجدد مقام سيدي أحمد البدوي، وأنشأ عدة قناطر وجسور في الشرقية والغربية، وأنشأ السبيل والمكتب قرب سوق تحت الربع وجدد عمارة الإمام الشافعي رحمه الله، وأنشأ زوايا في القاهرة، وأنشأ قرب جامع الأزهر، وأنشأ الخان الذي كان عند خان الخليلي[1]، وجدد بناء زاوية الشيخ عماد الدين، وجدد عمارة باب القرافة، وأنشأ مقعداً ومبيتاً وحديقة بدار البقاء تحت القلعة، وأنشأ عدة ربوع في الخشابين والبندرقانيين والجامع الأزهري[2]، وغير ذلك، كما بنى السلطان سبيلاً وكتاباً مستقلاً عن أي بناء آخر، ويقع في نهاية شارع الصليبة بالقرب من ميدان صلاح الدين في القلعة[3]، كما جدد السلطان سبيل المؤمني أو المؤمنين تحت الجبل في القاهرة في شارع العطارين[4]، كما بنى قبة حجرية على مقرنصات[5]، وبنى قصر الجوهرة وتقع جنوبي جامع محمد علي باشا في القلعة[6]، كما بنى الوكالة التي سميت في شارع النصر في

---

[1] - القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص١٢٥ العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٦٦ ــ ٢٦٧.

[2] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٠٦ ــ ٢٠٧ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٤٥ آثارنا في الإقليم السوري ص١١٥ مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ص٣١٧ ــ ٣١٨ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص١٢٥.

[3] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١١٧ ــ ١١٨ ــ ٢٨٩.

[4] - تاريخ البصروي ص٣٧.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤١ ــ ٢٧٦ مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ص٣١٣.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٥٥.

القاهرة[1]، كما بنى وكالة السلطان قايتباي في شارع الأزهر، وبنى بيت السلطان في سكة المارداني، وبنى سبيلاً وكتاباً في شارع شيخون، كما بنيت أيضاً في عهده قبة الفداوية في شارع العباسية، وكذلك مقعد بيت القاضي ، ويعرف باسم مقعد ماماي في ميدان بيت القاضي وكل هذه الأمكنة في القاهرة[2]، كما بنى السلطان خانقاه[3]، ويعتبر مدفن قايتباي في الصحراء الشرقية في القاهرة من أهم العمائر الباقية في عصر السلاطين الشراكسة[4].

أنشأ السلطان في الإسكندرية برج المنار العظيم مكان المنار القديم وحصن الإسكندرية، كما بنى برجاً في ثغر رشيد وحصناً فيها[5]، وبنى حصن دمياط[6].

بنى في بلاد الشام بيوتاً ودكاكين في دمشق، وبنى حمام السلطان قايتباي قرب حمام الحموي في زاوية أول الطريق المتجهة من مسجد الأقصاب إلى باب السلام في دمشق وعلى رأس الحمام اسم قايتباي، كما بنيت وكالة بالقرب من الحمام اندثرت كما نفذ قناة رئيسية ومشروع خزان لتزويد القدم بالمياه، كما جدد السلطان قنوات جر المياه[7].

جدد في حلب باب الفرج[8]، وكذلك جدد السلطان في حلب قسطل الرمضانية[9]، وانتهت أعمال تجديد وإعادة عمارة وفتح قلعة

---

1 - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٣٣ ـ ٢٩٠ مصر والشراكسة ص١٠٨.

2 - مصر والشراكسة ص١٠٨.

3 - الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجركسية ص٧٠.

4 - العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٨١ مصر والشراكسة ص٨٥.

5 - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٠٦ ـ ٢٠٧. نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١١٣ مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ص٣٢٣ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص١٢٥ مصر والشراكسة ص٨٥.

6 - مصر والشراكسة ص٨٥.

7 - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٠٦ ـ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٦٤ مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٤.

8 - آثارنا في الإقليم السوري ص٧٣ تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢١٢.

9 - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢١٥.

عينتاب[١]، وحينما وصل السلطان في رحلته للشام إلى العريش بنى برجاً فيها[٢]، كما رسم السلطان قايتباي عمارة خان وادي التيم، كما أمر أيضاً السلطان بعمارة جسر قرب مناظر الدركوش، كما أمر بإعادة الجسر الذي عمره السلطان إينال في تغري بعد أن خرب وردم، كما أمر بعمارة خان في سعسع على طريق دمشق القنيطرة، كما أمر بإصلاح قلعة صفد وعمارتها وإجراء الماء إلى البلد من العين[٣].

جدد في الحجاز عمارة المسجد النبوي الشريف، كما أنشأ في مكة عدة ربوع[٤]، كما حفر في نمرة صهريجاً وعمر بكرة خليص وأجرى العين الطيبة لها وعمر سقاية سيدنا عباس وأصلح بئر زمزم والمقام[٥].

بأمر من السلطان للأمير يشبك (أشبك) بن مهدي الداودار تم تعلية وإصلاح باب زويلة في القاهرة[٦]، بعد أن أصلح قصر قوصون للأمير يشبك زاد فيه زيارات ونقش اسمه ولقبه ورنكة على جانبي مدخل القصر[٧]، والجدير بالذكر أن يشبك أنشأ أشياء كثيرة غيرها من العمائر في الديار المصرية من ربوع وحوانيت ودور جليلة وصهاريج (خزانات مياه) ومغاسل وأسبلة وزوايا، كما أنشأ قبة الطربة، وقبة برأس الحسينية[٨]، وبنى الأمير أزبك بن ططخ الجركسي قصره المشهور في المنطقة التي عرفت باسمه وهي (الأزبكية)، وأنشأ حديقة الأزبكية المعروفة في وسط القاهرة وأجرى إليها الماء وأنشأ فيها البساتين والمباني والحمامات ثم حفر بركة، وجمل شواطئها وكذلك من منشآته قناة الجيزة[٩]، أما بلباك فأنشأ النواعير في حماة

[١] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص١٢٩.
[٢] - تاريخ البصروي ص٧٤.
[٣] - القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ص٥٢ ـ ٦٠ ـ ٦٤ ـ ٨٩ ـ ٩٢.
[٤] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٠٦ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٤٥ ـ ـ ١٤٦.
[٥] - مصر والشراكسة ص٨٥.
[٦] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٩٢.
[٧] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص١٣٩.
[٨] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص١٧٥ ـ ١٧٦ تاريخ البصروي ص٤٨.
[٩] - مصر والشراكسة ص٨٠ ـ ١٣٤.

المعروفة باسم المأمورية[1]، وبنى أزدمر بن عبد الله الشركسي والي حلب فيها العديد من المباني منها خان في سوق الصابون، وحمام في ساحة باب المقام، وأقام تربة بقرب سوق الأنصاري، كما جدد سبيلاً من قبل برد بك، كما بنيت زاوية الحزيراتي في حلب من قبل قانصوه اليحياوي كافل الحلبية[2]، وتم بناء الرباط الزمني في باب المتوضاء تجاه المدرسة العثمانية في القدس من قبل شمس الدين محمد بن الزمن أحد خواص الملك قايتباي[3].

١٢ ـ قانصوه المحمودي:

أنشأ السلطان الظاهر قانصوه أبو سعيد قبة في القاهرة[4].

١٣ ـ الأشرف جانبلاط:

صاحب التربة خارج باب النصر، ذات المنارة بالرأسين وذات القبتين وله الدار الحافلة بخط الكافوري[5].

١٤ ـ العادل طومان باي:

أنشأ السلطان تربة حافلة أيام أمرته بالريدانية[6] كما أنشأ في حلب خاناً عرف باسمه قرب العين المباركة في الجنوب الغربي من حلب[7].

١٥ ـ قانصوه الغوري:

جدد السلطان العديد من العمران فمثلاً جدد الميدان وأعلى شرفاته وهو يقع تحت القلعة، وأنشأ في الجهة الغربية من الميدان قصراً ومنظرة وبحرة، وأنشأ قصراً على باب الميدان مطلاً على الرملة، وأمر بتجديد عمارة سبيل المؤمني، وجدد

---

١ - آثارنا في الإقليم السوري ص١٠٣.

٢ - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٨٣ ـ ٢٠٧ ـ ٢١٠.

٣ - خطط الشام ج٦ ص١٥٢.

٤ - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٤٤ ـ ٢٩٠.

٥ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٥٢.

٦ - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٥٤.

٧ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٨٤.

أمـاكن في القلعـة منهـا الدهيشـة، وقاعـة البيسـرية، وقاعـة العواميـد[1]، وقاعـة البحرة، وأنشأ المقعد القبطي الذي في الحوش، وجدد عمارة المطبخ وعمارة القصر الكبير الذي في القلعة وسائر البيوت فيها[2]، وأنشأ في الميدان القلعة المجراة ودارت الدواليب فيها وجرى الماء في المجراة حتى وصل إلى الميدان الذي تحت القلعة[3]، ومن الجديد بالذكر قصر قانصوه الغوري الذي بالصليبية بالقرب من جامع ابن طولون وما زالت أثار منه باقية، كما بنى أبنية كثيرة في مكان قصر الجوهرة الذي يقع جنوبي جامع محمد علي باشا في القلعة في القاهرة[4]، ومن أكمل الوكالات التي احتفظت إلى اليوم بالكثير من معالمها وكالة قانصوه الغوري التي تقع بحي الأزهر في الغورية، كما هدم السلطان الغوري خان الخليلي وأنشأ مكانه حواصل وحوانيت وربوعاً ووكالات يتوصل إليها من ثلاث بوابات[5]، وكذلك أمر السلطان الغوري بإبطال المجرى القديم عند درب الخولي بالقلعة في القاهرة، وشرع في بناء مأخذ ذي ست سواق (أقنية) على النيل عند فم الخليج تسير في قناطر تمتد لتتلاقى عند بقايا قناطر الناصر محمد بن قلاوون بالقرب من مشهد السيدة، ثم بسور صلاح الدين القديم وظلت تؤدي أعمالها إلى القرن التاسع عشر[6]، كما بنيت قبة مدفن وخانقاه ومقعد الغوري وتقع هذه المنشاة على رأس تقاطع شارع الغورية بشارع الأزهر، تحتوي على واجهتين الغربية وتشرف على شارع الغورية الشمالية وتطل على شارع الأزهر[7]، وأقام السلطان قلعة الطينية على ساحل بحيرة المنزلة وفيها عدة

---

[1] - مصر والشراكسة ص٩٨.

[2] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص١٥٦ ـ ١٥٧ نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣.

[3] - مصر والشراكسة ص٩٧.

[4] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤٧ ـ ١٠٥ ـ ١٥٥ ـ ٢٩٠.

[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٧٩ ـ ٢٣٣ ـ ٢٤٦ مصر والشراكسة ص٩٨ ـ ١٠٨.

[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٤٧.

[7] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٨٠ ـ ٢٩٥ الحركة العلمية في مصـر في دولـة المماليك الجركسية ص٧٠.

أبراج، وكذلك الأبراج والأسوار التي بناها في رشيد، بالإضافة إلى تجديد أبراج الإسكندرية[1].

عمر السلطان في مكة المكرمة باب إبراهيم، وبيوتاً حوله منها بناء فسقية خارج باب إبراهيم على يمين الخارج وقناة تحت باب الوداع المدخل السيول المستجمع في المسجد الحرام وقت السيل، كما أمر السلطان بمد طريق الحج[2]، وأقام به كثيراً من الاستراحات والآثار[3]، ومن أعماله ترخيم في حجر البيت الشريف، ومنها بناء سور جدة فإنها كانت بلا سور[4].

بنى في قلعة حلب جسراً ومدرجاً يقوم على ثماني قناطر، كما بنى برجاً مستطيل الشكل فيه كتابات تدل على أنه من بناء السلطان الغوري، كما بنى باب حلب وهو في الزاوية الشمالية الشرقية من السور، وكذلك باب الحنان في حلب وأعيد بناء برجه مع ملاحظة أن باب الحنان هدم لتوسيع الطريق ولم يبق له أثر حالياً[5]، كما جدد حمام الأشرف الجمالي في حلب من قبل السلطان[6]، كما بنيت زاوية التسيمي تحت القلعة في حلب كانت مسجداً جددها قانصوه الغوري[7]، وأمر السلطان الغوري بتولي التقي برسباي الأشرف نائب القلعة في حلب بتجديد عمارة باب القلعة والبرج الشمالي وبرج القلعة القبلي[8].

بنيت في عهد السلطان قبة قايتباي الرماح[9]، كما بنى خير بك من مال باي بن عبد الله الشركسي نائب حلب العديد من الخانات في حلب منها خانه الأعظم وداره

---

[1] - مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة ص٣٢٣ مصر والشراكسة ص٩٨ مدن الشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٧٠.

[2] - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج٢ ص٥٨ مصر والشراكسة ص٩٨.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص١٩٠ مصر والشراكسة ص٩٨.

[4] - نور المقابس في تواريخ الجراكس ص١٣.

[5] - آثارنا في الإقليم السوري ص٧٣ ـ ٢١١.

[6] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢١٥.

[7] - خطط الشام ج٦ ص١٤٩.

[8] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٩٩ ـ ٢٢٢.

[9] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٤١.

في محلة سويقة حاتم في حلب[1]، كما ألحق بمدرسة خير بك في القاهرة مدفنان أحدهما كبير يعلوه قبة بصلية الشكل تقوم على رقبة برقعة يحيط بأعلى الجدار وزرة رخامية يعلوها نص كتابي يضم ألقاب خير بك وتاريخ الإنشاء أما المدفن الآخر صغير يغطيه قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية، كما ألحق بالمدرسة سبيل يقع في الجهة الجنوبية الشرقية يتكون من عدة طوابق[2]، كما أنشأ سيباي ابن عبد الله الشركسي خلاء الجامع الكبير[3]، كما بنى سيباي في دمشق مزاراً جنوبي دار السعادة ويعرف بمزار سيدي عامود، وأنجز قناة العوني جنوبي السويقة وقصر حجاج، وأقام إلى جانبها مجموعة من المنشآت ذات النفع العام، وجدد خاناً له يدعى خان نقيب الأشراف جنوبي حارة السماق، ومن باب الجابية، وشرع في بناء تربة عند باب الجابية وبعد شهر توفيت والدته فكان أول من دفن فيها[4]، كما تجد في مدرسة الأمير قرقماش مجموعة معمارية تشمل سبيلاً يعلوه كتاب وقبة ومدفن لصاحب المنشاة[5]، في شارع السلطان أحمد بقرافة قايتباي في القاهرة، كما جدد باب الأحمر وباب الحديد في حلب من قبل المقر السيفي أيرك[6]، كما تم بناء بوابة خان الخليلي في القاهرة[7].

---

[1] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٨٤.
[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٦٦.
[3] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص١٨٤.
[4] - دمشق في عصر المماليك والعثمانيين ص٦٥ ـ ٦٦.
[5] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٢٧٩ مصر والشراكسة ص١٠٨.
[6] - تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ص٢١٣.
[7] - مصر والشراكسة ص١٠٨.

أقوال وحقائق

١ ـ أقوال ضد عصر السلاطين:

كتب البعض ضد عصر السلاطين وخاصة الأجانب[١]، ودون ذكر الأسباب، ومنهم ذكر بعض الأسباب غير المقنعة، وتجد لدى البعض كراهية واضحة لذلك العصر، فتجد عبد الله الباسط شاهين: (الوارد في قوله مترجماً للصالح نجم الدين أيوب: وهو الذي جلب المماليك إلى مصر وليته ما فعل)[٢]، وبغض النظر وقبلهم الأيوبيون ليسوا من العرب، يذكر أن سبب استقدام الملك الصالح لهم، له قصة ذكرها المقريزي وهي أنه لما تم إمساك الصالح وسجن، وتفرق الأكراد وغيرهم من العساكر عنه، لم يبق معه سوى المماليك فرعى لهم ذلك وزاد فيهم[٣].

ذكر سبب العداء لعصر السلاطين بأن العثمانيين الذين أتوا من شرق آسيا، واستوطنوا الأناضول، وأنشأوا الدولة العثمانية، والتي حاولت بسط سيطرتها على البلاد العربية، كان السلاطين يحكمونها بتوكيل من خليفة المؤمنين العباسي في مصر، ذلك العداء الذي استمر زهاء قرن ونصف القرن، وبتعاون من الأوربيين في شراء الأسلحة والمدافع، استطاعوا احتلال البلاد العربية، والقضاء على الخلافة الإسلامية العربية العباسية وتلك الحروب ومقاومة السلاطين الشراكسة أفرزت كراهية العثمانيين للشراكسة، فبمجرد دخولهم مصر أثناء عودتهم أخذوا الكتب القيمة الموجودة في المكتبات المصرية، وشوهوا البعض منها، وأتلفوا بعض الصفحات، حتى الصناعات وأصحاب المهن ساقوهم معهم إلى استامبول، وفرضوا اللغة التركية لغة رسمية للدولة، وبالطبع كافة الكتابات بعد سيطرة العثمانيين ظهرت لتكتب بأن حكمهم هو الصحيح والشرعي والعادل وأن سابقيهم كفرة ظالمون، وتأمر بعض الكتاب العرب بالأتراك لسبب ما وعلى الأرجح شخصي. ولا

---

[١] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٣ ـ ٢٠.

[٢] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٢٩.

[٣] - نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ص٢٩ ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٦٦.

تنس بأن العثمانيين سيطروا على البلاد العربية قرابة أربعمائة عام وتلك الفترة كافية لتأثر البعض بهم وبأقوالهم[١]، أو على الأقل التملق إليهم.

سبب آخر لكره العثمانيين للشركس يتجلى في الحروب القفقاسية الروسية لمواقفهم غير الصحيحة - أي العثمانيون فيما بعد - مع قياصرة الروس على تهجير الشركس عن موطنهم الأصلي وتشتيتهم إلى أكثر من خمسين دولة في العالم حالياً. ولكن في كل بقعة وصلها الشركس - مع أن العثمانيين وضعوهم في أمكنة متفرقة وفي أمكنة غير آمنة كما سميت وقتها، ومع كونهم مهجرين - كانوا (يتميزون بأخلاقهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية والمعيشية، كما أنهم أينما حلوا كانوا يفرضون احترامهم وتقديرهم ويشكلون طائفة متفوقة رغم فقرهم)[٢] ، ومع وصولهم حديث بعض الأجانب بسبب عدم تمييز المواطنين بين الشركس والأتراك وغيرهم. ولكن بعد فترة حدث الوفاق وأصبحوا كأهل البلد يعملون ويعيشون معاً بأمان وسلام.

كان للأجانب أغراض ضد السلاطين وزمنهم حيث كانوا يحملون بين ضلوعهم ضغائن لعدم تمكنهم من وصولهم إلى آمالهم في استملاك الشرق[٣].

يكتب البعض عن عصر السلاطين بأن أعمالهم الخيرية من بناء المساجد والمدارس وأعمال العمران الكثيرة بأنهم لم يكونوا يقصدون منها سوى التكفير عن سيئاتهم[٤]، ولكن ما هي السيئات التي يقصدونها؟ هل هي دفاعهم عن الوطن ضد أعتى الأعداء التتر والمغول والصليبيين؟ ألم يكن بمقدورهم أن لا يبنوا من تلك العمران الباقية إلى الآن؟ طالما وكما يقولون أنهم كانوا هم المسيطرين، وكما قيل: (إذا طهرتم العشرية من القهر والاستبداد فإنهم لا يشعرون بلذة السلم والإخاء ما لم ينتج عنها من ارتياح الضمير الإنساني، فالراكب لا يشعر بألم الماشي)[٥].

---

[١] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص٩.

[٢] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص١٠.

[٣] - مصر والشراكسة ص٤٦.

[٤] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٦٥ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٤٨.

[٥] - عاد وثمود ص٨٥.

وبعد لا بد أن نفصل النقطتين الهامتين التاليتين:

آ. المصادرات للمشاريع العامة:

يذكر في الكتب أن السلاطين لم يمارسوا المصادرات ولم يفكروا بذلك إلا حين الضرورة، وأقصد بذلك حين رفض الناس بيع الممتلكات الخاصة بهم للأعمال الخيرية العامة للناس. فكان السلاطين والأمراء غالباً ما يشترون تلك العقارات بالمال سواء كان خاصاً لعمل لهم، وكمثال على ذلك كان لنائب الشام تنكز دار تسمى دار الذهب من أغلى دور دمشق، وكذلك تساوي نصف مليون درهم، وحينما أراد تنكز شراء بيت مجاور ليلحقه ببيته في دمشق طلب منه صاحبه مبلغ أربعين ألف درهم وهو مبلغ مبالغ فيه كثيراً ومع ذلك دفعه ثمناً له. وهذا مثل أوردته وهو ليس المقصود في موضوعنا المرافق العامة، فمثلاً اشترى تنكز قناة بمبلغ خمسة وأربعين ألف درهم لجلب الماء إلى مسجد جديد في القبيبات[1].

باستطاعة النظام الاستيلاء على الممتلكات لتوسيع الأعمال العامة في الدولة مثل التحصينات الحربية، وكانت تدفع التعويضات لأصحاب الممتلكات المصادرة، وقد كان يضطر للضرورة القصوى أيضاً الاستيلاء على أبنية بقصد هدمها للحصول على المواد منها، مثلما حدث لأعمال قناة القاهرة، وكذلك لبناء قلعة حلب لتأمين الحجارة، ومثل هذه الحالات يتطلب إنجازها السرعة غالباً بسبب الحرب أو أي كارثة محتملة[2]، وكانوا دائماً يعودون إلى الشرع والقضاة لمعرفة صحة مطابقة الشرع لذلك، ولكن كنت تجد البعض يعارض بحجة أن هذا لا يتوافق مع المذهب الفلاني، وهذا يخالف ذلك المذهب و (في مثال واحد كان الشهود المالكية مستعدين للاعتراف أن للدولة حق إجبار المالكين على بيع ممتلكاتهم عندما تدفع التعويضات لهم وذلك من أجل تحسين أحد المساجد، ولكن الشافعية تمسكوا بوجهة النظر المعاكسة ومفادها لا يمكن إجبار المالك غير الراغب بذلك، أن يعطي ملكيته بأي حال من الأحوال، واعتبر العلماء أخذ المنازل رغماً عن إرادة أصحابها،

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٣٩٧.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١١٠.

أو أخذ الأوقاف دون إجراءات مناسبة أعمالاً شرعية، ولا تذكر التواريخ أسباب وجهة النظر المعارضة هذه)[1].

كان لا بد من استملاك بعض الممتلكات كحل وحيد اضطراري لتنفيذ الأعمال العامة في الدولة، وكان السلاطين والأمراء يساهمون في بناء الدولة وممتلكاتها العامة بالمال والنفس (وشكل الجنود جيشاً دائماً من العمال لتحقيق مشاريع الإنشاء الرئيسية التي تطلبت وجود أعداد كبيرة من العمال غير البارعين، وغالباً ما أنيط بالأمراء مهام تنفيذ إنشاء مجموعات القنوات والجسور والقلاع، أو ترميم الطرقات، وطلب منهم تنفيذ المشاريع الإنشائية مع جنودهم)[2].

تجد هناك في بعض الكتابات أشياء مثل (كان الرأي أن جميع الأراضي تعود ملكيتها من حيث المبدأ للسلطان، وأعطى أصحاب الممتلكات في عام ٧٣٥هـ - ١٣٣٥م نصف قيمة ممتلكاتهم للحصول على أرض لإقامة أحد المساجد، حيث اعتبروا أن ملكية الأبنية تعود لأصحابها، أما الأرض فهي للسلطان، وبالفعل بين ملكية الأرض والبناء في الضريبة الإسلامية والتطبيقات والإيجارات، وكانت رسوم الأرض والبناء عناصر منفصلة عن الممتلكات، وبما أن الأمراء كانوا موظفين للسلطان فقد رأوا من حقهم الاستيلاء على الأراضي والأبنية لتحقيق أهداف عامة)[3].

تسمع حالياً أيضاً في موضوع الأراضي في سورية بأن هذه الأرض أميرية لها سند تمليك وتعود ملكية الأرض للدولة والناس يستثمرونها، وتلك أرض ملكية لها طابو أي تعود ملكيتها لأصحابها حصلوا عليها عن طريق الشراء أو الوراثة[4]، وأيضاً في القوانين السورية هناك فرق توزع الحصص للورثة حسب نوع الأرض فالأرض التي لها طابو رسمي مثل مدينة دمشق مثلاً ومسجلة بالسجلات العقارية ويتم توزيع الحصص حسب الشريعة الإسلامية للذكر مثل حظ الأنثيين، أما الأراضي الأميرية توزع

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١١١.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١١٢.

[3] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١١٢.

[4] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٣٠.

الحصص بالتساوي بين الذكور والإناث والسبب يعود إلى عصور فتح بلاد الشام. فحين فتحت دمشق أختلف في طريقة فتحها بالقوة؟ أم بالاستسلام؟ وفي الحالتين لمالك الأراض الحق بها إذا لم يحارب، ودفع الجزية فيبقى مالكاً لأرضه، وهذا ما حدث فلم توزع أراضي بلاد الشام للفاتحين المسلمين، واستمر الوضع لفترة، وبدأت الحملات الصليبية على بلاد الشام لطرد المسلمين منها، وبالطبع تم الاتصال مع أولئك الروم الباقين في بلاد الشام، ولكن انتصر العرب على المقاومين من بلاد الفرنجة فخاف من بقي في بلاد الشام من الروم وترك أرضه ورجع مع الجيش الفار والمنسحب من المعركة. وهنا كانت مشكلة الأرض، فلا تعتبر من الغنائم ولا توجد ورثة لها، فكان الرأي النهائي إلحاق الأرض بالدولة التي يمثلها الأمير فسميت بالأميرية، وأصبح التصرف بها عائداً للأمير مهما تغير، أي أن الأرض لا تورث لأولاد الأمير. وجرت العادة بأن يعطي أمير الشام الأراضي بالأجرة مثلاً على أن يعطي المستأجر منها للدولة أو بيت مال المسلمين عشر الإنتاج فسميت الأراضي العشرية، وقد يستغل أحد القواد الأرض مقابل أجرة أي مقابل الراتب[1]، وبعد احتلال العثمانيين لبلاد الشام استمر الوضع على حاله فكانت تعطى سندات يذكر فيها أن الأرض هي تابعة للأمير أو الوالي التركي، ويذكر اسمه وأن فلاناً يستغلها ويحدد أبعادها، وكان يدفع المواطن الفلاح عشر قيمة الإنتاج لذلك الأمير أو الوالي. وبعد ثورات الاستقلال العربية صدر مرسوم لتسجيل الأراضي بالسجلات العقارية فسجلت بعض الأراضي في بعض المدن السورية ثم توقفت إثر الحروب والاعتداءات المتكررة على البلاد، ومن هنا كان التمييز بين ذات الطابو وتلك الأراضي التي تم تسجيلها في السجل العقاري، وبين أرض أميرية لها سند تمليك، وبالعودة إلى عصر السلاطين تجد أن قرار تقييم الأرض وتقدير قيمتها يعود إلى القضاء عند استملاك أية قطعة من الأرض ويقال الأرض بنصف القيمة مثلاً. والسبب هو اعتبار الأرض

[1] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي الاقتصادي العسكري ص٩٨ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٥٠ المماليك ١٧١.

ملكاً للدولة، أما ما عليها فهي لصاحبها، فيكون التقدير على ما يوجد على الأرض من بناء وأشجار وليس على الأرض نفسها.

ب. الأمن الداخلي والخارجي:

كانت دولة السلاطين مرتكزة على الدفاع عن البلاد من الناحية الخارجية بالدرجة الأولى، وكانت الأمور الداخلية متروكة للمواطنين من القضاة ورجال الدين والمختصين بالتعليم وغيرها، وكان على رأسهم في ذلك العصر العلماء فهم قادة المجتمع العربي في ذلك العصر. ولكن كان البعض يحاول أن يشط عن الطريق القديم أو يرفض التقيد بأوامر العلماء وقادة البلد أو يقوم البعض بأعمال تخل بالأمن، فكان العلماء يلجأون إلى السلاطين والأمراء للدفاع عن الجماهير وحفظ الأمن مع أن العلماء كانت علاقاتهم مع الجماهير مباشرة ويستمدون سلطتهم من الجماهير، وكانوا كحكام للمدن. فمع ذلك احتاج العلماء لمساعدة السلاطين والأمراء (الغرباء لحماية الجماهير واعتمد العلماء على نظام عسكري لتحقيق الانضباط في المدن وقمع الهرطقة ومقاومة العنف الذي سببه المجرمون والمتمردون، حتى الجماهير أحياناً، وفوق كل ذلك، فقد اعتمدوا على النظام للدفاع ضد خطر تخريب المجتمع أو تهديم عقيدته، من قبل الغزاة الأجانب حيث كان من المحتمل أن يكونوا من الوثنيين أو الهراطقة أو من المسيحيين الكفرة)[1] ، على تعبير الكاتب.

كان العلماء القياديون سلبيين في الدفاع عن وطنهم وكانت (الجماهير المتدينة مستعدة للتبرؤ من المماليك في حال تعرضهم للهزيمة إذا وقعت عليهم غزوات فكرية، وأن تقبل المنتصر بمثابة صاحب الحق ليكون سيدهم الجديد، وفاق الإخلاص للنظام الجيد للمجتمع جميع أنواع الولاءات، وأخفق علماء المدن السورية في عدد من المناسبات في مساعدة المماليك للدفاع عن دولتهم، ورأى العلماء أن من واجبهم الاستسلام للفاتح والتعاون معه خشية وقوع الخراب الذي ستسببه الحرب والفوضى الداخلية الممكن حدوثها، بسبب الهزيمة العاجلة)[2].

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٢٠٦.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

تجلى ذلك بشكل واضح في ثلاثة مواقف حربية. الأول حينما أتى قازان واكتسح المغول بلاد الشام فما كان من العلماء والقياديين وطبقات الموظفين إلا إرسال وفد لقازان للتوصل معه لحل، وقدموا له الاعتراف كحاكم وسيد مطلق.

كانت المرة الثانية حينما غزا تيمورلنك سورية عام٨٠٣هـ فكان اجتماع الوجهاء والأغنياء والتجار وعدد من العلماء وعلى رأسهم القاضي ابن مفلح الحنبلي وطلبوا الاستسلام، ولم يكتفوا بذلك بل كان ابن مفلح يقنع الناس بالاستسلام ووافق على دفع فدية كبيرة للمحتل، وأصبح هو وبعض الموقعين على صك الاستسلام جباة لتيمورلنك يجمعون الفدية الكبيرة التي طلبها[1]، بل صادر الممتلكات الخاصة للمواطنين، والتي تركها الناس الهاربون من العدو. وكانت الحجة في المرتين السابقتين لتسويغ الاستسلام هي تفادي القتال وحقن الدماء ومنع النهب، أما السبب الحقيقي الذي دفع ابن مفلح لاتخاذ هذا الموقف هو حماية أسرته وعائلات أقاربه وخاصته، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ هل استطاع فعلاً أن يحقق شيئاً من الأهداف المعلنة أو المستترة؟ طبعاً لا. فقد نهب الغازي ضواحي المدينة: الصالحية وداريا والمزة، ونهب داخل المدينة وقلعتها فنهبوا الأشياء الثمينة فيها، وحرقوا المدينة وأسروا العديد من القادة وسيق الحرفيون وسبيت النساء، واتسم ما فعله أولئك بقلة التبصر، مع أنهم لم يشعروا بالخزي، وكانت النتائج مشؤومة على الناس كافة.

قبل وجهاء ذلك العصر العرب الحل السلبي لثالث مرة أيضاً حينما وصلها السلطان سليم فلم يحاربوا الفاتحين الجدد على حد قولهم واعترفوا كما في السابق بالفاتح الجديد، وكانت نتيجتها تأخر تقدم البلاد واحتلال العثمانيين للبلاد العربية أربعمائة عام[2].

[1] - قيام دولة المماليك ص١٤٠ ـ ١٤١ ـ ١٤٢.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٢٠٧ ـ ٢٠٨ ـ الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبويـة ج٢ ص٩٩ ـ ١٠٠.

جمع ابن مفلح للمغول الأموال وصادر أموال الناس وهو عالم إسلامي بارز في ذلك العصر، بينما كان يفتي بعض العلماء المسلمون في ذلك العصر بعدم الاستيلاء على المنازل لتوسيع شارع أو تنظيم قناة أو بناء جامع مع دفع المبالغ مقابلها، بل أكثر من ذلك كان العلماء يفتون بعدم أخذ أموال الناس في حالة الدفاع أو مقاتلة العدو بحجة أن على السلاطين تدبير ذلك ناسين أن الأرض أرض عربية، وينسون في تلك اللحظات الحقائق ويطالبون غيرهم بالدفاع، بل بما يلزم من تحصينات وأسلحة وما شابه ذلك، وكل يفتي ويؤكد أن فتواه صحيحة وكثيراً ما كانت الفتاوى تختلف ولتأكيد ذلك نذكر (رفض القضاة التصديق على الضريبة التي فرضها السلطان عام ٨٠٣هـ - ١٤٠٠م - حينما غزا تيمورلنك سورية - وذلك لمصادرة أموال الأوقاف والتجار ليدفع متطلبات الجيش وإنهاء المشروع)[1].

٢ ـ مدح عصر السلاطين:

كتب العديد مادحين عصر السلاطين، ولا يمكن توضيح كافة الأمور بهم إذ أن ذلك يتطلب العديد من الكتب، ولكن لا بد من توضيح وسرد بعض ما كتب عن عصرهم.

آ. إحياء الخلافة الإسلامية:

بعد انهيار الخلافة الإسلامية العباسية في بغداد، تشتت المسلمون، وحتى قبل انهيار الخلافة العباسية في بغداد ظهرت هناك دويلات إسلامية متفرقة، وطمع بها المغول، وكانت معركة عين جالوت كحد فاصل لغزو المغول وكسر كبريائهم، وبرز حينها أول سلاطين الشراكسة بيبرس، وهو الذي أحيا الخلافة الإسلامية العباسية في مصر[2]، والتي استمرت لقرون إلى أن قضى عليها العثمانيون بعد ذلك،

---

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٢١٨.

[2] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٣٠ ـ ٢٣٣ ـ ٢٣٩ العصر المماليكي في صر والشام ص٣٥١ مصـر في دولـة المماليك البحرية ص١٨٠ ـ ١٨٠ ـ ١٨١ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ١٠ النظام النقدي المملوكي ص٢١٥ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص١٥ ـ ١٧ ـ ١١٤ النجوم الزاهـرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٠٩ ـ ١١٨ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص١٩٣ ـ ١٩٥.

وأصبحت في دولة السلاطين الخلافة للمسلمين في مصر فصار لهم نفوذ روحي على كل بلاد الشام كافة مع أن السلطان السياسي الفعلي كان بيد بيبرس ومن بعده باقي السلاطين الذين استلموا الحكم[1].

ب. النهضة العلمية:

عرف السلاطين بأن لا بد من نهضة علمية لتنهض البلاد من كبوتها، لذلك شجعوا التدريس والتعليم فبنوا المدارس والمعاهد العديدة، واستقدموا وجلبوا العلماء من كافة أنحاء العالم، وكان الطابع العام للتعليم وبشكل رئيسي دينياً مع نسيان كافة العلوم الأخرى وخاصة الطبية إذ أنشئت مشافي للمعالجة والتدريس، ومما يدل على النهضة الروحية والثقافية والعلمية ما تركوه للأجيال فيما بعد من خزائن الكتب ودورها بنفائس المؤلفات من جليل الآثار والتراث الضخم في مختلف العلوم والفنون[2].

ساهم السلاطين في ميادين عديدة لا تنسى، والشيء الأكثر شهوة لهم (هو السيادة العالمية في منطقة الشرق الأوسط بصفة خاصة وفي العالم الإسلامي على وجه العموم، هذا عدا النهضة الفنية التي خلدت تاريخهم ولم تزل شواهدها باقية إلى اليوم، ثم إن الاتساع الإمبراطوري لمصر، بلغ أقصاه في عهد هذه الدولة، وأن مصر - لكونها مركز الدولة - غدت في زمنهم قلب العالم الإسلامي والثقافة الإسلامية)[3] ، كما بلغ التاريخ لديهم العصر الذهبي الثاني عند العرب[4].

ج. التجارة والاقتصاد:

لكي تستمر النهضة التي حدثت وعرفت في عصر السلاطين كان لابد من توفير الدخل اللازم، وكان اعتمادهم على الاقتصاد ولكون التجارة ذات مردود

---

[1] - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص١٣ ـ ١٤ الروض الزاهر في ـ سيرة الملك الظاهر ص٩٩ ـ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين ج١ ص١٨٥ ـ ١٨٩ الدولة المملوكية التاريخ السياسي الاقتصادي العسكري ص١١ النظام النقدي المملوكي ص٢١١.

[2] - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص١٧ مصر في دولة المماليك البحرية ص١٨٩.

[3] - مصر في دولة المماليك الجراكسة ص٥٠.

[4] - محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ص٤.

جيد لجأوا إليها لكون أوروبا بحاجة لبضائع الهند، ولم يكن قد اكتشف رأس الرجاء الصالح بعد، ولا بد من مرور البضائع عن طريق البحر الأحمر[١]، فتمكنت دولة السلاطين التحكم بالأرباح والضرائب المفروضة، ولم يكتفوا بذلك بل شجعوا على أعمال التجارة التي وفرت السيولة المالية بين أيديهم (وصارت حضارة مصر آنذاك مضرب الأمثال فمفاتيح التجارة العالمية بين الشرق والغرب في يد الشعب المصري)[٢] ، تلك التجارة التي عادت بالفائدة لأفراد الشعب العربي وعلى الأمراء والسلاطين لكونهم كانوا مسيطرين على المنطقة التجارية التي كانت ملتقى التجارة العالمية[٣].

د. النظام في عصر السلاطين:

تقدم وعمران البلد كما ذكرنا يتطلب العلم والأموال، ولكن لا يكفي فلا بد من النظام الدقيق لإعطاء الحق ولوضع ضوابط[٤]، وعرف السلاطين بأنهم (أدق رعاية على الولايات وأشد في فرض القانون والنظام وقد استمرت دمشق تنمو وتتطور في ظل النظام الجديد)[٥] ، فتوسعت دمشق التي كانت ثاني مدينة في ذلك العصر بعد القاهرة، فتوسعت الضواحي وباقي مدن بلاد الشام[٦]، ومصر وما تبعها فكان لدولة السلاطين (ونظامهم دور حيوي ليؤدوه في هذا النظام السلس للعلاقات السياسية... بل بإمساك جميع الخيوط الاجتماعية الأساسية بأيديهم وأنشاوا روابط مباشرة مع العلماء وذوي المراتب العالية والصغيرة، ومع التجار، ومع العامة من الناس، من الأحياء والأسواق، وأخيراً مع طبقة الرعاع في المدينة)[٧] ، كما ترى كان نظامهم المحكم يتصل إلى الكبير والصغير، والعالم والجاهل، والغني

---

١ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص١٣٤.

٢ - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص١٧ مصر في دولة المماليك البحرية ص٢١٠.

٣ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٩٢ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٩٤.

٤ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٤١٧.

٥ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٦٨ ـ ٦٩.

٦ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٤٦.

٧ - مدن الشام في العصر المملوكي ص٣٩٧. مدن الشام في العصر المملوكي ص٢٨٥.

والفقير وشهدت دولتهم (نظاماً إدارياً بالغ الدقة، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين. وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين، أرباب السيوف وأرباب القلم)[1] ، فقد استعمل السلاطين رجال الدين في إدارة الشؤون الدينية والمدنية في دواوين دولتهم[2]، أما الحياة الرسمية في البلاط السلطاني فقد اتصفت بالتقليد وأحيطت بمختلف مظاهر التضخم والتعظيم حتى وصفها بعض الكتاب المحدثين بأنها تطلب من قواعد البروتوكول ما يفوق أعظم بلاط في عصورنا الحديثة[3]، وكذلك حفلات الاستقبال للضيوف والكبار والسفراء العظام وبشكل رسمي وما يتبع الضيوف من الإقامة[4]، وكان كذلك قبل أن يتشرف أي رسول بالدخول على السلطان يبين رجال الحاشية للداخل قواعد البروتوكول السلطاني من ضرورة تقبيل الأرض أمام السلطان[5].

عرفت دولة السلاطين أيضاً نظام جوازات المرور طبقته بدقة فاستطاعت (بواسطة تلك الجوازات تسجيل المسافرين، وبالتالي معرفة تاريخ دخولهم وخروجهم بالإضافة إلى المعرفة الدقيقة لأموالهم وبضائعهم، وبذلك كانت تستوفي الضرائب منهم غير منقوصة)[6].

هـ. القانون فوق الجميع:

كان ينفذ ويحكم في الدعاوى القضاة وجلهم من العرب، وكانت بالطبع في ذلك العصر القوانين المطبقة مستمدة من الشرع الإسلامي الحنيف. ولكن الجدير بالذكر أن القوانين والأحكام تنفذ على الجميع وكان القانون هو السائد حتى على السلطان ففي أي دعوى أو شكوى على السلطان يطلب حضوره للقضاء،

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٦٥ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٢. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٠٠.

[2] - صور ومظالم من عصر المماليك ص١١٠.

[3] - مصر في دولة المماليك والمماليك البحرية ص١٣٢.

[4] - الطرب في العصر المملوكي ص٢٩ مصر في دولة المماليك والمماليك ص٦٥ ـ ٦٦.

[5] - مصر في دولة المماليك والمماليك البحرية ص١٣٤ صور ومظالم من عصر المماليك ص٦٧.

[6] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٢٥٠.

ويتساوى الخصم وينفذ الحكم الصادر(١)، كمثال على ذلك نذكر ما ذكره ابن كثير في تاريخه من محاسن بيبرس الكثيرة (إنه - أي السلطان بيبرس - حضر إلى دار العدل في محاكمة بسبب بئر بين يدي القاضي تاج الدين بن بنت الأعز فقام الناس له لما جاء سوى القاضي فإنه أشار إليه أن لا يقوم فقام هو وغريمه بين يدي القاضي وتداعيا وكان الحق بيد السلطان وله بينة عادلة فانتزعت البئر من يد الغريم وهو أحد الأمراء)(٢).

و- صفات العصر:

لقد مدح الكثيرون من الكتاب عصر السلاطين فقيل عن عاصمته القاهرة بأنها عروس الشرق باتساعها وعظمتها وجمال مبانيها وجلال قصورها وازدحام سكانها من كل جنس ولون، وكان يجلب ما في سائر أقاليم الأرض من كل شيء غريب(٣)، وتجد كتابات حديثة تمدح ذلك العصر أيضاً. كما كانت الكتب تتناول صفات أولئك الحكام أيضاً فمما قيل (أقاموا فيها دولتهم الناشئة الفتية، وهم قوم أشداء، ومارسوا الحروب والفروسية، واعتادوا الخشونة، وبعد الكثير منهم عن الترف وأخذوا يصبغون ملكهم بصبغة دينية... ودفعوا العلماء إلى نشر العلم بالتدريس والتأليف، وكان لهم في ذلك ومن انتصاراتهم على التتار وعلى الصليبيين في أرض الشام مفاخر ومآثر لا تبلى، وزاد في عظمة أمرهم في عيون المسلمين أنهم أصبحوا حماة الخلافة الإسلامية المكلومة وملاذ الأمم العربية المهزومة، ومقصد الأحرار والعلماء من كل مكان)(٤)، وقيل (كانت دولتهم أرقى دولة في عصرها)(٥)، وقيل كانت دولة المماليك عهد الازدهار الدائم، عهد حضارة وعمران(٦)، واستمرت لنهاية القرن تقريباً، ثم تلت فترة الأزمات التي سادت في

١ - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٤١٧ - ٤١٨.

٢ - الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ج٢ ص٦٣.

٣ - الطرب في العصر المملوكي ص٤٤.

٤ - الحياة الأدبية في العصر المملوكي والعثماني ص١٤ - ١٥.

٥ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٧.

٦ - مصر والشراكسة ص١٣٢ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٤٦.

النصف الأول من القرن الثالث عشر - مع أزماتها - فترة هادئة مزدهرة ومتآلفة في الإنجازات الثقافية والاقتصادية، كما انتهت هذه الفترة الأكثر روعة في حوالي عام ١٣٨٨م[١].

ز. الحضارة العربية:

اعتبر العديد أولئك السلاطين أنقذوا الحضارة العربية[٢]، من التدمير الشامل بانتصارهم في شقحب، كما يؤكد أكرم العلبي في كتابه معارك المغول الكبرى في بلاد الشام. إذ لو انتصر قازان على السلاطين لعاد الصليبيون إلى دويلاتهم تمهيداً لطرد العرب نهائياً من الشام ومصر إلى الجزيرة العربية كما كان يجري في الأندلس.

لهذه الأسباب تعد معركة شقحب، فتح الفتوح بالنسبة للشام ومصر لأن الظروف كلها كانت تنذر بالهزيمة، ولكن اللّه سلم[٣].

---

١ - مدن الشام في العصر المملوكي ص٣٩.

٢ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٧ ـ ١٥.

٣ - انتصار الوحدة في شمال القفقاس ص٥٧.

عصر ازدهار

ا ـ أين الحقيقة:

كتب الكثير عن عصر السلاطين، وأسهم الكثيرون في الكتابة والتقييم، وتفاوتت الآراء ما بين المدح والذم، مع كل هذا لا بد أنك لاحظت وشعرت بإنكار بعض ما كتب ولأسباب عديدة، وفي رأيي غالبية الآراء السلبية ناجمة عن عدم معرفة الكتاب بحقيقة أولئك السلاطين، وعدم معرفتهم عادات وتقاليد الشراكسة، ونظامهم الذي ساروا عليه منذ القدم، وحتى الآن. وتلاحظ أن بعضهم يستغربون بل يستهجنون بعض العادات الشركسية، والسبب واضح وهو أنهم لا يرون سوى الظاهر، ولا يكلفون أنفسهم عناء سبر الأغوار من جهة، أو لأنهم ضيقو الأفق والمعرفة، وليس لديهم اطلاع كاف على عادات الشعوب، قد تتغير بعض العادات والتقاليد، ولكن بعضها صعبة التغيير، وتبقى ظاهرة ومستمرة، وتعبر عن شخصية الأمة، هذا لا يقتصر على الشراكسة فقط بل يوجد لدى كل شعوب العالم حتى أنك تجد لكل حارة عادة خاصة بها تتبع في الأفراح والأحزان، وقد يعجب البعض منها، وقد يقال أن عادة ما مخالفة للدين أو الآداب أو المنطق أو تدل على التخلف، ولكن رغم ذلك ومع اقتناع البعض بعدم ملاءمتها لمتطلبات العصر، أو الظروف السائدة لكنها تتبع، ويكون الجواب: إنه العرف والعادة، أنها التقاليد، إنها جذور قوانيننا... الخ.

آ . علاقة العرب ببلاد الشركس:

نشأت علاقة بين بلاد القفقاس والتي تسمى حالياً بشمال القفقاس، وبين المسلمين الذين انتشروا في البقاع المختلفة ينشرون الدين الإسلامي الحنيف حيث (بدأ الإسلام في القفقاس سنة ٢٢للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والموافقة سنة ٦٠٠ ميلادية على يد مجاهدي العرب الذين جاؤوا)[1] ، إلى بلاد القفقاس فاتحين من جهة باب الأبواب، وهي جنوب بلاد الداغستان المعروفة

[1] - تاريخ القوقاز ص٢١٨ ـ ٢١٩ شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة ص٦ ققفاسيا ص١٣.

حالياً، وباب الأبواب الذي يقع بين قزوين وسلسلة جبال القفقاس من الجهة الشرقية لها[1].

نذكر بعض قواد المسلمين الذين ذهبوا إلى بلاد القفقاس: ففي عهد الخليفة الأموي عبد الله بن مروان عين مسلم بن أبو سلمة عاملاً على العراق فأرسل إلى القفقاس جيشاً بقيادة القائد شبيب النهرواني، وبعد ذلك أرسل أيضاً جراح بن عبد الله بجيش. وفي عهد هشام بن عبد الملك أرسل جيشاً بقيادة (مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة على رأس جيش جديد قوي، مر من باب الأبواب... وبعد خمسين سنة، وكانت الدولة الأموية قد انهارت وقامت مكانها الدولة العباسية، وفي خلافة أبي جعفر المنصور أرسل الخليفة جيشاً إلى شمال القفقاس بقيادة حفيده أبو مسلم الروانكي، وكان إدارياً وعادلاً)[2] ، ويذكر أيضاً بأنه تأسست لأول مرة إمارة (طارق) الشامية، وكانت مدينة طارق القديمة عاصمة الإمارة وتعرف اليوم باسم بتروفسك، حينما غير الروس الكثير من أسماء المدن والمواقع[3]، وفي القرن الحادي عشر للميلاد انسحبت القوات العربية من القفقاس ولم يبق لها وجود[4]، كما ذكر كان من أسباب الانسحاب هو محاولة الصليبيين العودة إلى بلاد الشام، ومع انسحاب العرب أتى معهم العديد من المسلمين غير العرب، وكان منهم الكثير من الشركس الذين كانوا في جيش المسلمين، وكذلك الأقوام الأخرى مثل التركمان والأتراك وغيرهم.

ب. قدوم الشركس للبلاد العربية قديماً:

بعد أن ضعفت الدولة العباسية التي اعتمد الكثير من خلفائها على غير العرب، استلم هؤلاء المسلمون غير العرب مهمات مختلفة، وأصبحوا قواداً ووصل البعض إلى ولاة لبعض النواحي من البلاد الإسلامية، ثم أصبحت تلك الولايات تابعة اسمياً

---

[1] - الوطن في أدب الشراكسة ص٧٣ قفقاسيا ص١١ ـ ١٤ ـ ٣٠.

[2] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص٢٧٤.

[3] - تاريخ القوقاز ص٢٥٥.

[4] - موسوعة تاريخ القفقاس والجركس ص٢٤٥ الوطن في أدب الشراكسة ص٧٤.

للخلافة العباسية، وبدأ كل والٍ يستقدم عناصر من جنسه ليثبت حكمه ولعدم التفكير بأي تغير لسلطتهم (وكان العرب الغالبية الساحقة من سكان دمشق، وكانوا يستعملون اللغة العربية في البيت والمدرسة والسوق، ولكن جماعات من غير الناطقين بالضاد وفدوا على دمشق في أيام المماليك، أو لعلهم أتت بهم السلطات الحكومية عمداً. فالتركمان جاؤوا أيام آل زنكي إن لم يكن قبلاً، وجاء صلاح الدين بالأكراد، كما أن الجنود الشراكسة والأتراك واكبوا الحكام وأمراء الأجناد من المماليك)[1].

ينعت بعض الكتاب أولئك الحكام بأنهم من المماليك، أو جيشهم من المماليك دون تعيين، وتعرف ما المقصود بذلك. وأحياناً يقال إننا كلنا ملك لله وما شابه ذلك. وربما ساعدت اللغة العربية بكلماتها إلى تغيير معنى بعض الكلمات التي عنيت معاني غير التي تتداول في هذه الأيام. كما أن الكثيرين وصفوا السلاطين بأنهم من العبيد تم شراؤهم ولكن في الوقت نفسه تجد أن ما كتب عنهم لا يستقيم مع الواقع والمنطق وسأضرب بعض الأمثلة عن كيفية استخدام البعض.

ذكر عن وصول أنس والد برقوق أنه (في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة، وصل أنس بن عبد الله العثماني والد برقوق إلى القاهرة، فخرج ولده والعسكر لملتقاه، فالتقاه بعكرشا، ووصل صحبته قاضي حلب كمال الدين المصري وقاضي دمشق ولي الدين البقاء، ونزل في ذلك الموكب بالخانقاه ومد ولده سماطاً عظيماً. وأقعده في صدره، وقعد عن يمينه أيدمر الشمسي وعن يساره آقتمر عبد الغني، وقعد برقوق دون أيدمر. وكان أنس أعجمياً لا يعرف بالعربي ولا بالتركي حرفاً، ثم ركب معه إلى القاهرة وأعطاه تقدمة ألف)[2] ، مع العلم عندما جاء أنس ـ أو أنص كما يكتبها البعض ـ إلى مصر لم يكن ابنه برقوق سلطاناً كان مجرد أمير فقط، ثم ما الذي جعل وفور وصوله إلى حلب ودمشق يستقبل فيهما، ثم يرافقه قاضي حلب ودمشق مع العلم بأن للقاضي في ذلك العصر مكانة مرموقة، ثم هذا

[1] - دمشق في عصر المماليك ص١٣١.

[2] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٢٤٩.

الاستقبال الحافل المهيب وإعطاء رتبة أمير على ألف من الأمراء الصغار رتبة ولكل منهم ما لا يقل عن عشرة أتباع حسب التنظيمات العسكرية لذلك العصر، فهل يمكننا القول أو حتى مجرد التفكير بأن أنس جلب كعبد مشترى؟

مثال آخر عن الأمير أيتمش الذي بنى مدرسة بالقرب من القلعة في القاهرة (فسأل السلطان في شرائه منهم - أي شراء أيتمش - فاشتراه منهم بمائة ألف درهم ثم أعتقه وأمر له بأربع مئة ألف درهم وعد ذلك من الغرائب، فإن جرجي - أستاذ أيتمش - مات سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة هجرية - فأقام أيتمش سبع عشرة سنة في الرق يتصرف تصرف الأحرار إلى أن صار أكبر الأمراء بالديار المصرية)[1] ، والكاتب نفسه يستغرب بعد ما حدث من الغرائب. فإذا كان عبداً كيف كان يتصرف كالأحرار؟ ويصبح أميراً، ثم كيف يشترى بمائة ألف ثم يعط له مباشرة أربع مئة ألف؟.

جاء في فقرة أخرى من نفس الكتاب الذي سقت منه المثلين السابقين (في رجب ٧٩٠هـ قدم بعض التجار بجماعة من أقارب السلطان الجراكسة فخرج عليهم طائفة من الفرنجة الجنوية فأسروهم، فبلغ الظاهر بالخبر فأمر بالقبض على من بالإسكندرية من الجنوية وختم على حواصلهم في أواخر شعبان فبلغهم الخبر، فأطلقوا من بأيديهم منهم فقدم الإسكندرية خواجا علي أخو الخواجا عثمان يجمع من أسره الفرنجة من أقارب السلطان، ففك الختم من حواصل الفرنجة وذلك في أواخر ذي الحجة... وفي تاسع عشر المحرم - ٧٩١هـ - حضر رسل صاحب جنوة ومعهم أخو عثمان الذي كان الفرنجة نهبوا مركبه وأسروا منه أخت قجماس بنت عم السلطان فأعادوا المركب بما فيه، وقدموا هدية فقبلت منهم[2]. يتضح لنا أن هذه الحادثة كادت أن تؤدي إلى قطع العلاقات بين مصر وجنوا ، وكذلك مصادرة أموال الجنوية في مصر، فلو كانوا عبيداً هل كانت السلطة ستلجأ إلى اتخاذ كل

---

[1] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٢٩.

[2] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٤٢٣ ـ ٤٣٩.

هذه المواقف الصارمة علماً بأنه في ذلك العصر كان الاسترقاق معترفاً به في جميع أنحاء العالم تقريباً.

ثم بنت عم السلطان المذكورة، هل هي كانت من الإماء مثلاً؟ ومن الذي اشتراها؟ فإذا كان الخواجا الذي أحضرها هو المالك الذي يبيع العبيد هل يعقل أن يسامحه السلطان لشراء بنت عمه؟ وكثير من هذه التساؤلات قد لا تجد لها جواباً شافياً، ولكن في شتى الحالات تجد أنه هناك ثغرة بل ثغرات غير واضحة، ولا يمكن أن يكونوا عبيداً، وكلمة المماليك لم تعنِ في عصرهم العبيد أو معنى مرادفاً لها، بل هي تسمية أطلقت للتميز بين عصرهم والعصور الأخرى.

٢ ـ دولة قوية مزدهرة:

آ . غنى السلاطين:

كتب العديد من الكتاب والسياح والنقاد، وأهل البلد عن غنى السلاطين[1]، وذكر البعض سبب غناهم بأنهم استغلوا أهل البلد، ولكن من له أية بصيرة يتضح له أن ذلك غير صحيح. وسبب غناهم نتج عن جهادهم المستمر حيث أن الإسلام أعطى للمجاهدين نصيب أربعة أخماس الغنائم من الفيء، فهم قاتلوا حينما أحجم الكثيرون ولم يدافعوا عن الإسلام وبلادهم فكانوا هم المنقذين لبلادهم وللمسلمين، وحاربوا أعداءهم من الصليبيين والمغول وغيرهم، ووسعوا الأراضي التي أصبحت تحت سيطرتهم مما لم تكن تابعة لا للعرب ولا للمسلمين، وبعد أن عم السلام البلاد، واستقر الوضع، وانقطعت الغنائم الحربية ـ لتوقف الحروب والفتوحات ـ اتجهوا للتجارة، وتجارتهم كانت خارجية ولا مجال لاستغلال أهل البلد، فكانت تجارتهم تأتي من الهند وينقلونها إلى أوروبا عبر بلادهم. أما ما كتبه البعض عن استغلال حصل داخل البلاد فغير صحيح. إذ كانت للسلاطين والأمراء

---

[1] - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص٦١ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٢١ الطرب في العصر المملوكي ص٢٥ صور ومظالم من عصر المماليك ص١٠٠ مصر والشام في عصر الأيـوبيين والمماليـك ص٢٨٨.

إقطاعيات[1]، وهي عبارة عن أراضٍ لم تكن لأحد، وكانت الدولة تعطيها لموظفيها من عسكريين، ومدنيين مقابل الرواتب، فيستثمرونها بأنفسهم، أو من قبل أناس آخرين بالاتفاق على نسبة من الإنتاج، علماً بأنه كان للفلاحين أراضٍ خاصة بهم، وهذه الإقطاعيات ليست وراثية لهم أي لا يتملكونها ولا يستطيعون بيعها إذ الملكية للدولة. وكلما تغير العامل يأخذ إقطاعة السابق ويعطيها لغيره بدل الرواتب كما ذكر[2]، ولكي لا نبتعد كثيراً عن الموضوع أعود أؤكد بأن سبب الغنى هو الجهاد أولاً، فلما توقف المغول والصليبيون عن مهاجمة بلاد الشام ومصر توقفت الغنائم وسبب الغنى ثانياً هو اللجوء إلى التجارة التي هي عماد الاقتصاد لأي بلد كان، وهذا ليس بمستغرب على من يعرف الإسلام: فقد (روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اغزوا[3] تغنموا[4] وصوموا تصحوا، وسافروا تستغنوا[5]) رواه الطبري في الأوسط ورواته ثقات[6].

كان السلاطين والأمراء والجنود وأتباعهم أغنياء، والمال يأتي بالمال كما يقال، ولا غنى لهم عن بركة الله تعالى فقد (روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينما أيوب عليه السلام يغتسل عرياناً، فخر عليه[7]، جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثي في ثوبه، فناداه ربه عز وجل، يا أيوب،

---

1 - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٢٢ المماليك ص١٧١.

2 - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٩٨.

3 - اغزوا: جاهدوا في سبيل الله وحاربوا أعداء المسلمين.

4 - تغنموا: تنالوا الأجر، وتتسع بلادكم ويكثر رزقكم.

5 - سافروا تستغنوا: اخرجوا في أعمال التجارة بسهم، واذهبوا لجلب البضائع يحصل لكم الغنى وزيادة الربح والسعة والنعيم بالغنى وزيادة الرفاهة (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه).

6 - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج٢ ص٧٩.

7 - فخر عليه (بالخاء المعجمة) أي: يسقط عليه جراد من ذهب.

ألم أكن أغنيتك عما ترى، قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى لي عن بركتك)[1] ، رواه البخاري[2].

كان الغنى واضحاً في عصر السلاطين للجميع، والأموال تبذل في المناسبات القومية والدينية، وما يصرف فيها سواء للخاصة أو العامة بلغ الكثير كما يذكره كتاب التاريخ، ممن عاصروا زمن السلاطين، وهذا يدل على الغنى الذي كان لديهم[3]، كما أكده العديد من الكتاب بعد ذلك العصر أيضاً. مما ذكر (كانت الحكومة على جانب كبير من القوة والسلطان والثراء، وذلك قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام١٤٩٨)[4] ، نعم أثر اكتشاف الرجاء الصالح على التجارة العالمية والداخلية، ولكن لم يكن ذلك كثيراً. كما أنه كانت تحدث بعض الأزمات خلال التجهيز للحروب وخاصة إذا تتالت، وإذا كان الجيش ينطلق من القاهرة إلى أطراف البلاد مثلاً إلى أواسط تركيا، فكان ذلك الأمر يتطلب الكثير من الموارد، وهناك بعض أعمال الغوغائيين الذين كانوا يعتمدون على بعض الأنحاء، أضف إلى ذلك الكوارث والجائحات التي حدثت في عصر السلاطين وعلى الأخص الطاعون الذي كان يفتك بالناس، ومن الكوارث الطبيعية أيضاً فيضان النيل أو قلة الماء والجفاف لكن الدولة كانت تعيد الأمور إلى نصابها، وتعود الأمور طبيعية خلال فترة قصيرة. ثم إن الحياة المعيشية نسبية، فمن تعود على الرخاء الدائم قد ينزعج إذا قلت وارداته فمعدل المعيشة ومعدل الدخل الفردي كما هو معروف يختلف من دولة إلى أخرى.

كانت للدولة مصادر دخل أخرى فضلاً عن الغنائم والتجارة الخارجية فقد كانت موارد المملكة، شأنها في ذلك شأن الإمبراطورية المملوكية، يدخل في عدادها الخراج والزكاة، وهي المقررة على أهل الذمة والعشور والمواريث الحشرية

---

[1] - يتضح من ذلك جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر لله، وتسميه المـال الذي يكون من هذه الجهة بركة.

[2] - رياض الصالحين ص٢١٧.

[3] - دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص١٧٥ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٨٠.

[4] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص١٩.

والـتي لا يوجـد وارث شـرعي لـهـا، وأجـور الدولـة والتجـارة وضـرب النقـود في مصـر وضـرائب الأرض والخـراج وهـو يؤخـذ مـن التجـار والواصـلين في البحـر إلى مصـر، والمعادن المستخرجة من الأراضي[1]، وضريبة السفن وغيرها من الضـرائب الإضـافية، وأسلاب الحرب والغنـائم كمـا ذكـر[2]، أمـا المصـاريف كـانت تشـغل نفقـات الإدارة والجـيش والبريـد والاهتمـام بتنظيـف الأنهـار والـترع وبنـاء الجسـور والسـواقي[3]، بالإضـافة إلى ذلـك كـان يطلـب (أحيانـاً مـن بعـض الأمـراء والمـوظفين القيـام بتلبيـة متطلبات السكان، وذلك بإطعام الفقراء حسب ثروة كل أمير أو موظف، أو حسب عـدد المماليـك الـذين كـان ملتزمـاً بـإيوائهم، وكـان السـلطان بيـبرس أول مـن الحـق المتسولين الفقراء والصوفية بالأمراء والموظفين والتجـار والأغنيـاء وليتولـوا إطعـامهم، واتخذ خلفاؤه التدابير نفسها)[4]، علماً بأن بيبرس هو أول سلاطين الشراكسة علـى الأرجـح، ويعـني أن بـدء الاهتمـام بأوضـاع الشـعب والعمـل علـى تحسـينه كـان بدايـة عصـر السـلاطين موضـوع بحـث هـذا الكتـاب[5]، وممـا يـدل علـى غنـى الشـعب هـو (فـرض قـازان علـى دمشـق أربعـة ملايـين درهـم، ولم تجـد المدينـة صـعوبة في دفـع المبلغ)[6].

يتضـح لـك غنـى الشـعب، وبـالطبع إذا كـان الشـعب غنيـاً فالسـلاطين أغنيـاء. وذكرنـا الأسـباب العديـدة لـذلك، ولـيس السـبب الاسـتغلال كمـا ذكـر الـبعض بـل بالعكس كانت العدالة هي السائدة، وكما ذكـر (كانت دمشق لها من الموارد مـا ورد ذكـره، تنعم بثروتها التي لم تكن ولا شك موزعة توزيعاً سوياً)[7].

---

[1] - العصر المملوكي في مصر والشام ص٣٠٩ ـ ٣١١ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٢١٤ إلى ٢١٧.
[2] - مصر والشراكسة ص١٢١.
[3] - دمشق في عصر المماليك ص٦٥.
[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٠٠ المماليك ص٢٠٥.
[5] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٧٤.
[6] - دمشق في عصر المماليك ص١٤٥.
[7] - دمشق في عصر المماليك ص١٤٥.

ب. دولة عالمية ينظر ويتطلع إليها:

كانت لدولة السلاطين علاقات داخلية وخارجية واسعة مع عدد كبير من الدول الإسلامية وغير الإسلامية سواء كانوا من الأعداء كمغول وصليبيين أو علاقات ود مثل اليمن والحبشة وبعضها تأرجح بين الاثنين[1].

إجراء المعاهدات:

المعاهدات هي نصوص تكتب بين طرفين بعد إجراء مناقشات لما فيه خير الطرفين، والمعاهدات عرفت منذ القدم، قد تكون المعاهدات متساوية، منحازة لمصلحة أحد الأطراف مقابل أمن وسلامة الطرف الثاني، والمعاهدات تدل على رقي الشعوب ونبذ للحروب والخلافات، وإيجاد الحلول للمشاكل القائمة، وكانت دولة عصر السلاطين في مصر وبلاد الشام محط الأنظار لما لها من أهمية إستراتيجية لموقعها ولما لها من سيطرة واسعة. ويقول جاستون فييت عن القاهرة (هذه المدينة من الناحية السياسية والتاريخية والاقتصادية في العصور الإسلامية المتلاحقة، وبخاصة إبان حكم سلاطين المماليك البحرية والجراكسة، فيقرر بصراحة دون لبس أن القاهرة أصبحت في عصر سلاطين المماليك. بمثابة عاصمة عالمية مع بقائها مركزاً إسلامياً كما أصبحت وجهة أنظار الأوربيين بسبب الرخاء التجاري الذي نعمت به)[2].

نتذكر كيف عقد الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدات داخل نطاق دولته ومع من حوله، ويذكر بأن جرى عقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل البحرين وكانوا وقتها مجوساً، وجرى عقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل نجران وكانوا نصارى[3].

---

[1] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٦٢.

[2] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص١٠ ـ ١١.

[3] - الجهاد في الإسلام ص١٢٢.

اهتم السلاطين في عصرهم بالمعاهدات والعلاقات[1]، بما يعود عليهم وعلى الشعب العربي بالخير الوفير، وكانت وسيلة ناجحة بدل الحروب (وبفضل المعاهدات الرسمية، والعلاقات السياسية الجيدة، وتبادل بعثات الصداقة وأمكن ضمان سلامة التجار، فعلى سبيل المثال أعلن المماليك عن حماية شاملة في رسالة عامة (عهد أمان) وصدرت في ٦٨٧هـ ١٢٨٨م لتوزع في الهند والصين واليمن، وكانت هذه الرسالة النظير الشرقي الضروري والبديل للمعاهدات الرسمية مع الأوربيين، وسعت الحكومات الأجنبية بدورها لتشجيع التجارة)[2] ، وحقاً (كانت دولتهم أرقى دولة في عصرها)[3]. وسأذكر بعض الاتصالات التي جرت بين السلاطين والأقطار والأنحاء الأخرى.

اتصالات مع الوطن العربي:

تم تبادل الاتصالات مع الأطراف العربية، ففي عصر السلطان بيبرس وصلت إليه رسل اليمن يعلنون وضع أنفسهم تحت خدمته[4]، والخضوع والانتماء له، وأن يخطب في بلاد اليمن باسم السلطان كما أرسل الهدايا وتحفاً كثيرة، فأرسل السلطان إليهم هدايا وسنجقاً وتقليداً[5]، وكذلك تبادل برقوق مع ملك اليمن رسائل عدة[6].

بعد أن فتح الله على السلطان بيبرس رأى أن يعلم أهل المغرب العربي فأرسل لهم الرسل ذلك ليشد أزر المسلمين على الفرنجة[7]، وظلت علاقات الود متصلة حتى في عهد دولة الجراكسة مع ملوك المغرب، فيذكر أنه أرسل أبو عبد الله محمد بن أبي

---

[1] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٩٥.
[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٩٥.
[3] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص١٧.
[4] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص١٢٨ ـ ٢٩٠ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٤١.
[5] - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٥١.
[6] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٧٤ ـ ٤٣٥ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٥٩.
[7] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٣٣٧ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٦٧.

يحيى بن أبي بكر سلطان تونس كتاباً رفيعاً فيه تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه، واستقبل برقوق رسل تونس[1]، وكان تبادل الرسائل بين السلطان برقوق وسلطان مراكش تؤكد المودة التي بينهما[2].

أرسلت رسالة من أبي عبد الله محمد الأحمر من غرناطة إلى السلطان الأشرف شعبان[3]، وقدم سفير غرناطة المسلم مقالة إلى السلطان جقمق جاء فيها: (أنت هو كبير الملوك والسلاطين وقديم الحرمين الشريفين). وظل أمراؤها يلتمسون من جانب أقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت، وأرسل أميرهم أبو عبد الله بن محمد رسالة للسلطان مضمونها التماس العون ووافق السلطان على مدهم بالمال لصعوبة إرسال قوة حربية لبعد المسافة[4].

أرسل صاحب بغداد تبريز حسين بن أويس في جمادي الأول ٧٨٣هـ رسالة إلى السلطان يرقوق، وكذلك أويس في صفر ٧٨٥هـ أرسل رسلاً إلى القاهرة ومعهم هدية وأحضروا إلى دار العدل، وأنزلوا بدار الضيافة[5].

اتصالات مع الدول الأجنبية:

أرسل ملك الحبشة رسالة إلى السلطان بيبرس، وأرسل السلطان جواباً له عليها، كما أرسل ملك الحبشة رسالة إلى السلطان قلاوون[6]، وأرسل السلطان وفداً إلى الحبشة لاستطلاع الأوضاع ثم كتب إلى ملك الحبشة ينكر عليه ويأمره أن لا

---

[1] - قيام دولة المماليك الثانية ص١٥٤ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص١٢٥ ـ ٤٣٠.

[2] - وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي الإسلامي ص ٦٥٨ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٧٤ ـ ٤١٠.

[3] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٧٣.

[4] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة من المقدمة ص ص وص ١٤٦ ـ ١٤٧.

[5] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٢٧٥ ـ ٣٢٣.

[6] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٤٦٨ ـ ٤٦٩ ـ ٤٩٦.

يحدث أي شيء، وكان ذلك في رجب ٧٨٣هـ[١]، وفي أواخر عام ٧٨٨هـ وصلت إلى القاهرة رسل الحبشة بهدايا جليلة[٢].

وصل رسل الملك شارل أخو الملك فرنسيس وهو صاحب مرسيلية، ووصلت معه العديد من الهدايا إلى السلطان بيبرس مع كتاب منه[٣].

تبودلت الرسائل والهدايا بين السلطان قلاوون وألفونس العاشر صاحب قشتالة، وأرسل صاحب أشبيلية ألفونس رسالة إلى الظاهر يدعي ويطلب صداقته[٤]، وحضر رسل صاحب اشبيلية من قبل ملك الكيتلان عام ٧٨٤هـ يسألون السلطان الشفاعة في صاحب سيس[٥]، وأرسل الظاهر بيبرس رسالة إلى ملك سيس هيثوم حول إطلاق سراح ولده مقابل تسليم شمس الدين سنقر الأشقر لما تم أسره في حلب، أي تبادل الأسيرين كما تم عقد هدنة بين السلطان قلاوون وملك سيس النكفور ليفون بيتوم[٦]، كما دخلت رسل صاحب سيس ٧٨٤هـ مع رسالة يخبر فيها أن كبير الأمن في بلادهم توفى فحكمت زوجته مدة ثم عزلت نفسها، واتفقوا على أن يفوضوا الأمر للسلطان فيختار لهم شخصاً، فاختار السلطان برقوق أميراً منهم ممن كانوا أسرى بيد المسلمين[٧].

حضر رسل صاحب قيسارية، ورسل صاحب تكريت عام ٧٨٥هـ إلى القاهرة طالبين أن يكونوا تحت حكم السلطان وأن يخطبوا باسمه فأجيب طلبهم[٨].

---

١ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٢٧٠ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٨٣.

٢ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٢٨٠.

٣ - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٠١.

٤ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٩٩.

٥ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٠٠.

٦ - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٤٦٨ ـ ٤٧٢.

٧ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٠٠.

٨ - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٢٧.

وصل الرسول الذي كان السلطان بيبرس أرسله إلى الكرج بكتابين أحدهما من ملك الأبخاز والآخر من ملك تفليس مضمونهما أنهما خرجا عن التتار لأجل السلطان[1].

حضر رسل علي باي بن قرمان صاحب قونية وغيرها من بلاد الروم في محرم ٧٩١هـ حاملين هدية فقبلت منهم[2].

أول عمل هام قام به السلطان بيبرس هو أنه أرسل رسالة إلى الملك بركة رئيس القبيلة الذهبية، وذلك حرصاً على ضم بركة إلى الإسلام[3]، هذا ووصلت رسالة الملك بركة إلى مصر[4].

قدم رسل طقتمش خان بن أزبك سلطان الدشت برئاسة حسن بن رمضان وهو ابن نائب القرم، فقبلت هديتهم، وتمت إجابتهم، وكان ذلك عام ٧٨٦هـ، وفي العام التالي في صفر أرسل طقتمش أيضاً رسلاً مع هدية طالباً أن يكون مع السلاطين كإخوة، وفي عام ٧٨٨هـ أرسل اثنان هما الحاجب قدير وبكتمر العلائي من قبل السلطان إلى طقتمش خان وذلك من مصر إلى بلاد القبجاق[5].

وصل عام ٧٨٧هـ رسل الأشكري صاحب اسطمبول مع الهدايا يطلبون أن يكون لهم قنصل في الإسكندرية، وتمت الموافقة على طلبهم[6].

وصل في شوال عام ٧٨٧هـ تغر خجا التركماني عم قرا محمد التركماني طائعاً، وكان له الحكم على ماردين إلى الموصل وطلب أن يكون مع السلطان، وتمت الموافقة على طلبه[7].

---

1 - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٩٩ تاريخ الملك الظاهر ص١٦٨.
2 - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٤٣٩.
3 - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٩ ـ ١٠ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٥٥.
4 - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢١٤ البداية والنهاية ج١٣ ص٢٣٨ العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٤٠.
5 - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٤٧ ـ ٣٦١ ـ ٣٧٦.
6 - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٦١.
7 - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٦١.

وصل الأمير الوزير خليل بن شاهر بن الشيخي نائب ملطية في ٢٠ جمادي الآخرة ٨٤٧هـ، وقدم هديته وأعطاه السلطان خلعة الاستمرارية في نيابته[١].

أرسل ملك التتار أحمد إلى السلطان المنصور قلاوون رسالة يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم فأجابه قلاوون[٢]، وكذلك وصل إلى دمشق من عند ملك التتار الخواجة مجد الدين إسماعيل بن محمد ياقوت السلامي ومعهم هدايا للمصالحة[٣]، ووصل في ٢٧ جمادي الآخرة ٨٤٧هـ إلى القاهرة القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك، وقاصد جهان شاه بن قرا يوسف صاحب تبريز[٤]، ووصل إلى القاهرة جهان المذكور مرة ثانية في صفر ٨٥٥هـ، وقدموا هدية وكتاباً عربياً فكان فحواه التودد إلى السلطان وأنه تحت طاعته[٥]، وفي يوم الاثنين ١٧ ذي الحجة ٨٥٦هـ عمل السلطان واجب الضيافة بالحوش لقضاء جهان شاه، وليعلم السلطان بأن جهان شاه خسر عساكر يابو بن باي واستولى على عدد من البلاد، وكذلك في ١٩ ذي الحجة ٨٦٠هـ طلع جهان شاه بن قرا يوسف وقبل الأرض بين يدي السلطان وأدى رسالة مرسله بعد الإسلام[٦].

وصل رسل من قبل إسماعيل شاه الصفوي في شعبان ٩١٣هـ يعتذر عن ما وقع من عسكره في دخولهم بلاد السلطان ويؤكد بأنه لم يكن بإذنه ولا علم له بذلك، وقبل الاعتذار[٧].

١ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص٩٥.

٢ - البداية والنهاية ج١٣ ص٢٩٩.

٣ - البداية والنهاية ج١٤ ص٩٧.

٤ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج١ ص٩٥.

٥ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص٣٢٠ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص١٢٤.

٦ - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ج٢ ص٣٨٢ ـ ٥٩٦.

٧ - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٢٣.

ارتبطت دولة هندستان مع سلطنة المماليك في علاقات الود والمحبة، فقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دلهي في توطيد دعائم دولته وحالف سلطنة المماليك في مصر بوصفها إسلامية مناهضة لمغول فارس[١].

كان الهدوء والتقارب بين السلاطين والعثمانيين في بداية ظهور العثمانيين، وكان بينهما تبادل الرسائل، واستمر السلم وتبادل الزيارات والترحيب والحفاوة وتقديم الهدايا الثمينة[٢]، فنجد السلطان مراد الأول العثماني أرسل سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية ومع ذلك لم يستطع برقوق أن يخفي مخاوفه من أطماع العثمانيين[٣]، وبقيت العلاقات ودية، ووصل إلى القاهرة رسل السلطان بازيد ومعهم هدية للسلطان برقوق منها مائة أسير من الفرنجة الفرنسيين والإيطاليين[٤]، واشتهر يلدرم بازيد بالجهاد في الكفار، وكاتبه السلطان برقوق[٥]، كما أرسل السلطان برقوق رسالة لصاحب القسطنطينية[٦]، وتجددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلاطين في مصر فأرسل مراد الثاني سفارة إلى القاهرة لتهنئة السلطان برسباي بالسلطنة ومعه هدية وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها، كما زادت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني والسلطان جقمق وحرص مراد أن يبعث لمصر عدد من أسرى انتصاره على الجانب الأوروبي عند قارنا، واستمرت السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال[٧]، كما أرسل السلطان العثماني محمد الفاتح إلى سلطان مصر الأشرف إينال يخبره بفتح

---

[١] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٦٦.

[٢] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٠٣.

[٣] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٦٨ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٣٨٤.

[٤] - قيام دولة المماليك الثانية ص١٤٧.

[٥] - الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج٢ ص١١٩ مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص١٦٢ ـ ١٦٣.

[٦] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص١٥٢.

[٧] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٧٠ ـ ٢٧١.

القسطنطينية، كما أرسل السلطان رسالة جوابية لمحمد الفاتح[١]، وحينما ورد نبأ وفاة السلطان العثماني أبو زيد بن محمد بن مراد خان حزن سلطان مصر الغوري، وصلى عليه صلاة الغائب، وكان آخر اللقاءات قبل بداية تحرشات العثمانيين بدولة السلاطين كان إرسال الأمير أقباي الطويل إلى سليم لتهنئته بالملك وإقامة علاقات مودة بينهما، وكان خروج أقباي في مصر في ١٠ ذي القعدة ٩١٨هـ، وعاد في ربيع الأول وقد بالغ السلطان سليم في إكرامه[٢].

عادت رسل السلطان محمد بن قلاوون عند الملك طقطاي ملك بلاد القبجق والجركس والقوقاز[٣].

وصلت رسل الفرنجة في جمادي الآخرة ٩١٨هـ ، رع ٧٨٨هـ بهدايا جليلة[٤].

عقدت هدنة بين أهل جنوة وبين السلطان قلاوون[٥]، وكذلك حضرت رسل جنوة في ١٧ محرم٧٩١هـ، ومعهم الخواجا علي أخ عثمان الذي كان الفرنجة قد نهبوا مركبه، وقدموا هدية فقبلت منهم[٦].

وصلت رسل جارلا كما تسميه الفرنجة ويجار أخو لويس المعروف بالريد فرانس فكتب السلطان بيبرس إليه بقبول شفاعته في الساحلية[٧].

عقدت هدنة بين السلطان المنصور وملك أراغون وأخيه ملك صقلية وأخيهما الآخر، كما عقدت بين السلطان قلاوون وبين الريد راكون الرشلوني وأخيه صاحب صقلية[٨].

[١] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٤٤٣ ـ ٤٤٨.
[٢] - العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٢٦٦ ـ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
[٣] - مصر والشراكسة ص٣٦.
[٤] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٨٠.
[٥] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٤٨٠.
[٦] - إنباء الغمر بأنباء العمر ص٣٨٠.
[٧] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٢٣٦.
[٨] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص ٨٤ ـ ٤٨٥.

أبرمت معاهدة بين السلطان والبندقية، وجعل بموجبها خدمات سنوية تقوم في الإسكندرية[1]، كما أرسل السلطان فرج بن برقوق رسالة إلى دوق البندقية[2].

عقدت معاهدة بين السلطان الغوري مع جمهورية فلورنسا وإيطاليا[3].

كلف فلوفيان رئيس الأسبتارية مندوباً عنه إلى السلطان برسباي لعقد معاهدة مع جزيرة رودس، وقدم هدية إلى السلطان، ووعد بدفع جزية سنوية له[4].

ج. هل هذا عصر انحطاط:

أكد جميع كتاب عصر دولة السلاطين والرحالة والباحثون، وفيما بعد عصرهم أيضاً، سواء من العرب أو الأجانب الغنى والرخاء الذي كانت عليه دولة السلاطين (يقول المفكر العربي وواضع علم الاجتماع ابن خلدون خلال القرن الثامن الهجري ١٤م ما نصه: من لم ير القاهرة لا يعرف عز الإسلام فهي حاضرة الدنيا وبستان العالم، ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في وجوهه تزهر الخوانك والمدارس بآفة، وتضئ البدور والكواكب من علمائه، وقد مثل بشاطئ النيل الجنة، وعلى الجانب الآخر كثيراً ما حدثنا الرحالة عن ثراء سكان القاهرة فيقول أحدهم[5]:إذا كان لي أن أصف ثراء هذه المدينة فلن يكفيني هذا الكتاب، إذ لو أمكن ضم رومة وميلانو وأدمرة وفلورنسة أربعة أخرى من المدن بعضها إلى بعض، أقسم أنها جميعاً تحتوي نصف ثروة القاهرة[6].

وصف التاجر باسل الروسي القاهرة في عصر السلاطين بأنها أربعة شوارع ودروب، ولكل منها باب وحارسان، ولكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلاً

[1] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٦٠.
[2] - الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي ص٥١٤.
[3] - مصر والشراكسة ص٩٣.
[4] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص١٠٥.
[5] - جاستون فييت.
[6] - الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة ص٩ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٦٣.

عن سوق كبير للحاجات اليومية للسكان بعد أن تغلق الأبواب يشدد الجراكسة عليها[1].

تدل الظاهرات العمرانية على أنها دولة عالية، ولا تخلف فيها، وأهم سبب للازدهار هو اعتمادهم على التجارة التي هي من دعائم اقتصاد دولتهم[2]، فيصف هولاكو القائد المغولي القاهرة في إحدى رسائله بأنها (كروان سراي) أي محطة تجارية عالمية، أو سوق تجاري عالمي، ويقول المقريزي في الخطط: سمعت الكافة ـ أي الناس جميعاً ـ ممن أدركتهم يفاخرون بمصر وسائر البلاد[3]، فالتجارة سواء المحلية والموسمية والسنوية[4]، كانت مربحة لأفراد الشعب[5]، ولا فساد فيها وكانت المراقبة الدائمة من قبل السلطة، وكان الناس مرتاحين نفسياً لذلك، والأموال متوفرة ولا مشكلة لدى أفراد الشعب فكثرت المحلات التجارية (وقد قال المسيحيون العارفون بهذه الأمور بأن في دمشق من المتاجر ما يكفي حاجات العالم المسيحي سنة كاملة)[6]، كما يمكن الاستدانة لفتح مشروع فقد (كان بإمكان أي واحد اقتراض المال والشروع في عمل بيع الألبسة)[7]، ولم تقتصر التجارة على التجارة الداخلية[8] فحسب بل التجارة الخارجية أيضاً وكان لهم دور الوسيط في تجارة جنوب شرقي أسيا وتركيا وإيران وأوروبا[9]، كما لم يكونوا مستهلكين للتجارة فقط بل مستثمرين فيها، وأنشأوا المشاريع والشركات مع تجار آخرين، وقد تشارك الأمراء والسلاطين برأس المال مع التجار[10]، (إن سلاطين الشراكسة لم

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص١٨٨ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٦٤.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٢.

[3] - الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني ص٦٩.

[4] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٢١١.

[5] - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٢١٣.

[6] - دمشق في عصر المماليك ص١٠٨ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٥٤.

[7] - مدن الشام في العصر المملوكي ص٤٢٢.

[8] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٨٧.

[9] - دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص٦٧ ـ ٦٨.

[10] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٩٠.

يعملوا على الاحتفاظ بقوة مصر وسلطانها فحسب، بل عملوا كذلك على نشر تجارتها الخارجية في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر وعقدوا اتفاقات تجارية)[1]. وجعلت أسواق مدنها وخاصة مدينة القاهرة ودمشق متعددة ومتخصصة بمعنى أن كل سوق اختص بنوع معين[2].

ازدهرت الصناعة كثيراً[3] في مصر عصر السلاطين نتيجة لكثرة الثروة فيها، واحتلت الصناعات الحربية مكاناً بارزاً في النشاط الصناعي وجدد في القاهرة سوق كبير اسمه سوق السلاح، وكذلك ارتبطت الصناعات الحربية بالسفن إذ أنشأ السلاطين أسطولاً بحرياً قوياً يحمي الشواطئ الواسعة، وكانت السفن الحربية على أنواع منها الشواني والحراريق والطرائد[4]، كما عرفت مصر صناعة السجاد التي استخدمت للقصور والمساجد[5].

اهتم السلاطين في مصر بالزراعة اهتماماً كبيراً، حيث كانت الزراعة دائماً الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم السكان، ومعروف أن أراضي مصر الزراعية كانت إقطاعيات وزعت بدل الرواتب، وهي غير وراثية لم تعط له، وتؤخذ منه بعد انتهاء عمله في حال تغير وظيفته، وهذه الاقطاعات وزعت على السلطان والأمراء والأجناد وغيرهم من الموظفين، وبعد أن قسمت إلى أربعة وعشرين قيراطاً كما مسحت الأراضي الزراعية وقيست ومسحت أكثر من مرة في عصر السلاطين، وتبع ذلك فك الزمام وتعديله، هي العملية المعروفة باسم الروك نذكر منها الروك الحسامي، والروك الناصري[6]، وبالإضافة

---

[1] - مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٣.

[2] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٥١.

[3] - دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٣٧.

[4] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٨٨ ـ ٢٨٩ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٢٠٠.

[5] - دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص٢١ ـ ٢٢.

[6] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٨٣ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٩٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٢ ـ ١٠١ ـ ١٣٤ ـ ١٣٥ المماليك ص١٧١ ـ ـ ١٧٢ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٩٧ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٨٣.

إلى الثروة الزراعية عني السلاطين أيضاً بالثروة الحيوانية فأكثروا من إنتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت سلالتها، وكان من هؤلاء السلاطين الناصر محمد الذي عني بإنتاج المواشي والأغنام، وليس على المناطق القريبة من عاصمته، وإنما صار يتبع مراعيها في فيذاب وقوص وغيرها من أنحاء البلاد[1].

كانت الصناعات الحرفية دوراً هاماً ومثار إعجاب للشرق والغرب على السواء[2]، وذلك في عصر السلاطين، فقد كانت دمشق تنتج السكر[3]، كما كانت تصنع فيها المنسوجات المتنوعة القطنية والحريرية[4]، وكذلك صناعة الزجاج العادي والملون والبللور الصخري، وكانت الصناعات الخشبية[5]، والخزف والفخار والمزخرفات الحديدية والكاغد والصابون والعطور، كما كانت الصناعات الزيتية فقد انتشرت معاصر زيت اللفت في أرجاء البلاد، وهناك الصناعات الزيتية الصناعية مثل صناعة الزيت بعصره من السمسم فضلاً عن الكتان والذي كان يستخرج منه الزيت الحار، وكذلك صناعة الورد وماء الزهر، والشموع والأحذية[6]، وكانت المدينة مشهورة أيضاً بصياغة الذهب والفضة[7]، والنحاس، وراج تطعيم البرونز

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٨٧ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٩٨.

[2] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٥٤.

[3] - مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٢٠٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٦٢.

[4] - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص٦٧ ـ ٦٨ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٢٠١ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٣٨ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٨٥.

[5] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٩٢ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٢٠١ ـ ٢٠٣ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٨٥.

[6] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٦٧ ـ ١٧٤.

[7] - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ج٢ ص١٠١.

بالنحاس والذهب والفضة[1]، واشتهرت هذه الأعمال في القاهرة، وكان بعض الأوروبيين يفضلونها على باريس وفلورنسة[2]، كما اهتم السلاطين بصناعة السفن وخاصة الحربية منها[3]، وكذلك صناعة لوازم الدواب، وكانت لها أسواق وخاصة مثل سوق المرجليين، وسوق المهمازين، وسوق اللجميين، وسوق الحوائطيين، كما كانت صناعة الورق مزدهرة في القاهرة، كما عرفت في دولة السلاطين (صناعة السكاكين والأقلام المذهبة والمطعمة بالجواهر والسلاسل الذهبية وأساور وخلاخيل النساء، والخواتم والقلادات الذهبية والفضية)[4].

تعددت مركز دور ضرب النقود وسكها في زمن السلاطين، وشملت عدداً من أقاليم الدولة ومدنها المختلفة بعضها في القاهرة والإسكندرية وقوص وغيرها، واستخدمت دور الضرب ثلاثة معادن لإصدار العملات النقدية وهي الذهب والفضة والنحاس[5].

تطورت المدن وتوسعت[6]، واستتب الأمن والاطمئنان (ولم يعد السكان يشعرون بالحاجة إلى ضرورة البقاء داخل أسوار دمشق، ومن ثم فقد طرأ على الضواحي تطور جذري، وهو تطور لم يجاره إلا التطور الاقتصادي في المدينة)[7]، فخرج الناس من القلاع ونشأت الضواحي في المدن وأصبح التطور والتوسع العمراني واضحاً في المدن وخاصة مدينة دمشق التي صارت حولها ضواح متطورة، وكان من عوامل

---

[1] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٩١ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٢٠٥ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص ١٧٣ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٢٣٩ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٨٥.

[2] - دمشق في عصر المماليك ص١٠٤.

[3] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٥٤ ـ ١٦٨ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص٢٠٧.

[4] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٧٠ ـ ١٧٢.

[5] - النظام المملوكي النقدي ص٥٢ ـ ٨٢ السكة الإسلامية في عصر دولة المماليك الجراكسة ص٣٣ ـ ٤١ ـ ١٥٥ ـ ١٩٣.

[6] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٥٥.

[7] - دمشق في عصر المماليك ص٦٢.

التطور الأخرى (الازدهار الاقتصادي وحكم القانون واستعادة المناطق الساحلية من الصليبيين وتركيز التجارة على الطرق السورية بسبب ما كان يعترض الطريق الشمالي البيزنطي من متاعب)[1].

كان واضحاً اهتمام السلاطين والأمراء برفاهية المدن، فهم لم يكونوا منعزلين عن أفراد الشعب مع العلم بأنهم ليسوا من العرب، وهذه الصفة قد تجعل كلا الطرفين على حذر من الآخر ومع ذلك (وصل الاهتمام بالرخاء العام إلى القمة في القرن الرابع عشر، حيث أعطيت فترات المنصب الطويلة فرصاً لتحقيق الثراء الذاتي، ولنمو الروابط الأسروية والسياسية مع السكان الطبيعين، وبالضرورة أدى التورط في المسائل المحلية إلى الاعتماد على الوجهاء المحليين لتحقيق الشرعية والمعونة الإدارية والسياسية)[2].

لقد أسهبنا في الحديث ووصف الرفاه الذي كان قائماً في عصر دولة السلاطين[3]، وذلك لأن الكثير كتب عن عصرهم واصفاً إياه بأنه عصر الانحطاط رغم توفر الخيرات لديهم فمثلاً كانت (تباع جميع المآكل في الشوارع كالخبز والماء واللحم المطهو على اختلاف أنواعه، وكل أصناف الفواكه، إذ أن الناس هناك لا يطبخون في البيوت، وأنهم يبعثون في طلب كل ما يرغبون فيه من السوق)[4]، ألا يدل ذلك على الرفاهة؟ وكذلك نجد المساكن التي قلما لا تجد فيها نافورة ماء، كذلك الإضاءة الليلية للشوارع، فقد كتب عن مدنهم (أن جميع الشوارع الواقعة داخل سور المدينة تنيرها في الليل مصابيح معلقة فيها. وبيوتها مرتفعة مبنية من الخشب الذي لا يظهر للعيان، إذ أن جدرها الداخلية مطلية باللون الأزرق الفاتح، وأرضها مكسوة بالفسيفساء وما أقل البيوت التي لم يكن فيها نواعير منحوتة من

[1] - دمشق في عصر المماليك ص١١٥.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٢٠.

[3] - صور ومظالم من عصر المماليك ص٩٢.

[4] - دمشق في عصر المماليك ص١٠٦ صور ومظالم من عصر المماليك ص٩٢ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١١٧.

الرخـام، وهــي متعـة للنـاظرين)[١]. وللمـدن حـرس في الشـوارع وخاصـة للمحـلات التجارية[٢]، فقد عرف عنهم أيضاً بأن (كان لهم ترتيب جميل لحراسة الشـوارع الـتي فيها التجار والصناع ليلاً، إن أكثر شـوارع دمشق مسـقوفة أو معقـودة يتخللها النـور بالقـدر الـلازم مـن فتحـات في السـقف، وإذا جـن الليـل أوقـدوا المصـابيح الزجاجيـة في الشوارع كلها بحيث يكون بين المصباح والآخر اثنا عشر ذراعاً، فترى لـيلاً كأنهـا في وضح النهار، بسبب المصابيح الكثيرة التي توقد، وقد قيـل إن عـدد المصـابيح الـتي كانت توقد كـل ليلـة كـان يبلـغ نحـو الـثلاثين ألـف مصـباح، وكـان في كـل شـارع حراس يقومون على حراسـة الحوانيـت)[٣]، ولتـوفير أسـباب الراحـة للتجـار والوافـدين أقيمـت المؤسسـات التجاريـة المتنوعـة داخـل المـدن وخارجهـا علـى امتـداد طـرق التجـارة مثل الخانات والوكالات والفنادق، وكان بعضها مثل خـان السـبيل يقـام لنـزول أبنـاء السبيل والمسافرين بغير أجـرة[٤]، ويجـدر بنـا أن نشـير إلى أن الكتـاب المعاصـرين وفي أواخر عصـر السـلاطين أطلقوا اسم الفندق على الخان[٥].

عرف السـلاطين البريد لما له من أهمية، فقد كانـت هنـاك مراكـز للبريـد منهـا مراكز للحمام الزاجل، حيث تربط الرسائل على أرجلها[٦]، كما بنيت مراكز بين كل منها مسافة قدرت بتعب الفرس المسرع، فتحمل الرسائل من مصر مثلاً وينطلق ساعي البريد على الحصان مسرعاً فحين يتعب الحصان يكون قد وصل إلى مركـز بريد جديد فيه خيول مستريحة فيترك الحصان القديم، ويمتطي فرساً آخر، وينطلق دون توقـف، وهكـذا ينتقـل بـالخيول في المراكـز المتفرقـة إلى أن يصـل وجهتـه[٧]،

[١] - دمشق في عصر المماليك ص١٠٥.

[٢] - الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص١٨٧.

[٣] - دمشق في عصر المماليك ص١٠٨ ـ ١٠٩ مصر عصر دولة المماليك البحريـة ص١٦٤ ـ ـ ١٤٨ النجـوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص١٣٩.

[٤] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٢٩٧ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري ص٢٠٧.

[٥] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٠٠.

[٦] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص١٣ ـ ١٤ العصر المماليكي في مصر والشام ص٨٧ ـ ٣٧٠.

[٧] - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٩٦.

واستفاد كافة الناس من هذه الخدمات وبالأخص التجار[1]، والصناع ولنقل أخبار تحركات الأعداء، وكانت المعاملة في المراكز العديدة ميسرة فقد (منح التجار إلى جانب الحماية مساعدة هامة بالخدمات الرسمية، والنزل المتعددة على طول الطرق الرئيسية، والتي دعمتها الدولة أو الأطراف، وتمكنوا بذلك من إيجاد المأوى والزاد، وهكذا كانت هذه الخدمات ذات قيمة كبيرة وكلفة عالية)[2].

أولى السلاطين عناية خاصة بالصحة العامة عن طريق فتح البيمارستانات أي المشافي للمعالجة والتعليم، واعتنوا بالنظافة العامة للمدن[3] فقد (طلب حاكم دمشق من القضاة والشهود المصادقة على الإجراءات اللازمة لمصادرة الحمامات والمراحيض الملوثة لماء نهر بردى، ونجد في أمثلة أخرى أنه تم الحصول على إذن بهدم المنازل والمتاجر[4].

اهتم المماليك بالدفاع عن البلاد ضد أي اعتداء على دولتهم إضافة إلى حفظ النظام الداخلي، وهذا كان العمل الأساسي لديهم، ولكن في فترات السلم كانت العناية توجه إلى العمران وتجميل المدن وتوسيعها، وحفظ الأمن إضافة إلى اهتماماتهم الاعتيادية على تعليم أفراد الشعب بالمجان والعناية بالمساجد. وقبل أن أختم الكتاب أود الإشارة إلى اهتمام السلاطين بلغة الضاد لغة القرآن الكريم ولغة العرب وعنايتهم الفائقة بها وعدم محاولتهم فرض لغة أخرى على شعوبها فقد كانت (اللغة الرسمية في عهدهم اللغة العربية... وكانت دولتهم أرقى دولة في عصرها[5].

---

[1] - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٨٦.

[2] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١٩٧.

[3] - العصر المماليكي في مصر والشام ص٣٢٨ مصر عصر دولة المماليك البحرية ص١٦٤ مدن والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٢٨٨.

[4] - مدن الشام في العصر المملوكي ص١١٠.

[5] - العراق بين المماليك والعثمانيين الأتراك ص٧.

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني.الدكتور:عمر موسى باشا.مطبعة الإحسان بدمشق. سورية١٩٧٩ ـ ١٩٨٠م.

٣ ـ مصر والشراكسة تأليف: راسم رشدي.دار صوت النارتيين للنشر، عمان الأردن.

٤ ـ من الموجز في تاريخ سورية تأليف:يوسف الدبس. بيروت.لبنان ١٩٠٦م.

٥ ـ الوطن في أدب الشراكسة تأليف: إيمان بقاعي.دمشق.سورية.

٦ ـ الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي تأليف: الدكتور محمد ماهر حمادة. مؤسسة الرسالة. بيروت.لبنان.الطبعة الأولى ١٩٨٠.

٧ ـ فلسطين والقرشاي. تأليف:محمد عمر بغداي.دمشق سورية.

٨ ـ مدن الشام في العصر المملوكي.تأليف: إيراما رفين لابيدوس. ترجمة: الدكتور سهيل زكار. دار حسان للطباعة والنشر.الطبعة الأولى١٩٨٠م.

٩ ـ الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني. تأليف محمد عبد المنعم خفاجي. القاهرة.مصر.١٩٨٤م.

١٠ ـ مقالات الكوثري. تأليف:محمد زاهد الكوثري. بيروت.لبنان.١٩٩٤م.

١١ ـ كنوز الأجداد. تأليف: محمد كرد علي.دمشق.سورية.١٩٥٠م.

١٢ ـ الجهاد في الإسلام.تأليف:الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. دار الفكر. الطبعة الأولى.١٩٩٣م.

١٣ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. تأليف:جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي ١٢ جزء. الطبعة الأولى ١٩٢٥م.

١٤ ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك. تأليف: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. دار النهضة العربية. بيروت.لبنان.

١٥ ـ مختار الصحاح.تأليف:محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. دار المتنبي للطباعة والنشر. بيروت.لبنان. الطبعة الأولى.١٩٨٢م.

١٦ ـ المصباح المنير. تأليف: أحمد بن محمد بن عبي الفيومي المقري. بيروت. لبنان ١٩٩٠م.
١٧ ـ منجد الطلاب. تأليف: فؤاد إفرام البستاني. دار المشرق ش م م. بيروت لبنان. الطبعة الأربعون ١٩٩٢م.
١٨ ـ رياض الصالحين. تأليف: يحيى بن شرف النووي. دار المأمون للتراث. الطبعة الرابعة عشر. دمشق.سورية.١٩٩٤م.
١٩ ـ إحياء علوم الدين.تصنيف الإمام: أبي حامد بن محمد الغزالي. المجلد الأول. دار الفكر للطباعة والنشر. بيروت. لبنان ١٩٩٤م.
٢٠ ـ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف. الأجزاء الأول والثاني والثالث. تأليف: زكي الدين بن عبد القوي المنذري. ضبط أحاديثه وعلق عليه: مصطفى محمد عمارة.
٢١ ـ تنظيم الأسرة في التراث الإسلامي. تأليف:الدكتور عبد الرحيم عمران.
٢٢ ـ لباب الخيار في سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. تأليف:الشيخ مصطفى الغلاييني. المكتبة الأدبية. حلب. سورية. الطبعة الثالثة ١٩٢٤م.
٢٣ ـ العصر المملوكي في مصر والشام. تأليف: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية. مصر. الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.
٢٤ ـ طومان باي. تأليف: الدكتور عبد المنعم ماجد. الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية. مصر ١٩٧٨م.
٢٥ ـ قصص الأنبياء. تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ١٩٨٩م.
٢٦ ـ سفر التكوين.
٢٧ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر. الجزء الأول. تأليف: المسعودي. بيروت لبنان ١٩٦٦م.
٢٨ ـ الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ج١ ج٢.تأليف:السيد أحمد بن زيني دحلان.
٢٩ ـ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي.تأليف: الدكتور محمد ماهر حمادة. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى١٩٨٠م.

٣٠ ـ ولاة دمشق في عهد المماليك.تأليف: محمد أحمد دهمان. دار الفكر. دمشق. سورية.الطبعة الثانية١٩٨٤م.
٣١ ـ واإسلاماه. تأليف: علي أحمد باكثير. دار مصر للطباعة. القاهرة. مصر.
٣٢. أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس.الجزء الأول. تأليف: الدكتور شوكت المفتي. عمان.الأردن.١٩٧٤م.
٣٣ ـ حوادث وقضايا المرأة والتراث والحرية.تأليف: نبيل فياض. دمشق. سورية.الطبعة الأولى.١٩٩٢م.
٣٤ ـ معجم البلدان. من ج١ إلى ج١٠. تأليف: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. مطبعة السعادة بمصر. الطبعة الأولى ١٩٠٦م.
٣٥ ـ البداية والنهاية ج١ ٢ ١٣ ١٤. تأليف: أبو الفداء الحافظ بن كثير. مكتبة المعارف. بيروت.لبنان. الطبعة الخامسة ١٩٨٣م.
٣٦ ـ المماليك. تأليف: الدكتور السيد الباز العريني. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.بيروت. لبنان.
٣٧ ـ اليهود في القرآن. تأليف:عفيف عبد الفتاح طبارة. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. الطبعة الحادية عشرة ١٩٨٦م.
٣٨ ـ جريدة الموقف الرياضي السورية العدد ١٥٧٤ تاريخ ١٩٩٥/١١/٢٥.
٣٩ ـ نضال الشعب الشيشاني من أجل الاستقلال. تأليف: الدكتور زهدي سطاس، الدكتور راتب سطاس، ملك أرسلان، أميرة قبرطاي. دار شرق مغرب للخدمات الثقافية والطباعة. دمشق. سورية. الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
٤٠ ـ دروب الهجرة. تأليف: إسكندر مجار. نقلها إلى العربية: بسام حجار. دار النهار للنشر ش م ل. بيروت. لبنان. طبعة ١٩٩٥م.
٤١ ـ تفسير البشائر وتنوير البصائر. تفسير: علي الشربجي. طار البشائر. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. ١٩٩٧م.
٤٢ ـ مجلة العربي الكويتية. العدد ٣٦٦ أيار ١٩٨٩. والعدد ٣٦٧ حزيران ١٩٩٧م.
٤٣ ـ أساطير النارتيين والتاريخ الحديث للشراكسة. تأليف: باتراي أوزبك. ترجمة: أحمد راتب زنداقي. مكتبة الشباب ومطبعتها. عمان. الأردن ١٩٨٨م.

٤٤ ـ تاريخ القوقاز. تأليف: مت جوناتوقه يوسف عزت. تعريب: خوستوقه عبد الحميد غالب بك. القاهرة. مصر ١٩١٢م.
٤٥ ـ موجز تاريخ الجركس. تأليف: شورا بكمرزا نوغمو. تعريب: شوكت المفتي حبجوقة. طبعة الأردن. عمان. الأردن.
٤٦ ـ عشائر الشام.ج١ ج٢. تأليف: أحمد وصفي زكريا. دار الفكر. دمشق. سورية.
٤٧ ـ إبادة الشراكسة. تأليف: علي حسن قاسوم، وحسن علي قاسوم. ترجمة: الدكتور عمر شابسيغ. صوت النارتيين. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. ١٩٩٥م.
٤٨ ـ عبر دروب الجبال. تأليف: أبو ر آ إيدميرون. ترجمة: حميد يونس. مكتبة الشباب ومطبعتها. عمان. الأردن. ١٩٨٦م.
٤٩ ـ الأبخاز الشراكسة. تأليف: أميرة محمد مصطفى قبرطاي. مطبعة دار الشام. دمشق. سورية. ١٩٩٤م.

٥٠ ـ مجلة الشرق الأوسط العدد ٥٨٦٣. تاريخ ١٩٩٤/٢/١٧م.
٥١ ـ حرب بزيقوه. تأليف: اسحق مشباش. ترجمة: محمد خير خواج. ج١ ج٢. مطبعة العجلوني دمشق. سورية. ١٩٨٩م.
٥٢ ـ ميرزا باشا وصفي. تأليف: محمد خير حغندوقة. عمان.الأردن..١٩٨٦
٥٣ ـ العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار. تأليف: محمد بن محمود الحلبي الملقب بابن أجا. صنّفه: محمد أحمد دهمان. دار الفكر. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. ١٩٨٦م.
٥٤ ـ محاضرة بعنوان: العرف والأساطير الشركسية للمؤلف ألقيت في ١٩٩٨/٥/٢م.
٥٥ ـ الشركس في فجر التاريخ. تأليف: برزج سمكوغ. دار علاء الدين. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. ١٩٩٥م.
٥٦ ـ موسوعة تاريخ القفقاس والجركس. المجلد الأول. تأليف: محمد جمال صادق أبه زاو. دار علاء الدين. دمشق. سورية. ١٩٩٦م.
٥٧ ـ الشيشان حرب إبادة وجريمة عصر. تأليف: إحسان عبد الحميد خن. دمشق. سورية. ١٩٩٨م.

٥٨ ـ احتلال الروس للقفقاس. تأليف: جون.ف.بادليي. تعريب: صادق إبراهيم عودة. مكتبة الأقصى للنشر والتوزيع. عمان. الأردن. الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
٥٩ ـ شامل في القفقاس وفي روسية. تأليف: م.تشيتشا غوفا.ترجمة: نبيل حاج علي. دار طلاس. دمشق. سورية. الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
٦٠ ـ الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تأليف: محي الدين بن عبد الظاهر. تحقيق: عبد العزيز الخويطر. الرياض. الطبعة الأولى ١٩٧٦م.
٦١ ـ الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة. تأليف: الدكتور أبو الحمد محمود فرغلي. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٦٢ ـ صور ومظالم عن عصر المماليك.تأليف: الدكتور نظير حسان سعداوي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. مصر ١٩٦٦م.
٦٣ ـ دمشق في عصر المماليك. تأليف: الدكتور نقولا زيادة. مكتبة لبنان ١٩٦٦م.
٦٤ ـ الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري. تأليف: أنطوان خليل ضومط. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية ١٩٨٢م.
٦٥ ـ تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل. تأليف: المستر جورج يانج. تعريب: علي أحمد شكري. الناشر دار الفرجاني. القاهرة. طرابلس. لندن.
٦٦ ـ مصر في عهد دولة المماليك البحرية. تأليف: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. مصر ١٩٥٩م.
٦٧ ـ نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر. تأليف: الدكتور عبد المنعم ماجد. الطبعة الثانية ١٩٧٩م.
٦٨ ـ مصر في دولة المماليك الجراكسة. تأليف: الدكتور إبراهيم طرخان. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. مصر ١٩٦٠م.
٦٩ ـ دمشق بين المماليك والعثمانيين. تأليف: أكرم حسن العلبي. الشركة المتحدة للتوزيع. دمشق. سورية. الطبعة الأولى. ١٩٨٢م.
٧٠ ـ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور. ج١ج٢.تأليف: ابن تغري بردي. تحقيق: الدكتور محمد كمال الدين عز الدين. الطبعة الأولى. ١٩٩٠م.

٧١ ـ نور المقابس في تواريخ الجراكس. تأليف: نوح المرتوقي. المطبعة الكريمية ببلدة قزان في الإمبراطورية الروسية. ١٩١٢م.
٧٢ ـ بناء دولة محمد علي (السياسية الداخلية). تأليف: محمد فؤاد شكري وعبد المقصود العناني وسيد محمد خليل. دار الفكر العربي. القاهرة. مصر.١٩٤٨م.
٧٣ ـ الأصول الشركسية في اللغة السومرية. تأليف: منذر بج. دار الفكرة. حلب. سورية. الطبعة الأولى. ١٩٩٥م.
٧٤ ـ العلاقة بين اللغتين السومرية والشركسية. تأليف: منذر بج الأصيل. حلب. سورية. ١٩٩٦م.
٧٥ ـ الحلقة المفقودة. تأليف: الدكتور عمر رفقي جه جوق. مصر.
٧٦ ـ مجلة البروز. دمشق. سورية. العدد التاسع. كانون الثاني شباط ١٩٩٨م
٧٧ ـ مبادئ الجغرافية العامة والعالم. كتاب مدرسي. ١٩٩٥م.
٧٨ ـ تاريخ البصروي. تأليف: الشيخ علاء الدين علي بن يوسف بن أحمد الدمشقي البصروي الشافعي. تحقيق ودراسة: أكرم حسن العلبي. الطبعة الأولى ١٩٨٨م.
٧٩ ـ أنباء الغمر بأبناء العمر. المجلد الأول.تأليف: أحمد بن علي الشهير بابن حجر العسقلاني. تحقيق: أحمد دهمان. دمشق. سورية.١٣٩٩هـ.
٨٠ ـ قيام دولة المماليك الثانية.تأليف: الدكتور حكيم أمين السيد. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة. مصر ١٩٦٦م.
٨١ ـ الطرب في العصر المملوكي. تأليف: محمد قنديل البقلي. ١٩٨٤م.
٨٢ ـ تاريخ البيمارستانات في الشام. تأليف: الدكتور أحمد عيسى بك. دار الرائد العربي. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية ١٩٨١م.
٨٣ ـ السيف المهند في سيرة الملك المؤيد (الشيخ المحمودي). تأليف: بدر الدين العيني. حققه وقدم له: فهيم شلتوت. راجعه: الدكتور محمد مصطفى زيادة. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة. مصر ١٩٦٧م.
٨٤ ـ النظام النقدي المملوكي. تأليف: حمود بن علي النجدي. الإسكندرية. مصر ١٩٣م.

٨٥ ـ رحلات إلى الأقاليم الجنوبية الشركسية من الإمبراطورية الروسية. تأليف: ب.س. بالاس. تجميع وإعداد: وصفي ميرزا باشا. ترجمة وإخراج: الأستاذ فهمي شما. عمان. الأردن ١٩٨٢م.

٨٦ ـ حكاية جدي. تأليف: ألفة الادلبي. دمشق. سورية. الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

٨٧ ـ محاضرة تحت عنوان: الشراكسة في مصر منذ عهد محمد علي باشا. تأليف: فيصل موسى حبطوش. ألقيت في تموز ١٩٩١م.

٨٨ ـ السيف والتابوت. تأليف: الدكتور عبد السلام العجيلي. دار الشرق. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية.

٨٩ ـ دليل الأنساب الشركسية. تأليف: محمد خير إسماعيل. دمشق. سورية. الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٩٠ ـ الجولان أطماع العدو تاريخياً وبشرياً وجغرافياً واقتصادياً. تأليف: عصام أباظة وهشام شيشكلي. دمشق. سورية. ١٩٧٥م.

٩١ ـ عاد وثمود. تأليف: الدكتور محمد علي بك بشيمالوق. تعريب: يوسف كمال حتاتة. دمشق. سورية. ١٩٢٩م.

٩٢ ـ فتوح الشام للواقدي وبهامشه تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين. للإمام الشيخ: عبد الله الشرقاوي.ج١ ج٢. المكتبة الشعبية. بيروت.لبنان.

٩٣ ـ قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة. تأليف: محمد أفندي مصطفى. المطبعة البهية المصرية، مصر ١٣١٦هـ.

٩٤ ـ مختصر صحيح البخاري مع شرحه من: فتح الباري الحافظ ابن حجر العسقلاني. المجلد الثاني. تأليف: خالد عبد الرحمن العك. دار الحكمة للطباعة والنشر. دمشق. سورية. الطبعة الأولى ١٩٩١م.

٩٥ ـ تفسير القرآن العظيم للإمام: إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت. لبنان ١٩٦٩م.

٩٦ ـ قفقاسيا. تأليف: محمود شاكر. مؤسسة الرسالة.

٩٧ ـ شمال القفقاس تنوع في إطار الوحدة. تأليف: عز الدين سطاس. مطابع الإدارة السياسية. دمشق. سورية. ١٩٩٤م.

٩٨ ـ أصل الشركس. تأليف: أيتك ناميتوق. ترجمة: الدكتور فؤاد يحيى توغوج. كار صوت النارتيين للنشر. دمشق. سورية. ١٩٩١م.
٩٩ ـ الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين تأليف: ابن دقماق.ج١ ج٢. تحقيق: محمد كمال عز الدين علي. الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
١٠٠ ـ نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين. تأليف: عبد الباسط بن خليل ابن شاهين المطلي. تحقيق: محمد كمال عز الدين علي. الناشر مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
١٠١ ـ السكة الإسلامية في مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة. تأليف: الدكتور رأفت محمد النبراوي. مركز الحضارة للإعلام والنشر. القاهرة. مصر. الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
١٠٢ ـ الملك المظفر قطز. تأليف: حسن أكرم. دار المأمون للتراث. دمشق. سورية. الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
١٠٣ ـ كتاب خطط الشام. ج١ إلى ج٦. تأليف: محمد كرد علي. مطبعة المدينة. دمشق. سورية. ١٩٢٥م.
١٠٤ ـ تاريخ الملك الظاهر. تأليف: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد باعتماد أحمد حطيط ١٩٨٣م.
١٠٥ ـ الملك الأشرف خليل بن قلاوون. تأليف: أكرم حسن العلبي. دار المأمون للتراث. دمشق. سورية. الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
١٠٦ ـ مجلة النشرة الثقافية. دمشق. سورية. العدد ٤ آذار ١٩٩٩٠م.
١٠٧ ـ المطبخ السلطاني زمن الأيوبيين والمماليك. تأليف: دكتور نبيل محمد عبد العزيز. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. مصر.
١٠٨ ـ مقالة تحت عنوان: (الشيشان تفاؤل وقلق).
١٠٩ ـ الحيل في حرب دولة المماليك. تأليف: الدكتور عبد العزيز محمود عبد الدايم. طبعة ١٩٨٣م.
١١٠ ـ آثارنا في الإقليم السوري. تأليف: أبو الفرج العش. دمشق. سورية. الطبعة الأولى ١٩٦٠م.

١١١ ـ القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام. تأليف: القاضي بدر الدين المعروف بابن جدعان. تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري. منشورات جرس. برس. الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

١١٢ ـ تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء. تأليف: الأستاذ فالح بكور. دمشق. سورية. الطبعة الثانية ١٩٩٢م.

١١٣ ـ انتصار الوحدة في شمال القفقاس. تأليف: يوري موسى شنبة. تعريب: أميرة محمد مصطفى قبرطاي. مطبعة الرازي. دمشق. سورية.

١١٤ ـ الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة. الدكتور محمد كمال الدين عز الدين. عالم الكتب. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

١١٥ ـ نظم العقيان في أعيان الأعيان. تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. حرره الدكتور فيليب حتي. المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك.١٩٢٧م.

١١٦ ـ الدارس في تاريخ المدارس. تأليف: عبد القادر محمد النعيمي. الجزء الأول. عني بنشره وتحقيقه: جعفر الحسني ١٩٤٨م.

١١٧ ـ مآذن دمشق تاريخ وطراز. تأليف: الدكتور قتيبة الشهابي. منشورات وزارة الثقافة. دمشق. سورية ١٩٩٣مز

١١٨ ـ أعلام الأدب والفن. تأليف: أدهم الجندي. الجزء الثاني. مطبعة الاتحاد. دمشق. سورية. ١٩٥٨م.

١١٩ ـ الشيشان حقائق. للمؤلف. دمشق ٢٠٠١م.

الكتب التي نشرت للمؤلف...

١ ـ الشيشان حقائق ٢٠٠١م

٢ ـ حقيقة المماليك ٢٠٠١م

٣ ـ تواريخ..أحداث وشخصيات ج١ ٢٠٠٢م

٤ ـ تواريخ..احداث وشخصيات ج٢ ٢٠٠٣م

٥ ـ لسان الشركس ٢٠٠٤م

٦ ـ حكاية والدي ٢٠٠٤م

٧ ـ أدب وأدباء ٢٠٠٤م

٨ ـ أبطال..ومقاتلون..قادة ٢٠٠٧م

الفهرس